البحر الرائق

في

الزهد والرقائق

جمع وترتيب

أحمد فريد

مكتبة الصحابة

جدة - الشرفية

فاكس : ٦٥٣٤٤٨٩

هاتف : ٦٥٢١٠٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

١٤١١ هـ = ١٩٩١

مكتبة الصحابة
جدة - الشرفية
فاكس : ٦٥٣٤٤٨٩
هاتف : ٦٥٢١٠٦٠

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذى سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا ، وأوضح لهم طرق الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلا ، واتخذهم عبيدا له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيلا وكتب فى قلوبهم الإيمان لما رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشهد بها مع الشاهدين ، وأتحملها عن الجاحدين ، وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين .

وأشهد أن محمدا عبده المصطفى ، ونبيه المرتضى ، ورسوله الصادق المصدوق . الذى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل ، وافترض على العباد طاعته وتعظيمه وتوقيره وتبجيله والقيام بحقوقه ، وسد إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، فشرح له صدره ، ورفع له ذكره ، وفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها ، وتألفت القلوب بعد شتاتها ، وسارت دعوته سير الشمس فى الأقطار ، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار ، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الغر الميامين .

أما بعد

فمن فضل الله على العبد أن ييسر له سبيل الخيرات وأن يصرف عنه السوء والمنكرات ، ولا شك أن الاهتمام بما تزكو به النفس ويرق به القلب حتى ينقاد لشرع الله ويستجيب لأمره ونهيه من أعظم أسباب الخير فى الدنيا والآخرة ، فإن

القلوب لا تصل إلى مناها حتى تصل إلى مولاها ، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة .

والسعادة سعادة القلوب ، والشقاء شقاء القلوب ، والقلوب لا تسعد إلا بالله ولا تطمئن إلا بذكره وطاعته كما قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد : ٢٨] فبان بما ذكرنا أن طريق السعادة الاهتمام بالقلوب وإصلاحها ومداواة أمراضها وأسقامها حتى تستجيب لربها ، والموفق من وفقه الله والمخذول من حرم عنايته وهداه .

وبعد أيضا

فمنذ أن نفدت الطبعة الأولى من كتاب « البحر الرائق فى الزهد والرقائق » وذلك بعد أن تمَّ عرضها بمدة يسيرة على ما فيها من أخطاء مطبعية غفر الله لناشرها ، وإخواننا يطلبون أن يعاد طبعه ، والأمور كما قال النبى ﷺ : تجرى بالمقادير ، فكنت أجتهد فى إعادة طبعه طبعةً منقحة محققة مزيدة ثم انشغل عن ذلك ، حتى يسر الله عز وجل ومَنَّ علينا بفضله ووفقنا للانقطاع لتحقيقه وتنقيحه ، وأرجو أن يكون « البحر الرائق » فى طبعته الجديدة وثوبه القشيب رائقا من الأخطاء المطبعية ، كما أرجو أن يكون رائقا من الأحاديث الضعيفة ؛ فقد بذلت جهدا أحتسبه فى تحقيق الأحاديث المرفوعة ، وحذفت كل حديث ثبت عندنا ضعفه وإن كان مشهوراً متداولا ؛ حتى أُثْبِتَ لإخواننا أن فى الصحيح غُنيَةً ، وأن العبد ينبغى عليه أن يداوى قلبه بأدوية القرآن والسنة والصحيحة ، وما جعل الله عز وجل شفاء أمة محمد ﷺ فيما حرم عليها ، فلا ينبغى أن نعالج قلوبنا بالضعيف والموضوع والحكايات الملفقة والأخبار المزوقة ، ولا نستغنى بالأبيات عن الآيات كما فعلت الصوفية ، مع أنه قد توسع بعض إخواننا فى استماع الشعر يلتمسون بذلك رقة قلوبهم وهذا توسع فى أشياء لم يتوسع فيها السلف رضى

الله عنهم ، وكل ما يشغل عن القرآن والسنة الصحيحة فهو شؤم على صاحبه نسأل الله السلامة ، ويخشى على من يكثر من ذلك أن لا يتأثر قلبه بكلام الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ .

وقد بينت منهج أهل السنة فى التزكية فى رسالة مستقلة بعنوان « التزكية بين أهل السنة والصوفية » .

فالله عز وجل قد أغنانا بكتابه وبسنة نبيه ﷺ ، ونزل على النبى ﷺ بعرفة فى حجة الوداع قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾ [المائدة : ٣] .

فالكتاب والسنة الصحيحة منهج حياة للأفراد والمجتمعات يتكفلان بالسعادة الدنيوية والأخروية ، والإعراض عنهما سبب للشقاء فى الدنيا والآخرة ، سواء فى ذلك من أعرض عنهما واستبدل بهما غيرهما من الأحاديث الموضوعة والأبيات المصنوعة ، أو من تركهما بالكلية واستغنى عنهما بالمناهج الأرضية والقوانين البشرية .

قال الله تعالى : ﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى** ﴾ [طه : ١٢٣ ، ١٢٤] .

وهدى الله عز وجل هو كتابه المُنَزَّل وسنة رسوله ﷺ

والذكر كذلك هو الكتاب والسنة .

فكل ما يتقرب به إلى الله عز وجل يجب أن يكون فى حدود المشروع ، وهذا أصل أصيل فى دين الإسلام ، وقاعدة أرساها رسول الله ﷺ بقوله : « **من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد** »(١) ، وليست العبادة تعذيبا للنفس ، وليس

---

(١) رواه مسلم (١٢/١٦) الأقضية والبخارى بمعناه (٥/٣٠١) الصلح .

كل تعذيب للنفس عبادة ، رأى رسول اللّه ﷺ رجلا يهادى بين ابنيه فسأل عنه فقالوا : يا رسول اللّه نذر أن يمشى فقال ﷺ : « **إن اللّه عن تعذيب هذا نفسه لغنىّ وأمره أن يركب** »[1] .

وعن ابن عباس قال : بينما النبى ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم فقال النبى ﷺ : « **مُرْهُ فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه** »[2] . فأقر ﷺ المشروع وهو الصيام وأنكر غير المشروع وهو ترك الكلام والقيام فى الشمس .

فلا يجوز أن نتقرب إلى اللّه عز وجل بعبادات لم يشرعها اللّه عز وجل ، كذلك لا يجوز أن نبالغ فى المشروع ونتجاوز به حد الاعتدال الذى شرعه اللّه عز وجل ، وكان هديه ﷺ وعبادته المثل الأعلى فى ذلك ، ولا يجوز لأحدٍ من أمته ﷺ أن يزيد عليه أو أن يظن أنه أكمل عبادة من رسول اللّه ﷺ ، وأدل دليل على ذلك حديث النفر الثلاثة الذين أتوا إلى بيوت النبى ﷺ فسألوا عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقال أحدهم : وأين نحن من رسول اللّه ﷺ إن اللّه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أما أنا فسأقوم ولا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فسأصوم ولا أفطر ، وقال الثالث : أما أنا فلا أتزوج النساء ، فلما أُخبر النبى ﷺ قال : « **ما بال أقوام يقولون كذا وكذا أما إن أعلمكم باللّه وأتقاكم للّه أنا ، أما إنى لأصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى** »[3] وصفوة القول أن العبد ينبغى عليه بأن يلتمس رقة قلبه ويسعى فى تزكية نفسه بحسب ما بين اللّه عز وجل فى كتابه وما صح من سنة رسوله

---

(١) رواه البخارى (٤/٧٨) جزاء الصبر ، ومسلم (١١/١٠٢) النذر وأبو داود (٣٢٧٩) الأيمان والنذور ، والترمذى (٧/٢٠/٢١) النذور ، والنسائى (٧/ ٣٠) الأيمان ، والدارمى (٢/١٨٤) النذور ، وأحمد (٣/١٠٦/١١٤/١٨٣) .

(٢) رواه البخارى (١١/٥٨٦) الأيمان والنذور وأبو داود (٣٢٦٦) الأيمان والنذور .

(٣) رواه البخارى (٩/٨٩ ، ٩٠) النكاح ، ومسلم (٩/١٧٦) النكاح .

ﷺ[1] وعلى هذا الهَدْىُ مضى الصحابة رضى الله عنهم فالهُدى ما كان من الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٧٣] .

وبقى أن نقول إن علم التزكية والرقائق لازم لطلاب العلم فضلا عن سائر العباد لزوم الماء للسمك والهواء لسائر الأحياء ، وذلك لتطييب قلوبهم أولا كما يقال : يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة ، وحتى يجددوا توبتهم إلى الله عز وجل كل صباح ومساء كما قال بعض السلف : من لم يتب كُلَّ صباح ومساء كان من الظالمين قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] وحتى لا ينقطع طالب العلم فى الطريق بآفة تصيبه فى مَقتل ، فلربما كان العبد على درجة من الذكاء ، أو جِدٍ واجتهاد فى تحصيل العلوم الشرعية فيدخله عجب أو كبر أو رياء فيهلك كما فى قصة الثلاثة الذين هم أول ما تسعر بهم النار - نعوذ بالله من حال أهل البوار -

وقد لجأ كثير من الناس إلى كتب الصوفية يلتمسون رقة قلوبهم وهى قد تعالج شيئا من أمراضهم لما فيها من أدلة الكتاب والسنة الصحيحة ولكنها مع ذلك تشتمل على الضعيف والموضوع والشطحات والغلو فى المخلوقين مما يجعل ضررها أكثر من نفعها ولا يأمن الناظر فيها من تناول السم مع العسل .

وأدى تساهل بعض العلماء فى رواية الضعيف فى المواعظ والرقائق إلى حشو كتب الرقائق بالأحاديث الموضوعة ، وكأن هذا التساهل الذى ذهب إليه العلماء بالنسبة للمواعظ خلافا للعقائد والأحكام دون حدود أو ضوابط ، وإنما رخص من ترخص فى رواية الضعيف فى ذلك بشروط بينها العلماء وليس هذا مجال سردها ، ولا شك أن الأحوط فى ذلك والذى لا خلاف فيه أن نقتصر على الصحيح الذى يحصل به المقصود ، خاصة والهمم فى هذه الأزمنة المتأخرة قاصرة عن إدارك الصحيح من ذلك فضلا عن الاشتغال بالضعيف وغيره ، وقد جمعت

---

(١) انظر « الكتاب والسنة عقيدة ومنهجًا » لعبد الرحمن عبد الخالق .

هذا الكتاب نصيحة لى ولإخوانى من كتب الرقائق التى وقفت عليها ، واقتصرت على نقل صحيح الأخبار حتى أوفر لإخوانى الذين يريدون تهذيب نفوسهم وترقيق قلوبهم النظر فى المصنفات الكبار التى لا تخلو من ضعيف الأخبار ، والكتاب ولا شك زاد نافع للمتصدى من إخواننا للدعوة إلى اللّه حيث يوفر عليه تحضير الخطب فكل موضوع يصلح أن يكون خطبة أو درسا نسأل اللّه أن يتقبله بقبول حسن ، وأن يجعل خير أعمالنا خواتمها وخير أيامنا يوم لقائه ، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

١ - مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله الذى رضى من عباده باليسير من العمل ، وتجاوز لهم عن الكثير من الزلل ، وأفاض عليهم النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضَمَّنَ الكتاب الذى كتبه أن رحمته سبقت غضبه ، دعا عباده إلى دار السلام فَعَمَّهُم بالدعوة حجة منه عليهم وعدلا ، وخص بالهداية والتوفيق من شاء نِعْمَةً ومِنَّةً وفضلا ، فهذا عدله وحكمته وهو العزيز الحكيم ، وذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة عبده وابن عبده وابن أمته ، ومن لا غنى به طرفة عين عن فضله ورحمته ، ولا مطمع له فى الفوز بالجنة والنجاة من النار إلا بعفوه ومغفرته ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأمينه على وحيه وخيرته وخليله ، أرسله رحمة للعالمين ، وقدوة للعاملين ، ومحجة للسالكين ، وحجة على العباد أجمعين ، بعثه للإيمان مناديا ، وإلى دار السلام داعيا ، وللخليقة هاديا ، ولكتابه تاليا ، وفى مرضاته ساعيا ، وبالمعروف آمرا ، وعن المنكر ناهيا ، وقد ترك أمته على الواضحة الغراء والمحجة البيضاء ، فسلك أصحابه وأتباعه على أثره إلى جنات النعيم ، وعدل الراغبون عن هديه إلى صراط الجحيم : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وإنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢] فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وعباده المؤمنون عليه ، كما وَحَّدَ الله وعبده وعَرَّفَنَا به ودعا إليه .

أما بعد

فإنه لما عز بين يدى إخواننا طلاب العلم أكرمهم الله وأعانهم كتاب منهجى فى علم التزكية والرقائق يجمع أصح الأخبار ويخلو من الشوائب والغبار

ويغنيهم عن مصنفات المتصوفة المليئة بالعلل وضعيف الآثار ، عمدت بفضل اللّه تعالى ومنه وكرمه إلى جمع مادة هذا الكتاب من كتب أئمة العلم والدين المتتبعين آثار سلفنا الصالحين ، الذين برعوا فى علم الرقائق كالإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية رحمه اللّه وأكرم نزله ومثواه ، والإمام القدوة زين الدين ابن رجب الحنبلى أجزل اللّه له العطاء وأسكنه مع النبيين والشهداء ، وأسميته « البحر الرائق فى الزهد والرقائق » وهو اسم يطابق مسماه ولفظ يوافق معناه ؛ فقد جمع الكتاب بطريقته المنهجية أصح الأخبار وشروح أئمة السنة الأخيار ، جمعنا اللّه بهم فى دار الأبرار وكتب لنا به براءتين براءة من النفاق وبراءة من النار ، فبحبنا لهم واتباعنا لسنتهم نرجو صحبتهم ؛ فقد تواتر فى الخبر « **الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ** » والكتاب بحمد اللّه وفضله مشوق للناظر فيه ، لا يسأمه الجليس ولا يمله الأنيس ، محرك للقلوب إلى أجل مطلوب ، وحاد للنفوس إلى مجاورة الملك القدوس ، مشتمل من بدائع الفوائد وفرائد القلائد ما لعل المجتهد فى الطلب لا يجده فيما لديه من الكتب ، واللّه يعلم ما قصدت وما بجمعه أردت ، فهو عند لسان كل عبد وقلبه ، وهو المطلع على نيته وكسبه .

وهو سبحانه المسئول أن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، مُدْنِيًا لجامعه وناشره وقارئه من جنات النعيم ، وأن يجعله حجة لهم ولا يجعله حجة عليهم ، وأن ينفع به من انتهى إليه ، إنه خير مسئول وأكرم مأمول وهو حسبنا ونعم الوكيل .

٢ - الإخلاص ومتابعة السنة(*) شرطان لقبول العمل

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك : ٢] قال الفضيل بن عياض : هو أخلصه وأصوبه . قالوا يا أبا على : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] . وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء : ١٢٥] فإسلام الوجه : إسلام القصد والعمل لله والإحسان فيه متابعة رسوله ﷺ وسنته ، وقال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] وهى الأعمال التى كانت على غير السنة أو أريد بها غير وجه الله .

قال بعض السلف : ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ! أى لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرضه من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل ؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى وابتغاء الوسيلة إليه ؟

(*) انظر إغاثة اللهفان لابن القيم . وإحياء علوم الدين للغزالى ، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ، وفتح البارى لابن حجر العسقلانى .

ومحل هذا السؤال : أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك أم فعلته لحظك وهواك .

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام فى ذلك التعبد ، أى هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولى أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثانى سؤال عن المتابعة فإن الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما .

فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثانى بتحقيق المتابعة .

الإخلاص

تعريفه : هو تجريد قصد التقرب إلى الله عز وجل عن جميع الشوائب .

وقيل : هو إفراد الله عز وجل بالقصد فى الطاعات .

وقيل : هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

وقد أمر الله عز وجل بالإخلاص فقال تعالى :

﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ** ﴾ [البينة : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [الزمر : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : « **جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله :**

لا شيء له . فأعادها ثلاث مرار ويقول رسول الله ﷺ : لا شيء له ، ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه »[1] وقال ﷺ : « **ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهن قلب أمرىء مؤمن : إخلاص العمل لله ، والمناصحة لأئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم .** »[2] .

والمعنى أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب فمن تخلق بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر .

ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص لقول الله عز وجل : ﴿ **إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [الحجر : ٤٠] ويروى أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه : أخلصى تتخلصى . وكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه ، والإنسان مرتبط فى حظوظه منغمس فى شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ؛ فلذلك قيل : طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله .

فالإخلاص تنقية القلب عن الشوائب كلها قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواه ، والشيطان قد يحاصر العبدَ ويحبط له كل عمل ولا يكاد يخلص له عمل واحد ، وإذا خلص عمل واحد فقد ينجو به العبد .

قيل للإمام سهل : أى شيء أشد على النفس قال : الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب .

---

(١) رواه النسائى (٦/٢٥) الجهاد وقال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : وإسناده حسن (٤/٢٨) وقال المنذرى : اسناده جيد (١/٢٤) الترغيب والترهيب .

(٢) رواه الترمذى (١٠/١٢٦) العلم باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع وقال : حديث حسن صحيح ؛ وابن ماجة (١/٨٤) المقدمة ، والدارمى (١/٧٦) ، والبغوى فى شرح السنة (١/٢٣٦) ، وصححه الحافظ ، ورواه أحمد (٤/٨٠ ، ٨٢) وصححه الألبانى كذلك .

فالنفس تحب الظهور والمدح والرياسة وتميل إلى البطالة والكسل وزينت لها الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، فأشد شيء على النفس إخلاص النية لله عز وجل . قال أيوب : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال . وقال بعضهم: إخلاص ساعة نجاة الأبد ولكن الإخلاص عزيز . فينبغى لمن أراد الإخلاص أن يقطع محبة الشهوات من قلبه ، ويملأ قلبه بحب الرب جل وعلا ، ويستغرق الهم بالآخرة ، فمثل هذا لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النية ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص مسدود عليه إلا على النُّدور .

فالذى يغلب على قلبه حب الله عز وجل وحب الآخرة تكتسب حركاته الاعتيادية صفة همه وتصير إخلاصا ، والذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة فيها وبالجملة غير الله تكتسب جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عبادة من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا .

فإذن الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص ، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها من المغرورين ، كما حُكى عن بعضهم أنه كان يصلى دائما فى الصف الأول فتأخر يوما عن الصلاة فصلى فى الصف الثانى فاعترته خجلة من الناس حيث رَأْوه فى الصف الثانى ، فعلم أن مسرته وراحة قلبه فى الصلاة فى الصف الأول كانت بسبب نظر الناس إليه ، وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وَقَلَّ من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى .

والغافلون عن الإخلاص يرون حسناتهم يوم القيامة سيئات ، وهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر : ٤٧] وبقوله عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ

بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] .

قال فى « الإحياء » : فقد ظهر بالأدلة والعيان أنه لا وصول إلى السعادة إلا بالعلم والعبادة ؛ فالعمل بغير نية عناء ، والنية بغير إخلاص رياء ، وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء ، والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء ، وقد قال الله تعالى فى كل عمل كان بإرادة غير الله مشوبا مغمورا : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

حقيقة النيـة :

النية ليست قول القائل بلسانه : « نويت » بل هى انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله ، فقد تتيسر فى بعض الأوقات وقد تتعذر فى بعضها ، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال احضار النيـة للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا ، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك بل لا تتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد .

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل أمرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** »[1] روى عن الشافعى رحمه الله أنه قال : هذا الحديث ثلث العلم .

(١) رواه البخارى (١/٩) بدء الوحى ، ومسلم (١٣/٥٣ ، ٥٤) الإمارة ، وأبو داود (٦/٢٨٤ ، ٢٨٥) الطلاق ، والنسائى (١/٥٩ ، ٦٠) النية ، قال ابن حجر رحمه الله : وقد تواتر النقل عن الأئمة فى تعظيم قدر هذا الحديث قال أبو عبد الله : ليس فى أخبار النبى ﷺ شىء أجمع وأغنى وأكثر فائدة من هذا الحديث . وقال ابن مهدى والشافعى : إنه ثلث العلم وقال الشافعى كذلك : يدخل فى سبعين بابا .

قوله : « **إنما الأعمال بالنيات** » أى أن قبول الأعمال الصالحة الموافقة للسنة منوط بتوفر النيات الصالحة ، وهو كقوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالخواتيم** »[٢] فهذه قاعدة من قواعد الشرع الحنيف وقوله ﷺ : « **وإنما لكل امرىء ما نوى** » ليس تكرارًا للقاعدة الأولى ولكنها قاعدة جديدة يرسيها رسول الله ﷺ والأصل فى الشرع التأسيس ، والمعنى أن ثواب العامل (على عمله) يكون بمقدار النيات الصالحة التى يجمعها فى العمل الواحد ، وقوله ﷺ : « **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** . » فهذا مثال من رسول الله ﷺ للأعمال التى صورتها واحدة وتختلف فى صلاحها وفسادها ، وقيل ، أعاد النبى ﷺ ذكر الله عز وجل ورسوله ﷺ فى الجزء الأول من المثال تعظيما لهذه النية ولقدر هذا العمل المصحوب بهذه النية ، وحتى تلتذ القلوب والألسنة بإعادة ذكر الله عز وجل ورسوله ﷺ ، ولم يكرر فى الجزء الثانى من المثال تحقيرا لهذا العمل المصحوب بهذه النية ، وحتى يدخل فى ذلك بقية النيات الفاسدة .

والنية الصالحة لا تغير المعاصى عن مواضعها فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** » فيظن أن المعصية تصير طاعة بالنية ، فإذن قوله ﷺ : « **إنما الأعمال بالنيات** » يخص من أقسام العمل الثلاثة الطاعات والمباحات دون المعاصى ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، ودخول النية فى المعصية إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها ، والطاعات مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها ، فأما الأصل فهو أن ينوى بها عبادة الله وحده ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة أما المباحات فما من شىء منها إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات

---

(١) رواه البخارى (١١/٣٣٠) الرقاق ، وأحمد (٥/٣٣٥) .

فضل النية :

قال الله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** ﴾ [الكهف : ٢٨] والمراد بتلك الإرادة النية ، وفى حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك قال : « **إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شاركونا فى ذلك وهم بالمدينة ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا ؟ قال : حبسهم العذر** »[1] فشركوا فى الأجر بحسن النية .

قال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية .

وقال يحيى بن كثير : تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل .

وقال بعضهم : تجارة النيات تجارة العلماء . والمعنى : أن العلماء هم الذين يعلمون كيف يعاملون ربهم عز وجل ويربحون عليه عز جل أعظم الربح ، أما فى الطاعات فينوى فى الطاعة الواحدة نيات كثيرة ، كمن يقصد الذهاب إلى المسجد فينوى أنه زائر لبيت الله وقاصد كذلك صلاة الجماعة التى تعدل صلاة الفذ بسبع وعشرين ضعفا ، وينوى مع ذلك سماع الذكر من العلماء وإفادة العلم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذ المسجد لا يخلو من جاهل يسىء فى صلاته ، وينوى مع ذلك أن يستفيد أخا فى الله فإن ذلك غنيمة ونصرة للدار الآخرة ، وينوى كذلك ترك الذنوب حياء من الله تعالى ، فما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة .

---

(١) رواه البخارى (٤٦/٦ ، ٤٧) الجهاد ، ومسلم (٥٧/١٣) الإمارة عن جابر وأبو داود (١٨٥/٧) الجهاد وأحمد (١٠٣/٣) .

أما المباحات : فما من شيء منها إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات ، كما قال بعضهم : إنى لأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى . ونصح بعضهم فقال : لا تعملن عملا إلا بنية .

فيمكن للعبد أن يستحضر نية صالحة فى مباحاته فتصبح بذلك قربات ، فالتطيب مثلا إن قصد به التلذذ والتنعم فهو مباح ، وإن نوى به اتباع سنة رسول الله ﷺ فهو قربة ، وإن نوى به التودد إلى قلوب النساء الأجنبيات والتفاخر والتكاثر فهذا يجعل التطيب معصية ، فإذن المباح بالنية الصالحة يرتفع إلى قربة وبالنية الفاسدة يصبح معصية .

متابعة السنة

الشرط الثانى لقبول العمل أن يكون العمل مطابقا لسنة النبى ﷺ لحديث عائشة رضى اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « **من أحْدَثَ فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » وفى رواية لمسلم : « **من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد** »[1] وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام ، فكما أن حديث « **الأعمال بالنيات** » ميزان للأعمال فى باطنها فهو ميزان للأعمال فى ظاهرها ، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه اللّه تعالى فليس لعامله فيه ثواب فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر اللّه ورسوله فهو مردود على عامله ، فقوله « **ليس عليه أمرنا** » إشارة إلى أن أعمال العاملين كلها ينبغى أن تكون تحت أحكام الشريعة فتكون أحكام الشريعة حَاكِمَةً عليها بأمرها ونهيها فمن كان عمله جاريا تحت أحكام الشريعة موافقا لها فهو مقبول ، ومن كان خارجا عن ذلك فهو مردود .

وقد أخبر النبى ﷺ عن السبيل التى ينبغى للعباد أن يسلكوها حتى لا يكونوا يوم القيامة من المغبونين : ﴿ **الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ [الكهف : ١٠٤] فقال ﷺ فى حديث العرباض بن سارية : « **فإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة** »[2] .

---

(١) رواه البخارى (٣٠١/٥) الصلح ، ومسلم (١٦/١٢) الأقضية والرد هنا بمعنى المردود أى فهو باطل غير معتد به .

(٢) رواه أحمد (١٢٦/٤ ، ١٢٧) ، وأبو داود (٣٥٩/١٢ ، ٣٦٠) السنة ، والترمذى (١٤٤/١٠) العلم وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجة (٤٣) المقدمة والدارمى (٤٤/١ ، ٤٥) اتباع السنة والبغوى فى شرح السنة (٢٠٥/١) وقال : هذا حديث حسن وصححه الألبانى فى الظلال .

فهذا إخبار منه ﷺ بما وقع فى أمته بعده من كثرة الاختلاف فى أصول الدين وفروعه وفى الأعمال والأقوال والاعتقادات ، وهذا موافق لما روى عنه من افتراق أمته على بضع وسبعين فرقة وأنها كلها فى النار إلا واحدة وهى ما كان عليه وأصحابه ففى هذا الحديث أمر عند الأفتراق والاختلاف بالتمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ، والسنة هى الطريق المسلوكة فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات والأعمال والأقوال ، وهذه هى السنة الكاملة ، ولهذا كان السلف لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله ، وقوله : « **عضوا عليها بالنواجذ** » كناية عن شدة التمسك بها . والنواجذ : الأضراس ، قوله : « **وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة** » تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة والمبتدعة وأكد ذلك بقوله : « **كل بدعة ضلالة** » وعن جابر عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى خطبته : « **إنَّ خَيْرَ الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .** »[1] .

فقوله : « **كل بدعة ضلالة** » من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء ، وهو أصل عظيم من أصول الدين شبيه بقوله ﷺ : « **من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** »[2] فكل من أحدث شيئا ونسبه إلى دين ولم يكن له أصل فى الدين يرجع إليه فهو ضلالة والدين برىء منه ، وسواء فى ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة ، وأما ما وقع فى كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك فى البدع اللغوية لا الشرعية ، فمن ذلك قول عمر رضى الله عنه لما جمع الناس فى قيام رمضان على إمام واحد فى مسجد وخرج ورآهم يصلون كذلك فقال : « **نعمت البدعة هذه** » فهذا الفعل وإن لم يكن على هذا الوجه قبل هذا الوقت ولكن له أصل فى الشرع يرجع إليه ، فمنها أن النبى

---

(١) رواه مسلم (١٥٣/٦) الجمعة : باب خطبته ﷺ .

(٢) تقدم تخريجه ص (٧) .

ﷺ كان يحث على قيام رمضان ويرغب فيه ، وكان الناس فى زمنه يقومون فى المسجد جماعات متفرقة ووحدانا ، وهو ﷺ صلى بأصحابه غير ليلة ثم امتنع من ذلك معللا بأنه خشى أن يكتب عليهم فيعجزوا عن القيام به ، ومنها أنه ﷺ أمر باتباع سنة خلفائه الراشدين وهذا قد صار من سنة خلفائه الراشدين .

وقد روى الحافظ أبو نعيم بإسناده عن إبراهيم بن الجنيد قال : سمعت الشافعى يقول : البدعة بدعتان : بدعة محمودة وبدعة مذمومة : فما وافق السنة فهو محمود ، وما خالف السنة فهو مذموم . واحتج بقول عمر رضى اللّه عنه : نعمت البدعة هذه .

وقال ابن رجب رحمه اللّه : ومراد الشافعى رضى اللّه عنه أن أصل البدعة المذمومة ماليس له أصل فى الشرع ترجع إليه ، وهى البدعة فى إطلاق الشرع ، وأما البدعة المحمودة فما وافق السنة يعنى ما كان له أصل من السنة يرجع إليه ، وإنما هى بدعة لغة لا شرعا لموافقتها السنة .

وفى هذه الأزمان التى بعد العهد فيها بعلوم السلف يتعين ضبط ما نقل عنهم من ذلك كله ليتميز به ما كان من العلم موجودا فى زمانهم وما أحدث فى ذلك بعدهم فيعلم بذلك السنة من البدعة ، وقد صح عن ابن مسعود أنه قال : « إنكم قد أصبحتم اليوم على الفطرة ، وإنكم ستحدثون ويحدث لكم ، فإذا رأيتم محدثة فعليكم بالعهد الأول . » وابن مسعود قال هذا فى زمن الخلفاء الراشدين .

وروى ابن حميد عن مالك قال : لم يكن شيء من هذه الأهواء فى عهد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر وعثمان . وكان مالك يشير بالأهواء إلى ما حدث من التفرق فى أصول الديانات من أمور الخوارج والروافض والمرجئة ونحوهم ممن تكلم فى تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم ، أو فى تخليدهم فى النار ، أو فى تفسيق خواص هذه الأمة أو عكس ذلك من زعم أن المعاصى لا تضر أهلها ، وأنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد .

وقد أمر الله عز وجل باتباع سنة النبى ﷺ فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، بل جعل الله عز وجل اتباع سنة نبيه ﷺ علامة على محبته عز وجل فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] الآية قال الحسن البصرى : ادعى ناس محبة الله عز وجل فابتلاهم بهذه الآية : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ الآية .

- قال الزهرى : الاعتصام بالسنة نجاة ؛ لأن السنة كما قال مالك : مثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

- وعن سفيان قال : لا يقبل قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة .

- وعن ابن شوذب قال : إن من نعمة الله على الشاب إذ نَسُكَ أن يؤاخِىَ صاحب سنة يحمله عليها .

- وعن المعتمر بن سليمان قال : دخلت على أبى وأنا منكسر فقال لى : مالك ؟ قلت : مات صديق لى فقال مات على السنة ؟ قلت : نعم . قال : تحزن عليه .
- وعن سفيان الثورى قال : استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء .

الأخبار فى ذم البدع والمبتدعين :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥ ، ١٠٦] قال ابن عباس رضى الله عنهما تَبْيَضُّ وجوه أهل السنة الائتلاف وتسود وجوه أهل البدعة والاختلاف .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ أنه قال : « **من رغب عن سنتى فليس منى** »[1] وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أنا فرطكم على الحوض وليختلجنَّ رجال دونى فأقول : يا رب أصحابى فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك** »[2] وفى حديث العرباض بن سارية قوله ﷺ : « **وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**[3] .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » .

وعن أيوب السخيتانى قال : ما ازداد صاحب بدعة اجتهادا إلا ازداد من الله عز وجل بعدا .

وعن سعيد الكويرى قال : مرض سليمان التيمى فبكى فى مرضه بكاء شديد فقيل له ما يبكيك أتجزع من الموت قال : لا ولكن مررت على قَدَرِىٍّ فسلمت عليه فأخاف أن يحاسبنى ربى عليه . وعن الفضيل قال : إذا رأيت مبتدعا فى طريق فخذ فى طريق آخر ، ولا يرفع لصاحب بدعة إلى الله عز وجل عمل ، ومن أعان صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام .

« فصل »

فإن قال قائل قد مدحت السنة وذممت البدعة فما السنة وما البدعة فإنا نرى كل مبتدع يزعم أنه من أهل السنة ؟

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى (٨٩/٩ ، ٩٠) النكاح ، ومسلم (١٧٦/٩) النكاح .

(٢) حديث صحيح رواه مالك فى الموطأ (٢٨/١ ، ٢٩) الطهارة ، ومسلم (١٣٩/٣) الطهارة ورواه البغوى فى شرح السنة (٣٢٢/١ ، ٣٢٣) الطهارة .

(٣) تقدم تخريجه ص (٢١) .

فالجواب : أن السنة فى اللغة : الطريق ولا ريب فى أن أهل النقل والأثر المتبعين آثار رسول الله ﷺ وآثار أصحابه رضى الله عنهم هم أهل السنة ؛ لأنهم على تلك الطريق التى لم يحدث فيها حادث ، وإنما وقعت الحوادث والبدع بعد رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم .

والبدعة : عبارة عن فعل لم يكن – يعنى على عهد الصحابة رضى الله عنهم – فابتدع ، والأغلب فى المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة ، وتوجب التعاطى عليها بزيادة أو نقصان ، فإن ابتدع شيء لا يخالف الشريعة ولا يوجب التعاطى عليها فقد كان جمهور السلف يكرهونه وكانوا ينفرون من كل مبتدع وإن كان جائزا حفظا للأصل وهو الاتباع ، وقد قال زيد بن ثابت لأبى بكر وعمر رضى الله عنهم حين قالا اجمع القرآن : « **كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ**(١) .

وعن أبى البخترى قال أخبر رجل عبد الله بن مسعود أن قوما يجلسون فى المسجد بعد المغرب فيهم رجل يقول : كبروا الله كذا وكذا وسبحوا الله كذا وكذا واحمدوا الله كذا وكذا ، قال عبد الله : فإذا رأيتهم فعلوا ذلك فأتنى فاخبرنى بمجالسهم ، فأتاهم فجلس فلما سمع ما يقولون قام فأتى ابن مسعود فجاء وكان رجلا حديدا . فقال : أنا عبد الله بن مسعود والله الذى لا إله غيره لقد جئتم ببدعة ظلما ولقد فضلتم أصحاب محمد ﷺ علما ، فقال عمر بن عتبة : استغفر الله فقال : عليكم بالطريق فالزموه ولئن أخذتم يمينا وشمالا لتضلن ضلالا بعيدا(٢) .

---

(١) رواه البخارى (٣٤٤/٨) التفسير ورواه فى فضائل القرآن ، والترمذى (٢٦٠/١١) التفسير .
(٢) رواه الدارمى (٦٨/١) وصححه الألبانى .

وفى الصحيحين عن ثوبان رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ :

« **لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر اللّه وهم كذلك** »[1] .

وقال أبو شامه عن مبارك عن الحسن البصرى : السنة والذى لا إله إلا هو بين الغالى والجافى ، فاصبروا عليها رحمكم اللّه ، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقى ، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف فى إترافهم ، ولا مع أهل البدع فى بدعهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك إن شاء اللّه فكونوا .

فهؤلاء هم أهل السنة والجماعة والطائفة المنصورة إلى أن تقوم الساعة ، فنسأل اللّه عز وجل أن يجعلنا منهم ، وأن يحشرنا فى زمرتهم بمنه وكرمه .

---

(١) رواه البخارى (٢٩٣/١٣) الاعتصام بالكتاب والسنة ، ومسلم (٦٥/١٣) الإمارة .

٣ - فضل العلم والعلماء(*)

● قال اللّه تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران : ١٨] .

دلت هذه الآية على فضل العلم وأهله من وجوه :

الأول : استشهاد العلماء دون غيرهم من البشر .

الثانى : اقتران شهادة العلماء بشهادة اللّه عز وجل وشهادة الملائكة .

والثالث : ضمن استشهادهم تزكيتهم وتعديلهم من اللّه عز وجل فإن اللّه عز وجل لا يستشهد من خلقه إلا العدول ، ومنه الأثر المعروف : « **يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين** »(١) .

الرابع : أنه عز وجل استشهد بهم على أجَلِّ مشهودٍ عليه وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا اللّه ، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

● ومن الأدلة على فضل العلم أن اللّه عز وجل أمر نبيه ﷺ أن يسأله مزيدًا من العلم وقال تعالى : ﴿ **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٤] .

وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر اللّه نبيه أن يسأله المزيد منه .

(*) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم .

(١) رواه الخطيب فى شرف أصحاب الحديث عن أبى هريرة وأسامة بن زيد وإبراهيم بن عبد الرحمن العذرى وحكى تصحيح الإمام أحمد له (٢٩) ، وقال الألبانى : ثم إن الحديث مرسل لكن قد روى موصولا من طريق جماعة من الصحابة وصحح بعض طرقه الحافظ العلائى - مشكاة المصابيح ٢٤٨ .

● ومن الأدلة كذلك على فضل العلم : أن اللّه عز وجل أخبر عن رفعه درجات لأهل العلم والإيمان فقال تعالى : ﴿ يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١١] .

● ومن الأدلة كذلك على فضل العلم وأهله أن اللّه عز وجل أخبر أن أهل العلم هم أهل خشيته بل خصهم من بين العباد بذلك فقال تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : « كفى بخشية اللّه علما ، وكفى بالاغترار جهلا » والعلم هو خشية اللّه عز وجل والعالم من يخشى اللّه قيل للشعبى: ياعالم قال : إنما العالم من يخشى اللّه .

● ومن الأدلة كذلك على فضل العلم وشرفه أن اللّه عز وجل شهد لمن آتاه العلم بأنه آتاه خيرا كثيرا فقال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] قال ابن قتيبة والجمهور : الحكمة إصابة الحق والعمل به ، وهى العلم النافع والعمل الصالح .

● ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وفضله أن الله عز وجل جعل صيد الكلب الجاهل ميتة يحرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلم وهذا من شرف العلم . قال اللّه تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [المائدة : ٤] .

ولولا مزية العلم والتعليم وشرفهما كان صيد الكلب الجاهل والمعلم سواء .

● ومما يدل على شرف العلم والتعليم قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

والمعنى على قول الأكثرين وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم ، بل ينبغى أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه فى الدين ، فإذا جاءت الطائفة التى نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام .

● ومن الأدلة كذلك على شرف العلم والعلماء ما ورد فى الصحيحين من حديث معاوية رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **من يرد اللّه به خيرا يفقهه فى الدين** »[1] .

ويدل الحديث بمنطوقه على أن من أراد اللّه به خيرا فقهه فى دينه وبمفهومه على أن من لم يرد اللّه به خيرا لم يفقهه فى الدين .

قال الإمام أحمد : الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليه فى اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج إليه بعدد الأنفاس .

● ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وأهله ما أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه اللّه مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه اللّه الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها .** »[1] فأخبر ﷺ أنه لا ينبغى لأحد أن يحسد أحدا يعنى

---

(١) رواه البخارى (١٦٤/١) العلم ، ومسلم (٦٧/١٣) الإمارة . ورواه الترمذى (١١٤/١٠) عن ابن عباس وقال : حديث حسن صحيح ، وقال ابن الأثير فى الجامع : الفقه الفهم والدراية والعلم فى الأصل ، وقد جعله العُرف خاصا بعلم الشريعة .

(١) رواه البخارى (١٦٥/١) العلم ، ومسلم (٩٧/٦ ، ٩٨) صلاة المسافرين عن عبد اللّه بن مسعود ورواه الترمذى (١٢١/٨) أبواب البر والصلة عن الزهرى عن أبيه وقال : هذا حديث حسن صحيح وقال الحافظ فى الفتح : قوله : « لا حسد » أى لا رخصة فى الحسد إلا فى خصلتين . أو لا يحسن الحسد إن حسن ، أو أطلق الحسد مبالغة فى الحث على تحصيل الخصلتين .

حسد غبطة بتمنى مثل حاله إلا فى واحدة من هاتين الحالتين وهى الإحسان إلى الناس بالعلم أو بالمال ، وما عدا هذين لا ينبغى أن يتمنى العبد مثل حاله لقلة منفعته للناس .

● ومن الأدلة كذلك ما ورد فى السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال قال : « **قلت يا رسول الله إنى جئت أطلب العلم قال : مرحبا بطالب العلم ، إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها فيركب بعضها بعضا حتى تبلغ السماء الدنيا ، من حبهم لما يطلب .** »[٢] وذكر حديث المسح على الخفين قال أبو عبد الله الحاكم : إسناده صحيح ، وقال ابن عبد البر : هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع ، وقد ورد فى حديث أبى داود والترمذى قوله ﷺ : « **إن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم** »[٣] ففى الحديث الأول حف الملائكة له إلى السماء الدنيا وفى الثانى وضعها أجنحتها له فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل ، والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة ، فتضمن الحديثان تعظيم الملائكة لطالب العلم وحبها إياه وحياطته وحفظه ، فلو لم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لكفى به شرفا وفضلا .

● ومن الأدلة كذلك ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة** »[٤] ، وقد تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل ، فكما سلك طريقا يطلب فيه حياة قلبه ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقا يحصل له ذلك .

---

(٢) رواه أحمد والطبرانى بإسناد جيد واللفظ له وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد وروى ابن ماجة نحوه باختصار وحسنه الألبانى – صحيح الترغيب (٣٤/١) .

(٣) رواه أبو داود (٧٢/١٠ ، ٧٣) العلم ، والترمذى (١٥٤/١٠ ، ١٥٥) أبواب العلم وقال الترمذى : ولا يعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن حَيْوَه وليس هو عندى بمتصل . ورواه أيضا ابن ماجة (٢٢٣) وحسنه الألبانى فى صحيح الترغيب (٣٣/١) والأرناؤوط فى تحقيق الجامع (٦/٨) .

(٤) رواه مسلم (١٢/١٧ ، ٢٢) الذكر والدعاء ، والترمذى (١١٥/١٠) أبواب العلم وقال : هذا حديث حسن ، وأبو داود (٧٣/١٠) العلم ، وابن ماجة (٢٢٥) المقدمة .

● ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وفضله ما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له** »[1] . فهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته ، فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته ما دام ينتفع به فكأنه حى لم ينقطع عمله من ماله من حياة الذكر والثناء فجريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية .

● ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وفضله ما رواه الإمام أحمد والترمذى وصححه والحاكم وصححه من حديث أبى كبشه الأنمارى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه اللّه مالا وعلما فهو يتقى فى ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم للّه فيه حقا فهذا بأحسن المنازل عند اللّه ، ورجل آتاه اللّه علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه اللّه مالا ولم يؤته علما فهو يخبط فى ماله لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم للّه فيه حقا فهذا بأسوأ المنازل عند اللّه ، ورجل لم يؤته اللّه مالا ولا علما فهو يقول لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الوزر سواء** . »[2] فقسم النبى ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام خيرهم من أوتى علما ومالا فهو محسن إلى الناس بعلمه وماله ، ويليه فى المرتبة من أوتى علما ولم يؤت مالا وإن كان أجرهما سواء فذلك إنما كان بالنية ، الثالث من أوتى مالا ولم يؤت علما ، الرابع من لم يؤت مالا ولا علما ونيته أنه لو كان له مال لعمل فيه بمعصية اللّه ، فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه ، والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته .

---

(١) رواه مسلم (٨٥/١١) الوصية ، وأبو داود (٦٨/٨) الوصايا والترمذى (١٤٤/١٦) الأحكام وقال : حسن صحيح ، والنسائى (٢٥١/٦) الوصايا قال الشيخ ولى الدين : إنما أجدى على هؤلاء الثلاثة الثواب بعد موتهم لوجود ثمرة أعمالهم بعد موتهم كما كانت موجودة فى حياتهم ، والصدقة الجارية حملت على الوقف .

(٢) رواه الترمذى (١٩٩/٩ ، ٢٠٠)أبواب الزهد وقال : حسن صحيح ، ورواه أحمد (٢٣٠/٤ ، ٢٣١) ، وابن ماجة (٤٢٢٨) الزهد وصححه الألبانى .

● ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وطلبه ما رواه كثير بن قيس قال : كنت جالسا مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق فجاء رجل فقال : يا أبا الدرداء إنى جئتك من مدينة الرسول ﷺ ما جئت لحاجة قال : فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك اللّه به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم ، وإن العالم يستغفر له من فى السماوات ومن فى الأرض والحيتان فى جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر .** »[1] .

● ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وأهله ما رواه كميل بن زياد النخعى قال : أخذ على بن أبى طالب رضى اللّه عنه بيدى فأخرجنى ناحية الجبانة فلما أصحر جعل يتنفس ثم قال يا كميل بن زياد : القلوب أوعية فخيرها أوعاها احفظ عنى ما أقول لك : الناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال ؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على الإنفاق « وفى رواية : على العمل » والمال تنقصه النفقه ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ، ومحبة العلم دين يدان بها العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الأحداث بعد وفاته وصنيعة المال تزول بزواله ، مات خُزَّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر ، أعيانهم مفقودة وأمثالهم فى القلوب موجودة ، هاه هاه إن ههنا علما - وأشار بيده إلى صدره - لو أصبت له حملة ، بل أصبته لقنا غير مأمون عليه يستعمل آله الدين للدنيا يستظهر بحجج اللّه على كتابة وبنعمه عل عباده ، أو منقادا لأهل الحق لا بصيرة له فى أحنائه ينقدح الشك فى قلبه بأول عارض من شبهة لاذا ولا ذاك ، أو منهوما للذات سلس القياد للشهوات أو

---

(١) تقدم تخريجه ص (٣١) .

مغرى بجمع الأموال والادخار ليسوا من دعاة الدين ، أقرب شبهًا بهم الأنعام السائمة ؛ لذلك يموت العلم بموت حامليه[1] .

فقسم أمير المؤمنين الناس تقسيمًا فى غاية الصحة ونهاية السداد ؛ لأن الإنسان لا يخلو من أحد الأقسام التى ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل ، إما أن يكون عالما أو متعلما أو مُغْفِلًا للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له .

فالعالم الربانى : هو الذى لا زيادة على فضله لفاضل ، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد ، وقد دخل فى الوصف له بأنه ربانى وصفه بالصفات التى يقتضيها العلم لأهله ويمنع وصفه بما خالفها ، فأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الذى يتعلم ما ينفعه ، ويقصد بتعلمه نجاته من التفريط فى تضييع الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها والأنفة عن مجانسة البهائم .

وأما القسم الثالث فهم المهملون لأنفسهم الراضون بالمنزلة الدنيئة والحالة الخسيسة التى هى فى الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل التى لا منزلة بعدها فى الجهل ولا دونها فى السقوط ، قوله « **أتباع كل ناعق** » أى من صاح بهم ودعاهم تبعوه سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال فإنهم لا علم لهم بالذى يدعون إليه أحق هو أم باطل فهم مستجيبون لدعوته .

قوله « **يميلون مع كل ريح** » شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف ، وشبه الأهوية والآراء بالرياح ، والغصن يميل مع الريح حيث مالت ، قوله : « **لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق** » بين السبب الذى جعلهم بهذه المثابة وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل كما قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ** ﴾ [الحديد : ٢٨] فإذا عدم القلب هذا النور

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية (١/٧٩ ، ٨٠) .

صار بمنزلة الحيران الذى لا يدرى أين يذهب فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه .

قوله : « العلم خير من المال ؛ العلم يحرسك وأنت تحرس المال . » يعنى أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب وصاحب المال يحرس ماله ، قوله : « العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة » فالعالم كلما بذل علمه للناس وأنفق منه تفجرت ينابيعه فازداد كثرة وقوة وظهورا فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه ويحصل له به علم ما لم يكن عنده فلزكاة العلم طريقان : أحدهما تعليمه والثانى العمل به كما قال بعض السلف : كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به . وقال بعضهم: يهتف العلم بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل .

وقد أورد العلامة ابن القيم فى كتابه القيم مفتاح دار السعادة أربعين وجها لفضل العلم على المال نذكر بعضها مختصرا .

- العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الملوك والأغنياء .
- العلم يحرس صاحبه وصاحب المال يحرس ماله .
- المال تذهبه النفقات والعلم يزكو على النفقة .
- صاحب المال إذا مات فارق ماله والعلم يدخل معه قبره .
- العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم .
- العلم يحتاج إليه الملوك فمن دونهم ، وصاحب المال يحتاج إليه أهل العدم والفاقة .
- المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر ، والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن .

- النفس تزكو بجمع العلم وتشرف بتحصيله ، والمال لا يزكيها ولا يكملها بل تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه ، فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها .
- المال يدعو إلى الطغيان والفخر والخيلاء ، والعلم يدعو إلى التواضع والقيام بحق العبودية .
- حب العلم وطلبه أصل كل طاعة ، وحب المال وطلبه أصل كل سيئة .
- ما أطاع اللّه أحدٌ قط إلا بالعلم ، وعامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال .
- المال يمدح صاحبه بتخليه عنه وإخراجه ، والعلم يمدح بتحليه به واتصافه به .
- الغنى بماله لابد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بمفارقته ، والغنى بعلمه لا يزول غناه ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم ، فلذة الغنى بالمال لذة زائلة منقطعة يعقبها الألم ، ولذة الغنى بالعلم لذة دائمة مستمرة لا يلحقها ألم .

قوله رضى اللّه عنه : « محبة العلم - أو العالم - دين يدان بها » لأن العلم ميراث الأنبياء والعلماء ورثتهم ، وأيضا فإن محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك دين يدان به .

قوله رضى اللّه عنه : « العلم يكسب العالم الطاعة فى حياته وجميل الأحدوثة بعد وفاته » أى يجعله مطاعًا لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل إنسان للملوك فمن دونهم ، فكل إنسان محتاج إلى طاعة العالم فإنه يأمر بطاعة اللّه ورسوله فيجب على الخلق طاعته .

قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] وفسر « أولى الأمر » بالعلماء ، فإذا مات العالم أحيا اللّه ذكره ونشر له فى العالمين أحسن الثناء ، فالعالم بعد وفاته ميت وهو حى بين الناس ، والجاهل فى حياته حى وهو ميت بين الناس ، ومن تأمل أحوال أئمة

الإسلام كأئمة الحديث والفقه كيف هم تحت التراب وهم فى العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم ، وإلا فذكرهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع وهذه هى الحياة حقا .

قوله : « وصنيعة المال تزول بزواله » يعنى كل صنيعة للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة فإنما هى لمراعاة ماله فإذا زال ماله زالت تلك الصنائع كلها حتى ربما لا يسلم عليه من كان يدأب فى خدمته ، كما قال بعض العرب :

وَكَانَ بَنُو عَمِّى يَقُولُونَ مَرْحَبًا ... فَلَمَّا رَأَوْنِى مُعْسِرًا مَاتَ مرحبُ

ثم بين بعد ذلك صفات علماء السوء أعاذنا الله منهم ومن أحوالهم فلتراجع فى مفتاح دار السعادة نسأل الله الحسنى وزيادة .

● ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وفضله ما رواه أبو يعلى الموصلى فى مسنده من حديث أنس بن مالك يرفعه إلى النبى ﷺ قال : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** »[1] هذا وإن كان فى سنده ضعف فمعناه صحيح فإن الإيمان فرض على كل واحد وهو مركب من علم وعمل ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها ، والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، وهل تمكن عبادة الله التى هى حقه على العباد كلهم إلا بالعلم ، وهل ينال العلم إلا بطلبه .

● ومن الأدلة كذلك على شرف العلم وفضله أنه يرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك ، كما ثبت فى الصحيح من حديث الزهرى عن أبى الطفيل أن

---

(١) رواه ابن ماجة (٢٢٤) والبيهقى فى الشعب ، وقال فى الزوائد : إسناده ضعيف لضعف حفص بن سليمان ، وقال السيوطى : سئل الشيخ محى الدين النووى رحمه الله تعالى عن هذا الحديث ، فقال : إنه ضعيف ، أى سندا وإن كان صحيحا ، أى معنى وقال تلميذه جمال الدين المزى : هذا الحديث روى من طرق تبلغ رتبه الحسن وهو كما قال فإنى رأيت له خمسين طريقا وقد جمعتها فى جزء - ابن ماجة (٨١/١) المقدمة وصححه كذلك الألبانى وانظر طرق الحديث فى جنة المرتاب للحوينى (١٠٤/٨٣) .

نافع بن الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان وكان قد استعمله على أهل مكة ، فقال له عمر : « من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابنَ أبْزَى . فقال : من ابن أبزى ؟ فقال : رجل من موالينا ، فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ فقال : إنه قارىء لكتاب اللّه عالم بالفرائض فقال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قال : إن اللّه يرفع بهذا العلم أقواما ويضع به آخرين »[1] .

قال إبراهيم الحربى : كان عطاء بن رباح عبداً أسود لأمرأة من مكة ، وكان أنفه باقلاه ، قال : وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلى ، فلما صلى انفتل إليهم فمازالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول قفاه إليهم ، ثم قال سليمان لابنيه قوما فقاما فقال يابنيا لاتنيا فى طلب العلم فإنى لا أنسى ذلنا بين يدى هذا العبد الأسود . قال الحربى : وكان محمد ابن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل فى بدنه ، وكان منكباه خارجين كأنهما زجان ، فقالت أمه : يابنى لا تكون فى مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك ، فولى قضاء مكة عشرين سنة ، قال وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرعد حتى يقوم .

وقال عبد اللّه بن داود سمعت سفيان الثورى يقول : إن هذا الحديث عز فمن أراد به الدنيا وجدها ، ومن أراد به الآخرة وجدها .

قال سفيان بن عيينة : أرفع الناس منزلة عند اللّه من كان بين اللّه وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء .

مَا الفَخْرُ إلّا لِأَهْلِ العِلْمِ إنَّهُمُ ... عَلَى الهُدَى لِمَن استَهْدَى أَدِلَّاءُ
وَقَدْرُ كُلِّ امْرِىءٍ مَاكَانَ يُحْسِنُهُ ... والجاهلون لِأَهْلِ العِلْمِ أَعْدَاءُ
فَفُزْ بِعِلْمٍ تَعِشْ حَيّاً بِهِ أَبَدَا ... النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ

---

(١) رواه مسلم (٩٨/٦) صلاة المسافرين .

٤ – آداب طالب العلم*

● ينبغي لطالب العلم أن يعلم أن اللّه عز وجل فرض عليه عبادته والعبادة لا تكون إلا بعلم والمؤمن لا يحسن به الجهل فطلبه للعلم لينفى عن نفسه الجهل وليعبد اللّه عز وجل كما أمره وليس كما تهوى نفسه ، فكان هذا مراده فى السعى فى طلب العلم معتقدا الإخلاص فى سعيه لا يرى لنفسه الفضل فى سعيه ، بل يرى للّه عز وجل الفضل عليه ، إذ وفقه لطلب علم ما يعبده به من أداء فرائضه واجتناب محارمه .

● ينبغى له أن يتجنب الأسباب الشاغلة عن التحصيل إلا سببا لابد منه للحاجة : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ** ﴾ [الأحزاب : ٣] ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ؛ ولذلك قيل : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك .

● وينبغى له كذلك أن يقدم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى اللّه تعالى ، وكما لا تصح الصلاة التى هى وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف ، ولذلك قيل : يُطَيَّبُ القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة .

● وينبغى له كذلك أن لا يتكبر على العلم ويتواضع لمعلمه ويلقى إليه زمام أمره بالكلية فى كل تفصيل ، ويذعن إليه إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق

(*) انظر التبيان عن آداب حملة القرآن للنووى – ومختصر منهاج القاصدين لابن قدامة – وأخلاق العلماء للآجرى .

الحاذق ، وإن كان معلمه أصغر منه سنا وأقل شهرة ونسبا ، فبالتواضع والصبر على ذل التعليم ينال العلم .

وَمَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ المَذَلَّةِ سَاعَةً   قَطَعَ الزَّمَانَ بِأَسْرِهِ مَذْلُولَا

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ذللت طالبا فعززت مطلوبا .

● وينبغى له كذلك أن يختار من يتعلم منه ولا يتعلم إلا ممن تكملت أهليته ، وظهرت ديانته ، وتحققت معرفته ، واشتهرت صيانته ، فقد قال محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف :

إنّ هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذوا دينكم

● وينبغى له أن ينظر إلى معلمه بعين الاحترام والتوقير فإن هذا أقرب إلى الانتفاع به ، وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال : اللهم استر عيب معلمى عنى ولا تذهب بركة علمه منى . وقال الربيع صاحب الشافعى رحمهما الله : ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر إلىَّ هيبة له .

وروى عن على بن أبى طالب قال : من حق المعلم عليك أن تسلم على الناس عامة وتخصه دونهم بتحية ، وأن تجلس أمامه ، ولا تشيرنَّ عنده بيدك ، ولا تغمزنَّ بعينك ، ولا تقولن قال فلان خلاف ما تقول ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا تشاور جليسك فى مجلسه ، ولا تأخذ بثوبه إذا قام ، ولا تلح عليه إذا كَلَّ ولا تعرض أى تشبع من طول صحبته .

● وينبغى له كذلك أن يدخل على شيخه كامل الخصال ، متطهرا فارغ القلب من الأمور الشاغلة ، وأن لا يدخل بغير استئذان إذا كان الشيخ فى مكان يحتاج فيه إلى استئذان ، وأن يسلم على الحاضرين إذا دخل ويخصه دونهم بتحية ، ولا يتخطى رقاب الناس بل يجلس حيث ينتهى به المجلس إلا أن يأذن له الشيخ فى التقدم ، أو يعلم من حال الجالسين ايثارهم له بذلك ، ولا يقيم أحدا من موضعه ،

فإن آثره غيره لم يقبل اقتداء بابن عمر رضى اللّه عنهما ، إلا أن يكون فى تقديمه مصلحة للحاضرين ، أو أمره الشيخ بذلك ، ولا يجلس فى وسط الحلقة إلا لضرورة ، ولا يجلس بين صاحبين بغير إذنهما ، وإن فسحا له قعد وضم نفسه .

● وينبغى له كذلك أن يتأدب مع رفقته وحاضرى مجلس الشيخ فإن ذلك تأدب مع الشيخ وصيانة لمجلسه ، ولا يرفع صوته رفعا بليغا من غير حاجة ، ولا يضحك ، ولا يكثر الكلام من غير حاجة ، ولا يعبث بيده ، ولا يلتفت يمينا ولا شمالاً من غير حاجة ، بل يكون متوجها إلى الشيخ مصغيا إلى كلامه .

● وينبغى له كذلك أن يكون حريصا على التعلم مواظبا عليه فى جميع الأوقات التى يتمكن منه فيها ، ولا يقتنع بالقليل مع تمكنه من الكثير ، ولا يحمل نفسه ما لا يطيق مخافة من الملل وضياع ما حصل ، وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال ، وينبغى أن يأخذ نفسه بالاجتهاد فى التحصيل فى وقت الفراغ والنشاط وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشاغلات مثل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة ، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه : تفقهوا قبل أن تُسَوَّدُوا – أى تصيروا سادة – فإنكم إذا صرتم سادة متبوعين امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم وكثرة شغلكم ، وهذا معنى قول الإمام الشافعى : تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى الفقه .

٥ – آداب المعلم

● ينبغى للمعلم أن يقصد بتعليمه وجه اللّه عز وجل ، ولا يطلب بعلمه شرف منزلة عند الملوك ، ولا يأخذ على العلم ثمنا ، ولا يقرب أبناء الدنيا ويباعد الفقراء .

● وينبغى له أن يتخلق بالمحاسن التى ورد الشرع بها ، والخصال الحميدة والشيم المرضية التى أرشده الله إليها من الزهادة فى الدنيا والتقلل منها وعدم المبالاة بها وبأهلها ، والسخاء والجود ومكارم الأخلاق وطلاقة الوجه من غير خروج إلى الخلاعة ، والحلم والصبر والتنزه عن دنىء المكاسب ، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع ، واجتناب الضحك والإكثار من المزاح ، وملازمة الوظائف الشرعية كقص الشارب وتقليم الظفر وتسريح اللحية وإزالة الروائح الكريهة ، وأن يكون ظاهره وباطنه مزينا بسنة النبى ﷺ ؛ فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : من أظهر لنا خيرا ظننا به خيرا وأحببناه عليه ، ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه .

● وينبغى له أن يتنزه عن المكروهات وفضول المباحات أمام تلامذته ، وأن يحرص على أن يروه دائما فى طاعة الله عز وجل مكثرا من الذكر مقبلا على ربه ، وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار الغير .

● وينبغى للمعلم أن يرفق بمن يتعلم منه ، وأن يرحب به ويحسن إليه بحسب حاله ، وينبغى أن يبذل له النصحية ، فإن رسول الله ﷺ قال : « **الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** »[1] .

---

(١) رواه الترمذى (١١٤/٨) أبواب البر والصلة وقال : هذا حديث حسن صحيح ورواه مسلم عن تميم الدارى (٣٦/٢ ، ١٣٧ الإيمان ورواه النسائى (١٥٦/٧) البيعة ، قال ابن الأثير : النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة : وهى إرادة الخير للمنصوح له ، ومعنى النصيحة لله عز وجل : صحة الاعتقاد فى وحدانيته وإخلاص النية فى عبادته ، والنصيحة لكتاب الله تعالى هو التصديق به والعمل بما فيه ، والنصيحة لرسوله ﷺ التصديق بنبوته ، وبذل الطاعة فيما أمر به ونهى عنه ، والنصيحة لأئمة المؤمنين أن يطيعهم فى الحق ولا يرى الخروج عليهم بالسيف إذا جاروا ، والنصيحة لعامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم .

● وينبغى له أن يشفق على من يطلب منه العلم ، ويعتنى بمصالحه كما يعتنى بمصالح ولده وبمصالح نفسه ، وينبغى أن يتواضع لمن يتردد عليه ويتعلم منه فعن أبى أيوب السختيانى أنه قال :

ينبغى للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعا للّه عز وجل .

● وينبغى له أن يكون حريصا على تعليم تلامذته ، مؤثرا ذلك على مصالح نفسه التى ليست بضرورية ، وأن يفرغ قلبه فى حال جلوسه معهم من الأسباب الشاغلة ، وأن يعطى كل إنسان منهم ما يليق به ، فلا يكثر على من لا يحتمل الإكثار ، ولا يقصر لمن يحتمل الزيادة ، ويثنى على من ظهرت نجابته ما لم يخش عليه فتنة بإعجاب أو غيره ، ومن قصر عنفه تعنيفا لطيفا ما لم يخش عليه تنفيره ، ولا يحسد أحدا منهم لبراعة تظهر منه ، ولا يستكثر فيه ما أنعم اللّه به عليه فإن الحسد للأجانب حرام شديد التحريم فكيف للمتعلم الذى هو بمنزلة الولد ، ويعود من فضيلته إلى معلمه فى الآخرة الثواب الجزيل ، وفى الدنيا الثناء الجميل ، واللّه الموفق .

٦ – أحوال القلوب وأقسامها*

لما كان القلب للأعضاء كالملك المتصرف فى الجنود التى تصدر كلها عن أمره ويستعملها فيما يحب ، فكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله ، قال النبى ﷺ :

(*) انظر إغاثة اللهفان لابن القيم وإحياء علوم الدين للغزالى .

« ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله »[1] .

فهو ملكها وهى المنفذة لما يأمرها به القابلة لما يأتيها من هديه ، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته ، وهو المسئول عنها كلها ، فكل راع مسئول عن رعيته ؛ لذا كان الاهتمام بتصحيح القلب وتسديده أول ما اعتمد عليه السالكون والنظر فى أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون .

ولما علم عدو اللّه إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوساوس وأقبل بوجوه الشهوات إليه وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده عن الطريق ، وأمده من أسباب الغى ما يقطعه به عن أسباب التوفيق ، ونصب له من المصايد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق ، فلا نجاة من مصايدة ومكايدة إلا بدوام الاستعانة باللّه تعالى والتعرض لأسباب مرضاته والتجاء القلب إليه وإقباله عليه فى حركاته وسكناته ، والتحقيق بذل العبودية الذى هو أول ما تلبس به الإنسان ليحصل له الدخول فى ضمان : ﴿ **إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾ [الحجر : ٤٢] .

---

(١) جزء من حديث رواه البخارى (١/١٢٦) الإيمان ، ومسلم (١١/٢٧ ، ٢٨) المساقاه والمزارعة وأول الحديث : « **إن الحلال بيّن وإن الحرام بين** » وفى ألفاظه بعض الزيادة والنقص والمعنى واحد .

قال ابن رجب رحمه اللّه : فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه واجتنابه للمحرمات واتقاءه للشبهات بحسب صلاح قلبه فإن كان قلبه سليما ليس فيه إلا محبة اللّه وخشية الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها ، وتوقى الشبهات حذرا من الوقوع فى المحرمات ، وإن كان القلب فاسدا قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبه ولو كرهه اللّه فسدت حركات الجوارح كلها ، وانبعث إلى كل المعاصى والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب (١/٢٨٤ ، ٢٨٥) جامع العلوم والحكم بتحقيق الأحمدى أبو النور .

أقسام القلوب :

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك إلى أقسام ثلاثة :

قلب سليم – وقلب ميت – قلب مريض .

القلب السليم :

وهو القلب الذى لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به كما قال تعالى :
﴿ يَوْمَ لَا ينفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُون إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء ٨٨ ، ٨٩] والسليم هو السالم الذى قد صارت السلامة صفةً ثابتةً له كالعليم والقدير ، وأيضا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل ، فهو الذى قد سَلِم مَن كل شهوة تخالف أمرِ اللّه ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسَلم من تحكيم غير رسوله ، فخلصت عبوديته للّه تعالى إرادةً ومحبةً وتوكلًا وإنابة وإخباتا وخشية ورجاء ، وخلص عمله للّه ، فإن أحبَّ أحب فى اللّه ، وإن أبغض أبغض فى اللّه ، وإن أعطى أعطى للّه ، وإن منع منع للّه ، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ ، فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد فى الأقوال والأفعال .

القلب الميت :

هو القلب الذى لا حياة فيه ، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقفٌ مع شهواته ولذاذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالى إذا فاز بشهوته رضى ربه أم سخط ، فهو متعبد لغير اللّه حبًا وخوفًا ورجاءً ورضًا وسخطًا وتعظيمًا وذلا إن أحب أحب لهواه وإن أبغض أبغض لهواه ، وإن منع منع لهواه ، وإن أعطى أعطى لهواه ، فهواه آثر عنده من رضى مولاه ، فالهوى إمامه ، والشهوة قائدة ، والجهل سائقه ، والغفلة مركبه ، فهو

بالفكر فى تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور ، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور ، ينادى إلى اللّه والدار الأخرة من مكان بعيد فلا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريد ، الدنيا تسخطه وترضيه ، والهوى يصِمُّهُ عما سوى الباطل ويعميه، فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ، ومعاشرته سم ، ومجالسته هلاك .

القلب المريض :

قلب له حياة وبه علة ، فله مادتان تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما ، ففيه من محبة اللّه تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته ، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها والحسد والعجب والكبر وحب العلو والفساد فى الأرض والرياسة ما هو مادة هلاكِهِ وعطبه ، وهو ممتحن بين داعيين : داع يدعوه إلى اللّه ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة ، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابا وأدنا هما إليه جوارا .

فالقلب الأول حَيٌّ مخبتٌ والثانى يابس ميت ، والثالث مريض فإما إلى السلامة أدنى وإما إلى العطب أدنى .

تقسيم آخر : قسم الصحابة رضى اللّه عنهم القلوب إلى أربعة أقسام فعن حذيفة بن اليمان رضى اللّه عنه قال : « القلوب أربعة : قلبٌ أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر وأبصر ثم عمى ، وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو للغالب عليه منهما » .

قوله : « قلب أجرد » أى متجرد مما سوى اللّه عز وجل ، قوله « فيه سراج يزهر » وهو مصباح الإيمان ، فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغى ، وبحصول السراج إشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان ،

وقوله : « وقلب أغلف » أى داخل فى غلافه وغشائه فلا يصل إليه نور العلم والإيمان كما قال تعالى حاكيا عن اليهود : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ [البقرة : ٨٨] ، قوله « وقلب منكوس » أى مكبوب مركوس كما قال تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ [النساء : ٨٨] أى نكسهم وردهم فى الباطل الذى كانوا فيه بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة وهذا أشر القلوب وأخبثها ، وقوله : « وقلب تمده مادتان » وهو القلب المريض الذى لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراجه حيث لم يتجرد للحق المحض الذى بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة أقرب منه للكفر ، فالحكم للغالب وإليه يرجع .

مداخل الشيطان إلى القلب

إعلم أن مثال القلب مثال الحصن ، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولى عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدرى أبوابه ، فحماية القلب من وساوس الشيطان واجب ، ولا يتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله ، فصارت معرفة مداخله واجبة ، ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهى كثيرة ، ولكننا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التى لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فمن أبوابه العظيمة : الغضب والشهوة : فإن الغضب هو غول العقل وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبى بالكرة .

ومن أبوابه العظيمة الحسد والحرص : فمهما كان العبد حريصا أعماه حرصه وأَصَمَّهُ ، ونور البصيرة هو الذى يعرف مداخل الشيطان ، فإذا غطاه الحسد والحرص لم يبصر ، فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكرا فاحشا ، وأما الحرص فقد قال ﷺ : « **ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه** »[1] .

ومن أبوابه العظيمة الشبع مع الطعام : وإن كان حلالا صافيا فإن الشبع يقوى الشهوات والشهوات أسلحة الشيطان .

---

(١) رواه الترمذى (٢٢٢/٩ ، ٢٢٣) الزهد وقال : حسن صحيح ، والدارمى (٣٠٤/٢) الرقاق ، ورواه أحمد فى المسند (٤٥٦/٣) ، والنسائى وصححه الألبانى .

ومن أبوابه العظيمة العجلة : وترك التثبت فى الأمور قال ﷺ : « **العجلة من الشيطان والتأنى من اللّه تعالى** »[1] رواه الترمذى بلفظ الأناه وقال حسن .

ومن أبوابه العظيمة البخل وخوف الفقر : فإن ذلك هو الذى يمنع من الإنفاق والتصدق ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم .

ومن أبوابه العظيمة التعصب للمذاهب : والأهواء والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار وذلك مما يهلك العباد والفساق جميعا فإن الطعن فى الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة فى الطبع من الصفات السبعية .

ومن أبوابه : سوء الظن بالمسلمين : قال اللّه تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ [الحجرات : ١٢] والمؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب .

فإن قلت : فما العلاج فى دفع الشيطان ؟ وهل يكفى فى ذلك ذكر اللّه تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا باللّه ؟ فاعلم أن علاج القلب فى ذلك سَد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره فإذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات المذمومه كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ولم يكن له استقرار ويمنعه من الاجتياز ذكر اللّه تعالى لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة وإلا فيكون الذكر حديثاً للنفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان ولذلك قال اللّه تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ**

---

(١) رواه الترمذى (١٧٢/٨) البر وقال هذا حديث غريب ، وقد تكلم بعض أهل الحديث فى عبد المهيمن ابن عباس بن سهل وضعفه من قبل حفظه ، قال فى تحقيق جامع الأصول لكن للحديث شواهد يرتقى بها ، وحسنه الزرقانى فى مختصر المقاصد ص (٨٤) بتحقيق الصباغ ، وحسنه الألبانى فى الصحيحة رقم ١٧٩٥ .

الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف : ٢٠١] خصص بذلك المتقى .

فمثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فإن لم يكن بين يديك خبز ولحم فإنه ينزجر بأن تقول له : اخسأ فمجرد الصوت يدفعه فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا ينزجر بمجرد الكلام ، فالقلب الخالى عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر .

فأما الشهوة فإذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشى القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان فى سويداء القلب .

قال ﷺ : « **فى القلب لمتان لمة من الملك إيعاذ بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من اللّه سبحانه وليحمد اللّه ، ولمة من العدو إيعاذ بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ باللّه من الشيطان الرجيم** »[1] ثم تلا قوله تعالى : **﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ﴾** [البقرة : ٢٦٨] الآية وقال الحسن : إنما هما همان يجولان فى القلب : هم من اللّه تعالى ، وهم من العدو ، فرحم اللّه عبدا وقف عند همه فما كان من اللّه تعالى أمضاه ، وما كان من عدوه جاهده .

والقلب بأصل فطرته صالح لقبول آثار الملك ولقبول آثار الشيطان صلاحا متساويا ليس يترجح أحدهما على الآخر ، وإنما يترجح أحد الجانبين باتباع الهوى والإكباب على الشهوات أو الإعراض عنها ومخالفتها ، فإن اتبع الإنسان مقتضى الغضب والشهوة ظهر تسلط الشيطان بواسطة الهوى وصار القلب عش الشيطان ومرتعه؛لأن الهوى هو مرعى الشيطان ومرتعه ، وإن جاهد الشهوات ولم يسلطها على نفسه وتشبه بأخلاق الملائكة عليهم السلام صار قلبه مستقر الملائكة

---

(١) رواه الترمذى وحسنه والنسائى فى الكبرى من حديث ابن مسعود قاله الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء ص (١٣٨٦) طبعة الشعب .

ومهبطهم ، والتطارد بين جندى الملائكة والشياطين فى معركة القلب دائم إلى أن يفتح القلب لأحدهما فيستوطن ويستمكن ويكون اجتياز الثانى إختلاسا ، وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشياطين وتملكتها فامتلأت بالوساوس الداعية إلى إيثار العاجلة وإطراح الآخرة ، ومبدأ استيلائها اتباع الشهوات والهوى ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلا بتخلية القلب عن قوت الشيطان وهو الهوى والشهوات ، وعمارته بذكر اللّه تعالى الذى هو مطرح أثر الملائكة .

عن حذيفة بن اليمان رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا ، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين : قلب أسود مربادا كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض** »[1] فالقلب عندما يتعرض للفتن من الشهوات والشبهات ينقسم إلى قسمين :

قلب إذا عرضت عليه الفتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكته سوداء فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس ، فإذا اسود وانتكس تعرض لآفتين خطيرتين : أحدهما اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحق باطلا والباطل حقا .

والثانى : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ وانقياده للهوى واتباعه له .

---

(١) رواه مسلم (٢/٢٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢) الإيمان : ذكر الفتن التى تموج كموج البحر وقوله « مُرْبَادًا » المربد الذى فى لونه رُبْدَة وهى بين السواد والغُبْرة والمَجخىّ هو المائل عن الاستقامة والاعتدال .

وقلب أبيض : قد أشرق فيه نور الإيمان وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها فازداد نوره وإشراقه . والفتن التى تعرض على القلب فتن الشهوات وفتن الشبهات فالأولى توجب فساد القصد والإرادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد .

وتنقسم أمراض القلوب بحسب ذلك إلى أمراض الشهوات وأمراض الشبهات ، كما فسر مرض الشهوات بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] فإن المريض يؤذيه ما لا يؤذى الصحيح من يسير الحر والبرد والحركة فكذلك القلب إذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشهوة أو الشبهة حيث لا يقوى على دفعهما إذا وردا عليه ، والقلب الصحيح القوى يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته .

أما أمراض الشبهات فكما قال الله عز وجل : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠] قال قتادة ومجاهد : أى شك .

فأمراض القلوب تجمعها أمراض الشهوات وأمراض الشبهات ، والقرآن شفاء للنوعين ، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ما هى عليه ، فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبة والشكوك ، ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه ، فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه كما يرى الليل والنهار .

وأما شفاؤه لأمراض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، والتزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة ، والأمثال والقصص التى فيها أنواع العبر والاستبصار ، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك بما ينفعه فى معاشه ومعاده ، ويرغب عما يضره ، فيصير القلب محبا للرشد مبغضا للغى فالقرآن مزيلٌ للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة فيصلح القلب فتصلح

إرادته ، ويعود إلى فطرته التى فُطِرَ عليها قال اللّه تعالى : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الإسراء : ٨٢] وقال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِى الصُّدُورِ** ﴾ [يونس : ٥٧] فيتغذى القلب من الإيمان والقرآن بما يزكيه ويقويه ، وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة له والحمية عما يضره ، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه ومنعه ما يضره ، فكذلك القلب لا ينمو ولا يتم صلاحه إلا بذلك ، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن ، وإذا وصل إلى شيء من غيره فهو نزر لا يحصل به تمام المقصود ، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين ، فحينئذ يقال زكا الزرع وكمل .

ينبغي للعبد أن يدرس علامات مرض القلب وعلامات صحة القلب حتى يتأكد من حالة قلبه فإن كان قلبه مريضا يسعى فى علاجه قبل أن يلقى اللّه بقلب مريض فلا يؤذن له فى دخول الجنة ، وإن كان سليما فيحافظ على سلامته حتى يموت على ذلك وإن كان ميتا والعياذ باللّه فيعلم أن اللّه عز وجل يحيى الموتى ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ [الحديد : ١٧] .

علامات مرض القلب

فمن علامات مرض القلب أن يتعذر على العبد ما خلق له من معرفة اللّه ومحبته والشوق إلى لقائه والإنابة إليه وإيثار ذلك على كل شهوة ، فيقدم العبد حظه وشهوته على طاعة اللّه ومحبته ، كما قال اللّه عز وجل : ﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** ﴾ [الفرقان : ٤٣] قال بعض السلف : هو الذى كلما هوى شيئا ركبه . فيحيى هذه الحياة الدنيا حياة البهائم لا يعرف ربه عز وجل ولا يعبده بأمره ونهيه كما قال تعالى : ﴿ **يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ**

الأنعامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [محمد : ١٢] والجزاء من جنس العمل فكما لا يحيا الحياة التى يحبها اللّه عز وجل ويرضاها وهو كذلك ليس جمادا لا يحس ، بل يحيا من أجل أن يعصى اللّه عز وجل بنعمه ، فهو كذلك فى الآخرة لا يحيا حياة يجد فيها راحته ، ولا يموت فيفقد الإحساس بالألم فلا يموت فيها ولا يحيا ﴿ **وَيَأْتِيه الَمْوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ** ﴾ [إبراهيم : ١٧] .

● ومن علامات مرضه أن صاحبه لا تؤلمه جراحات المعاصى كما قيل : « وما لجرح بميت إيلام » فالقلب الصحيح يتوجع بالمعصية ويتألم لها فيحدث له ذلك توبة وإنابة إلى ربه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ **إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإذَا هُم مُّبْصِرُون** ﴾ [الأعراف : ٢٠١] وقال تعالى فى وصف المتقين : ﴿ **والَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] الآية أى ذكروا عظمة اللّه عز وجل وتوعده وعقابه فأحدث لهم ذلك استغفارا . فمريض القلب يتبع السيئة السيئة كما قال الحسن فى قوله عز وجل : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ **هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب أما سليم القلب فيتبع السيئة الحسنة والذنب التوبة .**

● ومن علامات مرضه أن صاحبه لا يوجعه جهله بالحق ، فإن القلب السليم يتألم بورود الشبهات عليه ، ويتألم بجهله بالحق وبعقائده الباطلة ، فالجهل مصيبة من أكبر المصائب يتألم بها من كان فى قلبه حياة قال بعض العلماء : « ما عصى اللّه بذنب أقبح من الجهل » وقيل للإمام سهل : يا أبا محمد أى شىء أقبح من الجهل قال : « الجهل بالجهل » قيل : صدق لأنه يسد باب العلم بالكلية .

ويقول القائل :

وفى الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِه ... وَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ
وَأَرْوَاحُهُمْ فى وَحْشَةٍ مَن جُسُومِهِمْ ... وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ

● ومن علامات مرضه عدول صاحبه عن الأغذية النافعة إلى السموم الضارة ، كما يعرض أكثر الناس عن سماع القرآن الذى أخبر اللّه عز وجل عنه فقال : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ** ﴾ [الإسراء : ٨٢] ويستمعون إلى الغناء الذى ينبت النفاق فى القلب ويحرك الشهوات وفيه من الكفر باللّه عز وجل ما فيه ، فالعبد يقدم على المعصية لمحبته لما يبغضه اللّه عز وجل ورسوله ﷺ ، فالإقدام على المعصية نتيجة لمرض فى القلب ويزيد فى مرض القلب ، وكلما سَلِمَ القلب أحب ما يحبه اللّه عز وجل وما يحبه رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴾ [الحجرات : ٧] .

وقال ﷺ : « **ذاق حلاوة الإيمان من رضى باللّه ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا** »[١] .

وقال ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين** »[٢] .

● ومن علامات مرضه أن يستوطن صاحبه الدنيا ويرضى بها ويطمئن فيها ولا يحس فيها بغربة ولا يرجو الآخرة ولا يسعى لها سعيها وكلما صح القلب من مرضه ترحل إلى الآخرة ، فيعطى الناس ظاهره ويخالفهم بباطنه ، يرى ما هم فيه ولا يرون ما هو فيه ، ويكون حاله فى الدنيا كما وصى الرسول ﷺ : « **كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** »[٣] .

---

(١) رواه مسلم (٢/٢) الإيمان : بلفظ « **ذاق طعم الإيمان** » ، والترمذى (٩١/١٠) الإيمان وقال : حسن صحيح . قال عياض : معنى الحديث صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشتة قلبه .

(٢) روه البخارى (٥٨/١) الإيمان بمعناه ، ومسلم (١٥/٢) الإيمان ، والنسائى (١١٥/٨) الإيمان ، وابن ماجة فى المقدمة رقم (٦٧) .

(٣) رواه البخارى (٢٣٣/١١) الرقاق ، والترمذى (٢٠٣/٩) الزهد وأحمد (٢٤/٢ ، ٤١ ، ١٣٢) ، والبغوى (٢٢١/١٤) شرح السنة .

علامات صحة القلب

● أول علامه لصحة القلب ومحبة الرب عز وجل هى كثرة ذكر اللّه عز وجل ، فإن القلوب كما قيل: كالقدور وألسنتها مغارفها ، فاللسان يخرج ما فى القلب من حُلوٍ أو حنظل ، فإذا امتلأ القلب بحب الرب جل وعلا تحرك اللسان بالذكر ولابد ، وإذا امتلأ بغير ذلك من الكفر والفسوق والعصيان تحرك اللسان بالغيبة والنميمة والفحش والبذاء .

قال بعضهم : المحب لا يجد للدنيا لذةً ولا يغفل عن ذكر اللّه طرفة عين .

وقيل كذلك : المحب طائر القلب كثير الذكر متسبب إلى رضوانه بكل سبيل يقدر عليها من الوسائل والنوافل دأبا وشوقا.والذكر عند الشدة علامة على المحبة كما قال عنترة :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّهَا أَشْطَانُ بِئْرٍ فِي لَبَانَ الْأَدْهَـم

ففى الوقت الذى يرخص فيه بالأفطار وقصر الصلاة أمر اللّه عز وجل بالإكثار من الذكر فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

● ومن علامات صحته أنه لايزال يضرب على صاحبه حتى ينيب إلى اللّه ويتعلق به تعلق المحب المضطر إلى محبوبه الذى لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا برضاه وقربه والأنس به ، فبه يطمئن ، وإليه يسكن ، وإليه يأوى وبه يفرح ، وعليه يتوكل ، وبه يثق ، وإياه يرجو ، ومنه يخاف ، فذكره قوته وغذاؤه ، ومحبته والشوق إليه حياته ولذته نعيمه وسروره ، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه ، والرجوع إليه دواؤه ، فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأن

به وزال ذلك الاضطراب والقلق وانسدت تلك الفاقة فإن فى القلب فاقة لا يسدها إلا اللّه تعالى أبدا .

● ومن علامات صحته أن يتعب الجسد فى الخدمة ولا يمل القلب ، وقد كان الرسول ﷺ يصلى حتى ترم قدماه فيقال له فى ذلك فيقول : « **أفلا أكون عبدا شكورا** »[1] قال يحيى بن معاذ : من سر بخدمة اللّه سرت الأشياء كلها بخدمته ، ومن قرت عينه باللّه قرت عين كل أحد بالنظر إليه قال ابن مسعود لرجل : دَاو قلبك فإن حاجة اللّه إلى العباد صلاح قلوبهم . أى مراده منهم ومطلوبه منهم ، وصلاح القلب أن يمتلأ بحب الرب عز وجل ومن أحب اللّه عز جل أحب خدمته وصارت قوت قلبه وغذاء نفسه كما قيل :

وَكُنْ لِرَبِّكَ ذَا حُبٍّ لِتَخْدِمَهُ ... إِنَّ المُحِبِّينَ لِلْأَحْبَابِ خُدَّامُ

وقال الإمام ابن المبارك :

تَعصَي الإلهَ وأَنتَ تزعمُ حبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِى فِى القِيَاسِ بديعُ

لو كانَ حبُّكَ صَادِقًا لأطعتَهُ ... إن المحبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطِيعُ

● ومن علامات صحته أن يحن صاحبه إلى الخدمة ويشتاق إليها أكثر من حنين الجائع إلى الطعام والشراب ؛ فإن العبد إذا ذاق حلاوة معاملة اللّه عز وجل بالمداومة على الطاعات أحب الطاعة ، فلا يستغنى عنها بحال ، فإذا وجد نفسه معطلا فى غير طاعة اللّه عز وجل ضاق عليه صدره ووجد دافعا يدفعه من داخله إلى طاعة اللّه عز وجل ، كما نصحت إحدى الصالحات من السلف بنيها فقالت لهم : تَعَوَّدُوا حب اللّه وطاعته ، فإن المتقين ألفوا بالطاعة فاستوحشت جوارحهم من غيرها ، فإن عرض لهم الملعون بمعصية ، مرت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون .

---

(١) رواه البخارى (١٤/٣) التهجد ، والترمذى (٢٠٥/٢) الصلاة ، والنسائى (٢١٩/٣) قيام الليل .

● ومن علامات صحته أنه إذا دخل فى الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا ووجد فيها راحته ونعيمه واشتد عليه خروجه منها كما قال ﷺ : « **وجعلت قرة عينى فى الصلاة** »[1] .

● ومن علامات صحته أن يكون أشح بوقته أن يذهب فى غير طاعة من أشد الناس شحا بماله فإن رأس مال العبد أنفاسه وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة ثمينة تستطيع أن تشترى بها كنزا لا يفنى أبدا الآباد فتضييعه وخسارته أو اشتراء صاحبه به ما يجلب هلاكه لا يسمح به إلا أقل الناس عقلا وأكثرهم حمقا روى الترمذى فى جامعه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة** »[2] فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل .

وقال ﷺ : « **اقرؤا القرآن فإنكم تؤجرون عليه أما إنى لا أقول الم حرف ولكن ألف عشر ولام عشر وميم عشر** »[3] .

وقال ﷺ : « **من صلى فى يوم ثنتى عشرة سجدة تطوعا بنى الله له بيتا فى الجنة** »[4] .

---

(١) رواه النسائى (٦١/٧) فى عشرة النساء وأحمد فى المسند ١٢٨/٣١ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) وحسنه فى تحقيق جامع الأصول وحسنه الألبانى كذلك فى تحقيق المشكاة .

(٢) رواه ابن حبان (٢٣٣٥) موارد ، والترمذى (٣٥٣١) تحفة الدعوات ، والحاكم (٥٠١/١ ، ٥٠٢) وقال الترمذى حسن صحيح وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى وصححه الألبانى فى الصحيحة .

(٣) اخرجه الخطيب فى التاريخ (٢٨٥/١) ، والديلمى (١٣/١/١) وقال الألبانى : وهذا إسناد جيد رجاله رجال الصحيح غير ابن الجنيد ترجمه الخطيب وقال : وهو شيخ صدوق ووثقه غيره وروى الترمذى نحوه - الصحيحة ٦٦٠ .

(٤) رواه مسلم (٧/٦) صلاة المسافرين ، وأبو داود (١٢٣٧) الصلاة والترمذى (٢٠٧/٢) الصلاة ، والنسائى (٢٦١/٣) قيام الليل .

فسليم القلب الذى يستقبل هذا الكلام استقبالا سليما لا يسعه إلا أن يملأ أوقاته وأنفاسه بطاعة اللّه ويبخل بالوقت والنفس أن ينفق فى غير طاعة اللّه فيكون أشح بذلك من أشد الناس بخلًا بماله .

● ومن علامات صحته أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أكثر من اهتمامه بالعمل ذاته ، فإن العبرة ليست فى كثرة العمل ولكن العبرة فى حسن العمل وحفظه مما يحبطه ، فيحرص على الإخلاص والمتابعة فى كل عمل ، ويشاهد منة اللّه عليه فيه وتقصيره فى حق ربه عز وجل ، ثم لا يَمُنّ بالعمل على ربه عز وجل أو على الناس ، أو يصيبه بذلك العمل عجبٌ أو كِبْرٌ أو غير ذلك مما يجعل الأعمال التى تبدو للناس حسنات أقرب إلى السيئات ، عياذا باللّه من ذلك .

● ومن علامات صحته أنه إذا فاته ورده أو طاعة من الطاعات وجد لذلك حسرة أكثر مما يجد الحريص إذا فقد أهله وماله ، فإنه يعلم أنها خسارة فى الآخرة فيتألم لفوات الخير فيها ، ويعلم أن خسارة الدنيا نسبتها إلى خسارة الآخرة كلا شىء ، فإن أعراض الدنيا زائلة آجلا أو عاجلا ، أما ما عند اللّه عز وجل فلا يزول ولا يفنى قال اللّه تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل : ٩٦] فلو أن تاجرا يعانى البيع والشراء فاتته تجارة الدرهم فيها يربح سبعة وعشرين درهما وفى نفس البلد لأكل أصابعه ندما عليها ، فالذى تفوته صلاة الجماعة التى تعدل صلاة الفرد بسبع وعشرين ضعفا ولا يتألم لذلك فهى علامة على مرض قلبه ، وتعظيم الأمر والنهى من علامات صحة القلب ومحبة الرب عز وجل .

● ومن علامات صحته أن يجعل العبد همه واحدا يجعله فى اللّه عز وجل أى فى طاعة اللّه ، فالذى يحرك العبد من داخله هو محبة اللّه عز وجل ورجاء التلذذ بالنظر إلى وجهه الكريم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل : ٥]

وفى الأثر عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : من شغله أمر دينه كفاه الله أمر دنياه ، ومن أحسن سريرته أحسن الله علانيته ، ومن أحسن ما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس . وقال بعضهم : إذا قصر العبد فى العمل ابتلاه الله بالهم .

● ومن علامات صحته أن يأنس بالله عز وجل ويستوحش من غيره ، إلا بمن يدله عليه أو يذكره به كما قيل : « طوبى لمن استوحش من الناس وكان الله أنيسه » فإن العبد إذا أحب أحدًا أحب أن يخلو به ومن كان فاضلا فى نفسه أحب الخلوة وإذا خلا أنس بالله عز وجل وسعد بالله والعكس بالعكس . وكما يقولون : الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس .

● ومن علامات صحته أن يكون كلام الله عز وجل والكلام عنه أحب شيء إلى قلبه ، كما روى عن ابن مسعود أنه قال : « من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله فيعرض نفسه على القرآن ، فإن أحب القرآن فهو يحب الله فإنما القرآن كلام الله » . وروى عنه أنه كان يقبل المصحف ويقول : كلام ربى كلام ربى .

وقال عثمان رضى الله عنه لو طهرت قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم .

فهذه علامات صحة القلب وهى أيضا علامات محبة الرب جلا وعلا ، فصلاح القلوب أن تمتلىء بمحبة علام الغيوب وغفار الذنوب عز وجل ، ولا صلاح لها بغير ذلك فكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فكذلك قلوب العباد لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدت بذلك فسادا لا يرجى له صلاح حتى تعود إلى توحيد ربها عز وجل ومحبته فالعين خلقت للإبصار ، والأذن للسماع ، واللسان للتحدث والذوق ، والقلب خلق لمحبة الله عز وجل وعبادته ، فلا يسعد إلا بذلك ولا يطمئن إلا به ، وإذا أحب غير الله عز وجل وتعلق به فالتعاسة والشقاء والهموم والغموم قال ﷺ : « **تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد القطيفة ، تعس**

وانتكس وإذا شيك فلا انتقش »[1] فإذا فقد القلب وظيفة محبة اللّه عز وجل وعبادته فإنه يكون أشقى من العين إذا فقدت نورها ، ومن الأذن إذا فقدت سمعها ، فلذلك يظل القلب فى تقلب وشقاء وهم وغم وحزن حتى يعرف ربه عز وجل ، فإذا عرف ربه سعد به واستغنى بحبه عن حب ما سواه ، وبذكره عن ذكر ما سواه ، وبخدمته عن خدمة ما سواه ، فسعادة الدنيا والآخرة منوطة بصلاح القلوب ، وشقاء الدنيا والآخرة منوط بفسادها ، نسأل اللّه عز وجل ، أن يرزقنا بمنه وكرمه قلوبا سليمة ، وفطرا مستقيمة ، واللّه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١) رواه البخارى (٨١/٦) الجهاد ، والخميصة والقطيفة نوعان من الثياب وقوله : « إذا شيك » إذا دخلت فى جسمه شوكة قوله « فلا انتقش » أى فلا خرجت من جسمه .

٧ - أسباب مرض القلب وسمومه الضارة(*)

اعلم أن المعاصى كلها سموم للقلب وأسباب لمرضه وهلاكه ، وهى منتجة لمرض القلب وإرادته غير إرادة اللّه عز وجل وضررها للقلب كضرر السموم للأبدان .

قال الإمام ابن المبارك :

رأيتُ الذُّنوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وقد يورثُ الذّل إدمانُهَا
وتركُ الذُّنوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكِ عِصْيَانُهَا

وللمعاصى من الآثار المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة ما لا يعمله إلا اللّه عز وجل وليس فى الدنيا والآخرة شرٌ وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصى :

قال ابن القيم رحمه اللّه ما ملخصه :

فما الذى أخرج الوالدين من الجنة دار اللذةِ والنعيم والبهجة والسرور إلى دار الآلآم والأحزان والمصائب .

وما الذى أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها وباطنه أقبح من صورته وأشنع وبدل بالقرب بعدا وبالرحمة لعنة وبالجمال قبحا وبالجنة نارًا تلظى ، فهان على اللّه غاية الهوان وسقط من رحمته غاية السقوط ، وحل عليه غضب الرب تعالى فأهواه

(*) انظر الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى لابن القيم .

ومقته أكبر المقت فأرداه ، فصار قوادا لكل فاسق ومجرم رضى لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة ، فعياذا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك .

وما الذى أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال ؟ وما الذى سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية ؟

وما الذى أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم فى أجوافهم وماتوا عن آخرهم ؟

وما الذى رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها فأهلكهم جميعا ثم أتبعهم حجارة من سجيل فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم ، ولإخوانهم أمثالها ، وما هى من الظالمين ببعيد .

وما الذى أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل ، فلما صار فوق رؤوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى ؟

وما الذى أغرق فرعون وقومه فى البحر ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم فالأجساد للغرق والأرواح للحرق ؟

وما الذى خسف بقارون وداره وماله وأهله ؟

وما الذى أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات ودمرها تدميرا ؟

وما الذى بعث على بنى إسرائيل قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وقتلوا الرجال وسبوا الذرارى والنساء ، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية فأهلكوا ما قدروا عليه وتبروا ما علوا تتبيرا ، وما الذى سلط عليهم أنواع العذاب والعقوبات مرة بالقتل والسبى وخراب البلاد ، ومرة بجور الملوك ، ومرة بمسخهم قردة وخنازير وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى : ﴿ **لَيَبْعَثَنَّ عَلَيهِم إلَى يَوْم القِيَامَةِ مَن يَسُومُهُم سُوءَ العَذَابِ** ﴾ [الأعراف : ١٦٧] .

- فمن آثار الذنوب والمعاصى : أنها مدد من الإنسان يمد به عدوه عليه ، وجيش يقويه به على حربه .

- ومنها : أنها تجرىء على العبد من لم يكن يجترىء عليه .

- ومنها : الطبع على القلب إذا تكاثرت ، حتى يصير صاحب الذنب من الغافلين كما قال بعض السلف فى قوله تعالى : ﴿ **كَلَّا بَلْ رَّانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين : ١٤] هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ، وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانا ، ثم يغلب حتى يصير طبعا وقفلا فيصير القلب فى غشاوة وغلاف .

- ومنها : أن ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة .

- ومنها أن المعاصى تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضا .

- ومنها : ظلمة يجدها فى قلبه يحس بها كما يحس بظلمة الليل كما روى عن ابن عباس أنه قال : « إن للحسنة نوراً فى الوجه ، وضياءً فى القلب ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للمعصية سواداً فى الوجه ، وظلاما فى القلب ، وضيقا فى الرزق وبُغْضَةً فى قلوب الخلق » .

- ومنها : أن المعاصى توهن القلب والبدن ، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية ، وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته فى قلبه وكلما قوى قلبه قوى بدنه .

- ومنها : تعسير أموره فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه كما قال بعض السلف : إنى لأعصى الله فأجد ذلك فى خلق دابتى وامرأتى .

- ومنها : الوحشة التى تحصل بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير قال أبو الدرداء : ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر ، يخلو بمعاصى الله فيلقى الله له البغض فى قلوب المؤمنين .

● ومنها : سقوط الجاه والكرامة عند اللّه وعند خلقه : ﴿ **وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُكْرِمٍ** ﴾ [الحج : ١٨] .

● ومنها أنها تطفىء فى القلب نار الغيرة .

● ومنها : ذهاب الحياء الذى هو مادة حياة القلب .

● ومنها : أنها تضعف سير القلب إلى اللّه والدار الآخرة .

● ومنها : أن العبد لا يزال يرتكب المعاصى حتى تهون عليه وتصغر فى قلبه ، قال ابن مسعود : « إن المؤمن يرى ذنبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا »[١] وقال أنس رضى اللّه عنه : « إنكم لتعملون أعمالا هى أدق فى أعينكم من الشعر كنا لنعدها على عهد رسول اللّه ﷺ من الموبقات »[٢] .

وقال بلال بن سعد : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر إلى عظمة من عصيت .

ونخص بالذكر هنا إن شاء اللّه تعالى خمسة سموم من سموم القلب وهى من أكثر السموم انتشارا وأشدها تأثيرا فى حياة القلب : وهى فضول الكلام ، وفضول النظر ، وفضول المخالطة ، وفضول الطعام ، وفضول النوم .

---

(١) رواه الترمذى (٢٦٢٨) مرفوعا وموقوفا وصححه الألبانى .

(٢) رواه البخارى (١١/٣٢٩) الرقاق : باب ما يتقى من محقرات الذنوب ، وقوله : « من الموبقات » أى من المهلكات .

فضول الكــلام*

« آفات اللســان »

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعَدَّلَهُ ، وألهمه نور الإيمان فزينه به وجَمَّلَهُ وعلمه البيان فقدمه به وفضله ، وأمده بلسان يترجم به عما حواه القلب وعقله ، فاللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة ، فإنه صغير جِرْمُه عظيم طاعته وجُرْمُه ، إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان وهما غاية الطاعة والعصيان ، ومن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان فى كل ميدان وساقة إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار ، ولا يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ويكفه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجله وآجله ، ففى حديث معاذ رضى الله عنه قوله ﷺ : **« وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم »**[1] والمراد بحصائد الألسنة جزاء الكلام المحرم وعقوباته ؛ فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات ثم يحصد يوم القيامة ما زرع ، فمن زرع خيرًا من قول أو عمل حصد الكرامة ، ومن زرع شرا من قول أو عمل حصد الندامة ، وظاهر حديث معاذ يدل على أن أكثر ما يدخل الناس به النار النطق بألسنتهم ، فإن معصية النطق يدخل فيها الشرك وهو أعظم الذنوب

(*) إحياء علوم الدين - جامع العلوم والحكم - فتح البارى .

(١) رواه الترمذى (٨٧/١٠ ، ٨٨) الإيمان . وقال : هذا حديث حسن صحيح وابن ماجة (٣٩٧٣) الفتن ، والحاكم (٤١٣/٢) التفسير وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى وصححه الألبانى .

عند اللّه عز وجل ، ويدخل فيها القول على اللّه بغير علم وهو قرين الشرك ، ويدخل فيها شهادة الزور والسحر والقذف وغير ذلك من الكبائر والصغائر كالكذب والغيبة والنميمة ، وسائرالمعاصى الفعلية لا يخلو غالبا من قول يقترن بها يكون معينا عليها .

وقد ورد فى فضل الصمت أحاديث كثيرة منها حديث سفيان بن عبد اللّه الثقفى قال : « **قلت يا رسول اللّه ما أخوف ما تخاف على ؟ قال : هذا : وأخذ بلسانه** »[1] .

وفى كتاب الإيمان فى صحيح البخارى قوله : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** »[2] ، وعن عقبة بن عامر رضى اللّه عنه قال : « **قلت يا رسول اللّه ما النجاة ؟ قال : أمسك عليك لسانك** »[3] .

وقال ﷺ : « **من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت** »[4] وهو من جوامع كلمه ﷺ ففيه أمر بقول الخير وبالصمت عما عداه ، فالكلام إما أن يكون خيرا فيكون مأمورا بقوله ، وإما أن يكون غير ذلك فيكون مأمورا بالصمت عنه ، وقد قال اللّه تعالى : ﴿ **مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق : ١٨] .

---

(١) رواه الترمذى (٢٤٩/٩) الزهد وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجة (٣٩٧٢) وصححه الألبانى ، ورواه الدارمى (٢٩٨/٢) الرقاق ، والحاكم (٣١٣/٢) وقال : صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

(٢) رواه البخارى (٥٣/١) الإيمان ، ومسلم (١٢/٢) الإيمان ، وأبو داود رقم (٢٤٦٤) الجهاد ، والنسائى (١٠٥/٨) الإيمان .

(٣) رواه الترمذى (٢٤٧/٩) الزهد ، وأحمد (٢٥٩/٥) وابن المبارك فى الزهد (١٣٤) وصححه الألبانى لطرقه وهو فى الصحيحة رقم ٨٩٠ .

(٤) رواه البخارى (٤٤٥/١٠) الأدب ، ومسلم (١٨/٢) الإمان وأبو داود رقم (٥١٣٢) الأدب ، وابن ماجة (٣٩٧١) والفتن .

وعن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة** »[1] أى من أدى الحق الذى على لسانه من النطق بما يجب عليه والصمت عمَّا لايعنيه ، وأدى الحق الذى على فرجه من وضعه فى الحلال وكفه عن الحرام ، أضمن له الجنة ، قال ابن بطال : دل الحديث على أن أعظم البلاء على المرء فى الدنيا لسانه وفرجه فمن وقى شرهما وقى أعظم الشر ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يَزِلُّ بها فى النار أبعد ما بين المشرق** » ، وأخرجه مسلم بلفظ « **أبعد ما بين المشرق والمغرب** »[2] قال ابن عبد البر : الكلمة التى يهوى بها صاحبها بسببها فى النار هى التى يقولها عند السلطان الجائر . قوله : « ما يتبين فيها » قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : هى الكلمة التى لا يعرف القائل حسنها من قبحها ، قال : فيحرم على الإنسان أن يتكلم بما لا يعرف حسنه من قبحه . قال النووى : فى هذا الحديث حث على حفظ اللسان فينبغى لمن أراد أن ينطق أن يتدبر ما يقول قبل أن ينطق فإن ظهرت فيه مصلحة تكلم وإلَّا أمسك .

الآثــار :

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : والله الذى لا إله إلا هو ليس شىء أحوج إلى طول سجن من لسانى . وكان يقول : يا لسان قل خيرا تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : أنصف أذنيك من فيك ، وإنما جعل لك أذنان وفم واحد لتسمع أكثر مما تتكلم .

---

(١) رواه البخارى (٣٠٨/١١) الرقاق ، والترمذى (٢٤٨/٩) الزهد .

(٢) رواه البخارى (٢٦٦/١١) الرقاق ، ومسلم (١١٧/١٨) الزهد والموطأ فى الكلام ، والترمذى (١٩٥/٩) الزهد بلفظ « **إن الرجل ليتكلم بالكلمة لايرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفا فى النار** » وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

وعن الحسن البصرى قال : كانوا يقولون : « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا هم بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه » .

- وعن الحسن قال : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه .

- فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟

فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض فى الباطل والخصومة والفضل والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات ، فهذه آفات كثيرة ، وهى سياقة إلى اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة فى القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب ، فإن ذلك من غوامض العلم ففى الخوض خطر وفى الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول فى الدنيا ومن حسابه فى الآخرة فقد قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] ويدل على فضل لزوم الصمت أمر ، وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذى هو ضرر محض فلابد من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة فإن درأ المفاسد أولى من جلب المنافع ، وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقى ربع ، وهذا الربع فيه خطر إذ قد يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع وتزكية النفس امتزاجا يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطرا .

ونخص بتفصيل الذكر بعض آفات اللسان التى عمت بها البلوى : وهى الكلام فيما لا يعنى ، والغيبة ، والنميمة ، والمدح .

الكلام فيما لا يعنى

اعلم أن رأس مال العبد أوقاته ، فمهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابا فى الآخرة فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبى ﷺ : **« من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »**(1)

وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة إليه ، أو تزجية أوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها ، وعلاج ذلك كله أن يعلم أن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين ، ومعنى قوله ﷺ : **« من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »** أن من حسن إسلامه ترك ما لا يعنيه من قول وفعل واقتصر على ما يعنيه من الأقوال والأفعال ، ومعنى يعنيه أى تتعلق عنايته به ويكون من مقصوده ومطلوبه ، والعناية شدة الاهتمام بالشيء وليس المراد أنه يترك ما لا إرادة له ولا عناية بحكم الهوى وطلب النفس بل بحكم الشرع والإسلام ، ولهذا جعله من حسن الإسلام ، وأكثر ما يراد بترك ما لا يعنى حفظ اللسان من لغو الكلام .

قال مورق العجلى : أمرٌ أنا فى طلبه منذ كذا وكذا سنة لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه أبدا قالوا : وما وهو ؟ قال : الكف عما لا يعنينى .

وروى أبو عبيدة عن الحسن قال : من علامة إعراض الله تعالى عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه خذلانا من الله عز وجل .

---

(1) رواه الترمذى (٩/١٩٦) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه ورواه ابن ماجة رقم (٣٩٧٦) وحسنه النووى وابن عبد البر وقال ابن رجب : الصحيح فيه المرسل وصححه الألبانى .

وقال سهل بن عبد الله : من تكلم فيما لا يعنيه حُرِمَ الصدق .

وحد الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ولم تستضر فى حال ومال ، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار وما وقع لك من الوقائع وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر ، إذا بالغت فى الجهاد حتى لم تمزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشىء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك ، وأنى تسلم من الآفات التى ذكرناها .

والكلام فيما لا يعنى والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة نوع فضول ، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره ، ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول ، أى فضل عن الحاجة وهو أيضا مذموم لما سبق ، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر .

قال عطاء بن أبى رباح : « إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ أو أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو أن تنطق بحاجتك فى معيشتك التى لابد لك منها ، أتنكرون أن عليكم حافظين كراما كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحى أحدكم إذا نشرت صحيفته التى أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه » .

وفى الأثر : ما أوتى الرجل شرا من فضل لسانه .

الغيبة

تعريف الغيبة : عن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « **أتدرون ما الغيبة ؟** » قال اللّه ورسوله أعلم . قال : « **ذكرك أخاك بما يكره** ». قيل إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته** »[1] أى : قال عليه ما لم يفعل .

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٥٣) الأدب ، والترمذى (٨ ، ١٢٠) البر والصلة ، ورواه بنحوه مسلم (١٤٢/١٦) البر والصلة ، والدارمى (٢٩٩/٢) قال النووى : تباح الغيبة لغرض شرعى وذلك لستة أسباب أحدها التظلم فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضى وغيرهما ممن له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه ، فيقول ظلمنى فلان أو فعل بى فلان كذا .

الثانى : الاستغاثة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى الصواب فيقول لمن يرجو قدرته فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك .

الثالث : الاستفتاء بأن يقول للمفتى ظلمنى فلان أو أبى أو أخى أو زوجى بكذا فهل له ذلك وما طريقى فى الخلاص منه ودفع ظلمه عنى ونحو ذلك ، فهذا جائز للحاجة والأجود أن يقول فى رجل أو زوج أو والد وولد كان من أمره كذا ، ومع ذلك فالتعيين جائز لحديث هند وقولها إن أبا سفيان رجل شحيح

الرابع : تحذير المسلمين من الشر وذلك من وجوه منها جرح المجروحين من الرواه والشهود والمصنفين وذلك جائز بالإجماع بل واجب صونا للشريعة ، ومنها : الإخبار عند المشاورة فى مواصلته ، ومنها إذا رأيت من يشترى شيئا معيبا أو عبدا سارقا أو زانيا أو شاربا أو نحو ذلك تذكرة للمشترى إذا لم يعلمه نصيحة لا بقصد الإيذاء والإفساد ، ومنها : إذا رأيت متفقهًا يتردد إلى فاسق أو مبتدع يأخذ عنه علما وخفت عليه ضررة فعليك نصيحته ببيان حاله قاصدا النصيحة ، ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها لعدم أهليته أو لفسقه فيذكره لمن له عليه ولاية ليستدل به على حاله فلا يغتر به ويلزم الاستقامة .

الخامس : أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته كالخمر ، ومصادرة الناس وجباية المكوس وتولى الأمور الباطلة ، فيتجوز ذكره بما يجاهر به ولا يجوز بغيره إلا بسبب آخر .

السادس : التعريف فإذا كان معروفا بلقب كالأعمش والأعرج والأزرق والقصير والأعمى والأقطع ونحوها جاز تعريفه به ويحرم ذكره به تنقصا ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى .

— شرح النووى على صحيح مسلم هامش (١٤٢/١٦ ، ١٤٣) .

قال اللّه تعالى : ﴿ **وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الحجرات : ١٢] .

أى لا يتناول بعضكم بعضا بظهر الغيب بما يسوؤه ثم ضرب اللّه تعالى للغيبة مثلا : ﴿ **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا** ﴾ وبيانه أن ذكرك أخاك الغائب بسوء بمنزلة أكل لحمه وهو ميت لا يحس بذلك ﴿ **فَكَرِهْتُمُوهُ** ﴾ أى فكما كرهتم هذا الأمر فاجتنبوا ذكر إخوانكم بالسوء ، وفى ذلك إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه وهى من الكبائر .

وعن عائشة رضى اللّه عنها قالت : « **قلت للنبى ﷺ حسبك من صفية كذا وكذا** » - قال بعض الرواه تعنى قصيرة - « **فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته** » . قالت : وحكيت له إنسانا فقال : « **ما أحب أنى حكيت إنسانا وإن لى كذا وكذا** »[(١)] والحديث من أبلغ الزواجر عن الغيبة .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « **كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله** »[(٢)] .

وعن أبى بكر رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال فى خطبته يوم النحر بمنى فى حجة الوداع : « **إنَّ دماءكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هلا بلغت** »[(٣)] .

قال على بن الحسين : إياكم والغيبة فإنها إدام كلاب الناس .

---

(١) رواه الترمذى (٩/ ٣١٠) صفة القيامة وقال هذا حديث حسن صحيح ، ورواه أبو داود (٤٨٥٤) الأدب وصححه الألبانى .

(٢) رواه البخارى (٩/ ١٧١) النكاح ، ومسلم (١٦/ ١٢١) البر والصلة ، وأبو داود (٤٨٦١) الأدب ، والترمذى (٨/ ١١٥) البر والصلة .

(٣) رواه البخارى (١٢/ ٨٥) الحدود وفى الديات والحج والمغازى والأدب ، ورواه مسلم (١١/ ١٧١) القسامه .

فمعنى الغيبة أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه ، سواء كان ناقصا فى بدنه أو نسبه أو خلقه أو ثوبه .

وأقبح أنواع الغيبة : غيبة المتزهدين المرائين مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون الحمد للّه الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقولون نعوذ باللّه من قلة الحياء أو نسأل اللّه العافية فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم ، وربما قال بعضهم عند ذكر إنسان : ذلك المسكين قد بلى بآفة عظيمة تاب اللّه علينا وعليه ، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده .

واعلم أن المستمع للغيبة شريك فيها ، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف فبقلبه ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك .

الأسباب الباعثة على الغيبة :

١ - تشفى الغيظ بأن يجرى من إنسان فى حق انسان آخر سبب يوجب غيظه فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه .

٢ - من البواعث على الغيبة موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا منه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن الصحبة .

٣ - إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره فيقول : فلان جاهل وفهمه ركيك ونحو ذلك وغرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه ، وكذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وأكرامهم فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

٤ – اللعب والهزل فيذكر غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا .

علاج الغيبة : فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط اللّه تعالى ومقته وأن حسناته تنتقل إلى من اغتابه ، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة .

وينبغى إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر فى عيوب نفسه ويشتغل بإصلاحها ويستحى أن يعيب وهو معيب كما قال بعضهم :

فإن عبتَ قومًا بالذى فِيكَ مثلُهُ ... فكيفَ يعيبُ الناسَ منْ هوَ أَعْوَرُ
وَإنْ عِبْتَ قَوْمًا بِالَّذِى لَيْسَ فِيهِمُ ... فَذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ أَكْبَرُ

فلينظر فى السبب الباعث على الغيبة فيجتهد فى قطعه فإن علاج العلة يكون بقطع سببها .

كفارة الغيبة :

إعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين :

أحدهما حق اللّه تعالى إذ فعل ما نهاه عنه فكفارة ذلك التوبة والندم .
والجناية الثانية : على عرض المخلوق ، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل جاء إليه فاستحله وأظهر له الندم على فعله .

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل جعل مكان استحلاله الاستغفار له والثناء عليه بما فيه من خير أمام من اغتابه أمامهم لإصلاح قلوبهم .

النميمة

قال اللّه تعالى : ﴿ **هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ** ﴾ [القلم : ١١] قال أهل التفسير نزلت فى الوليد بن المغيرة وقال تعالى : ﴿ **وامرأته حَمَّالَةَ الْحَطَبِ** ﴾ [المسد : ٤] . قيل أنها نمامة حمالة للحديث . وعن حذيفة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **لا يدخل الجنة نمام** »[١] وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ مر بقبرين فقال : « **إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة ، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله** »[٢] قال بعض العلماء : « وما يعذبان فى كبير » أى كبير فى زعمهما وقيل كبير تركه عليهما .

وقال ﷺ : « **ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا : بلى قال : المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبراء العنت** »[٣] .

وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه قال : « ألا أنبئكم ما العضه هى النميمة القالة بين الناس »[٤] .

---

(١) رواه البخارى (٤٧٢/١٠) الأدب ، ومسلم (١١٣/٢) الإيمان ، والترمذى (١٨٢/٨) البر والصلة ، وأبو داود (٢١٩/١٣) الأدب .

(٢) رواه البخارى (٣١٧/١) الوضوء ، ومسلم (٢٠٠/٣) الطهارة ، والترمذى (٩٠/١ ، ٩١) الطهارة ، وأبو داود (٢٠ ، ٢١)الطهارة ، والنسائى (٢٨/١ ، ٢٩ ، ٣٠) الطهارة .

(٣) رواه أحمد (٤٥٩/٦) ، (٢٢٧/٤) من حديث أبى مالك الأشعرى ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، وهو فى مشكاة المصابيح (٤٨٧١) ، والعنت أى العيب .

– قال الهيثمى : فيه شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد وبقية رجال أحمد اسانيده رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٩٣/٨) .

(٤) رواه مسلم (١٥٩/١٦) البر والصلة ، والدارمى (٣٠٠/٢) ، وأحمد (٤٣٧/١) قال ابن الأثير :

العَضْهُ والعضيهةُ البهتان والكذب الذى لا حقيقة له .

والقَالَة : كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس .

معنى النميمة نقل الكلام بين الناس لقصد الإفساد وإيقاع العداوة والبغضاء ، فالنم خلق ذميم لأنه باعث للفتن وقاطع للصلات وزارع للحقد ومفرق للجماعات ، يجعل الصديقين عدوين والأخوين أجنبيين ، فالنمام يصير كالذباب ينقل الجراثيم ، والنميمة اسم يطلق على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتاب أو بالرمز أو بالإيماء ، فكل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما فى حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية .

والباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكى عنه ، أو إظهار الحب للمحكى له ، أو التفرج بالحديث والخوض فى الفضول والباطل .

ومن نقلت إليه النميمة عليه ستة أمور :

١ – أن لا يصدق النمام لأن النمام فاسق قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ [الحجرات : ٦] .

٢ – ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله .

٣ – يبغضه فى الله فإنه بغيض عند الله .

٤ – لا تظن بأخيك الغائب سوءاً لقوله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

٥ – لا يحملك ما حكى لك على التجسس والبحث للتحقق منه لقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] .

٦ – لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ، ولا تحكى نميمته فتكون نماما ومغتابا ، فليتق الله ذوو الألسنة الحداد ، ولا ينطقوا إلا بما فيه الخير لخلق الله ،

ويكفيهم فى هذا قول النبى ﷺ : « مَن كَانَ يُؤمنُ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَليقل خيرا أو ليصمت »[1] .

الآثـــار :

قال الحسن : من نم إليك نم عليك .

قال رجل لعمرو بن عبيد : إن الأسوارى ما يزال يذكرك فى قصصه بشر . فقاله عمرو : يا هذا ما راعيت حق مجالسة الرجل حيث نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حَقِّى حين أعلمتنى عن أخى ما أكره ولكن أعلمه :

أن الموتَ يَعُمُّنَا ، والقبر يَضُمُّنَا ، والقيامة تجمعنا ، واللّه تعالى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين .

وروى أن سليمان بن عبد الملك كان جالسا وعنده الزهرى فجاءه رجل فقال له سليمان : بلغنى أنك وقعت فىَّ وقلت كذا وكذا وكذا . فقال الرجل : ما فعلت ولا قلت . فقال سليمان : إن الذى أخبرنى صادق ، فقال له الزهرى : لا يكون النمام صادقا . فقال سليمان : صدقت ثم قال للرجل : إذهب بسلام .

وقال بعضهم : لو صح ما نقله النمام إليك ، لكان هو المجترىء بالشتم عليك ، والمنقول عنه أولى بحلمك ، لأنه لم يقابلك بشتمك .

ويروى أن عمر بن عبد العزيز دخل عليه رجل فذكر عنده وشاية فى رجل آخر فقال عمر : إن شئت حققنا هذا الأمر الذى تقول فيه وننظر فيما نسبته إليه . فإن كنت كاذبا فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ إن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات : ٦] ، وإن كنت صادقا فأنت من أهل هذه الآية :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وقد تقدم تخريجه ص (٦٧) .

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : ١١] ، وإن شئت عفونا عنك ، فقال : العَفْوَ يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبدا .

المـدح

وله أخطار منها ما يتعلق بالمادح ومنها ما يتعلق بالممدوح :

فأما آفات المادح فقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل للاطلاع عليه مثل أن يقول ورع وزاهد ، وقد يفرط فى المدح فينتهى إلى الكذب ، وقد يمدح من ينبغى أن يذم .

وأما الممدوح فإنه قد يحدث فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان ، ولهذا قال النبى ﷺ لما سمع رجلا يمدح رجلا : « **ويحك قطعت عنق صاحبك** »[1] ، وقد يظن الممدوح أنه وصل إلى المقصود فتتقاصر همته ويقل جهده ويفتر عن العمل ، ولا ينجو من هذه الآفات إلا بأن يعرف نفسه ويتفكر فى أن المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه ، وكان على رضى الله عنه إذا أثنى عليه يقول : «اللهم اغفر لى ما لا يعلمون ، ولا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيرا مما يظنون » .

وفى الحديث : « **واحثوا فى وجه المداحين التراب** »[2] .

---

(١) رواه البخارى (١٠/٤٧٦) الأدب ، ومسلم (١٨/١٢٦ ، ١٢٧) الزهد ، وأبو داود (٤٧٨٤) الأدب .

(٢) رواه مسلم (١٨/١٢٨/) الزهد ، وأبو داود (٤٧٨٣) الأدب ، والترمذى (٩/٢٣٩) الزهد .

قال ابن الأثير : المداحون : هم الذين اتخذوا مدح الناس عادة وجعلوه بضاعة يتأكلون به من الممدوح ، فأما من مدح على الفعل الحسن والأمر المحمود ترغيبا فى أمثاله وتحريضا للناس على الاقتداء به فى أشباهه فليس بِمَدَّاحٍ ، وإن كان قد صار مادحا بما تكلم به من جميل القول .

فضـول النظـر*

فضول النظر هو إطلاقه بالنظر إلى الشيء بملء العين ، والنظر إلى ما لا يحل له ، وهو على العكس من غض البصر ، والغض هو النقص ، وقد أمر اللّه عز وجل به فقال : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ** ﴾ [النور : ٣٠] .

واللّه عز وجل لا يأمر بصرف كل النظر وإنما يأمر بصرف بعضه قال تعالى : ﴿ **مِنْ أَبْصَارِهِمْ** ﴾ ولما كان تحريم فضول النظر من تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم تعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة ، ولم يأمر اللّه سبحانه بغضه مطلقا بل أمر بالغض منه ، وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال لا يباح إلا بحقه فلذلك أمر بحفظه .

وقد أمر اللّه عز وجل بغض البصر وصيانة الفرج وقرن بينهما فى معرض الأمر ، وبدأ بالأمر بالغض لأن العين رائد للقلب كما قيل :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العَيْنَ لِلْقَلْبِ رَائِدٌ   فَمَا تألَفُ العينانِ فَالقَلْبُ آلِفٌ

ولأن غض البصر وسيلة إلى حفظ الفرج وصيانته ، وهو الباب الأكبر إلى القلب ، وأعمر طرق الحواس إليه وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته ووجب التحذير منه .

(*) الجواب الكافى – إغاثة اللهفان .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « **كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة ، العينان زناها النظر ، والأذنان ذناها الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه** »[١] .

وعن جرير رضى اللّه عنه قال : سألت رسول اللّه ﷺ عن نظر الفجأة فقال : « **اصرف بصرك** »[٢] .

آفات فضول النظر :

الآفة الأولى : فضول النظر معصية ومخالفة لأمر اللّه عز وجل وليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه تبارك وتعالى وما سعد من سعد إلا بامتثال أوامره ، وما شقى من شقى إلا بتضييع أوامره .

الآفة الثانية : أنه يفرق القلب ويشتته ويبعده من اللّه وليس على العبد شيء أضر منه فإنه يوقع الوحشة بين العبد وربه ، وغض البصر يورث القلب أنسا باللّه عز وجل وجمعية عليه .

الآفة الثالثة : أنه يضعف القلب ويحزنه وغض البصر يقوى القلب ويفرحه .

---

(١) رواه البخارى (٢٦/١١) الاستئذان ، مسلم (٢٠٥/١٦ ، ٢٠٦) القدر ، وأبو داود (٢١٣٩) النكاح ، وأحمد (٢٧٦/٢) .

(٢) رواه مسلم (١٣٩/١٤) الأدب ، والترمذى (٢٢٩/١٠) الأدب ، والدارمى (٢٧٨/٢) الاستئذان ، وأحمد (٣٥٨/٤ ، ٣٦١) .

قال النووى : ومعنى نظر الفجأة أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد فلا إثم عليه فى أول ذلك ويجب عليه أن يصرف بصره فى الحال فإن صرف فى الحال فلا إثم عليه وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث فإن رسول اللّه ﷺ أمره بصرف بصره مع قوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ...** ﴾ شرح النووى على صحيح مسلم (١٣٩/١٤) .

الآفة الرابعة : أنه يكسب القلب ظلمة وإذا أظلم القلب أقبلت عليه سحائب البلاء والشر من كل مكان ، فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى واجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة ، فإن ذلك إنما يكشفه النور الذى فى القلب فإذا فقد ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام ، وغض البصر لله عز وجل يكسب القلب نورا وإشراقا يظهر فى العين وفى الوجه وفى الجوارح ولهذا ذكر الله عز وجل آية النور عقب الأمر بغض البصر فقال تعالى : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ﴾ [النور : ٣٠] ثم قال أثر ذلك : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ** ﴾ [النور : ٣٥] أى مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه ، وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب .

الآفة الخامسة : فضول النظر يقسى القلب ويسد على العبد باب العلم ، وغض البصر يفتح للعبد باب العلم ويسهل عليه أسبابه وذلك بسبب نور القلب ، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق الأشياء .

الآفة السادسة : أنه يسمح بدخول الشيطان إلى القلب فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهواء فى المكان الخالى فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ، ثم يمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة ويلقى عليه حطب المعاصى التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة ، فيصير القلب فى اللهب قد أحاطت به النيران من كل جانب ، فهو وسطها كالشاة وسط التنور ، ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أنه جعل لهم فى البرزخ تنورا من نار ، وأودعت أرواحهم فيه إلى حشر أجسادهم ، وغض البصر يسد على الشيطان مدخله إلى القلب .

الآفة السابعة : إن اطلاق البصر يوقع العبد فى الغفلة اتباع الهوى ، قال الله تعالى : ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ [الكهف : ٢٨] وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه ، وغضه لله عز وجل يفرغ القلب للتفكر فى مصالحه والاشتغال بها .

الآفة الثامنة : إن النظرة تفعل فى القلب ما يفعل السهم فى الرمية ، فإن لم تقتله جرحته ، وهى الشرارة من النار ترمى فى الحشيش اليابس فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل .

كُلُّ الحَوادِثِ مَبْدَاها مِنَ النَّظَرِ	وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ
كَمْ نَظْرَةٍ فَعَلت فِى قَلْبِ صَاحِبَها	فِعْلَ السِّهَامِ بِلَا قَوْسٍ وَلَا وترِ
والَمرءُ مَادَامَ ذَاعَينٍ يُقَلِّبُهَا	فِى أعينِ النَّاسِ مَوقُوفٌ عَلَى خَطَرِ
يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَاضَرَّ مُهْجَتَهُ	لَا مَرْحَبًا بَسُرُورٍ عَادَ بالضررِ

والناظر يرمى بسهام غرضها قلبه وهو لا يشعر ، إنما يرمى قلبه .

يَا راميًا بِسِهَامِ اللَّحْظِ مُجْتَهِدًا	أنتَ القتيلُ بَمَا تَرْمِى فَلَا تُصِبِ
وَبَاعِثُ الطَّرفِ يَرتادُ الشفاءَ له	طَوِّقْهُ إنهُ يأتيكَ بالعطبِ —

الآفة التاسعة : فضول النظر وإطلاق البصر يورث الحسرات والزفرات والحرقات فيرى العبد ما ليس قادرا عليه ولا صابرا عنه كما يقول القائل :

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَكَ رائدًا	لقلبِكَ يومًا اتعبتكَ المناظرُ
رايتَ الذى لا كلُّه أنت قادرٌ	عليهِ ولا عن بعضِهِ أنتَ صابرُ

الآفة العاشرة : أن النظرة تجرح القلب جرحا فيتبعها جرح على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة من استدعاء تكرارها ، كما يقول القائل :

ملزلتَ تُتْبِعُ نظرةً فى نظرةٍ	فى إثْرِ كل مليحةٍ ومليحِ
وتظنُّ ذاكَ دواءَ جرحِكَ وَهُوَ فى	التحقيقِ تجريحٌ علَى تجريحِ

فذبحتَ طرفَكَ باللحاظ وبالبكا　　فالقلبُ منكَ ذبيحُ أيُّ ذبيحِ

الآفة الحادية عشرة : إطلاق البصر يذهب نور البصيرة والجزاء من جنس العمل ، وغض البصر يسبب إطلاق نور البصيرة ويورث العبد الفراسة كما قال شاه بن شجاع الكرمانى : « من عَمَّرَ ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات ، واعتاد الحلال لم تخطىء فراسته » . وكان شاه هذا لا تخطىء له فراسة .

الآفة الثانية عشرة : فضول النظر يوقع القلب فى ذل اتباع الهوى وضعف القلب ومهانة النفس وحقارتها ، وما جعله اللّه لمن آثر هواه على رضاه ، وقد جعل اللّه سبحانه العز قرين طاعته والذل قرين معصيته فقال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ العزةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** ﴾ [فاطر : ١٠] أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة اللّه وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح ، فمن أطاع اللّه فقد والاه وله من العزة بحسب طاعته ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه وله من الذل بحسب معصيته .

الآفة الثالثة عشرة : فضول النظر يوقع القلب فى أسر الشهوة ، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه فهو كما قيل : (طليقٌ برأى العين وهو أسير) .

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه سوءَ العذاب وصار :

كعصفورةٍ فى كفِّ طفلٍ يسومُهَا حيا　　ضَ الرَّدَى والطفلُ يَلْهُو وَيَلْعَبُ

الآفة الرابعة عشرة : فضول النظر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ويوقع فى سكرة العشق كما قال تعالى عن عشاق الصور : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل والعمه الذى هو فساد نور البصيرة ، فالنظرة كأس من خمر العشق هو سكر ذلك الخمر ، وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو فى عسكر الأموات نادما بين الخاسرين .

فضول المخالطة*

فضول المخالطة هو الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة ، وكم زرعت من عدواة ، وكم غرست فى القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهى فى القلوب لا تزول ، ففى فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة ، وماتوثره كثرة المخالطة امتلاء القلب من دخان أنفاس بنى آدم حتى يسود ، ويوجب له تشتتا وتفرقا وهَمّـًا وغَمّـًا وضعفا وحملا لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء وإضاعة مصالحه والاشتغال عنها بهم وبأمورهم وتقسم فكره فى أودية مطالبهم وإراداتهم فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة ، هذا وكم أنزلت خلطة الناس من محنة ، وعطلت من منحه ، وأحلت من رزية ، وأوقعت من بلية ؟ وهل آفة الناس إلا الناس ، وهل كان على عم النبى ﷺ أبى طالب عند وفاته أضر من قرناء السوء ؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد .

وهذه الخلطة التى تكون على نوع مودة فى الدنيا وقضاء وطر بعضهم من بعض تنقلب إذا حقت الحقائق عداوة ، ويعض المخلط على يديه ندما كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان : ٢٧ ، ٢٩] وقال تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] وقال خليله إبراهيم لقومه : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(*) انظر تفسير المعوذتين لابن القيم – وإحياء علوم الدين للغزالى – وتلبيس إبليس لابن الجوزى .

ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٥] وهذا شأن كل مشتركين فى غرض يتوادون عليه ماداموا متساعدين على حصوله ، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنا وألما وانقلبت تلك المودة بغضا ولعنة وذما من بعضهم لبعض لما انقلب ذلك الغرض حزنا ، كما نشاهد فى هذه الدار من أحوال المشتركين فى جريمة إذا أخذوا وعوقبوا ، فكل متساعدين على باطل متوادين عليه لابد أن تنقلب مودتهما بغضا وعداوة ، والضابط النافع فى أمر الخلطة أن يخالط الناس فى الخير كالجمعة والجماعة والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة ، ويعتزلهم فى الشر وفضول المباحات ، فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى الشر ولم يتمكن من اعتزالهم فالحذرَ الحذرَ أن يوافقهم ، وليصبر على أذاهم فإنهم لابد أن يؤذه إن لم يكن له قوة ولا ناصر ، ولكن أذى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين ، وموافقتهم يعقبها بغض له ومقت وذم منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين .

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وأحمد مآلا ، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله إن أمكنه ، ويشجع نفسه ويقوى قلبه ولا يلتفت إلى الوارد الشيطانى القاطع له عن ذلك بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك ونحو ذلك ، فيستعن بالله ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه ، فإن أعجزته المقادير عن ذلك فليسلَّ قلبه من بينهم كسلِّ الشعرة من العجين ، وليكن فيهم حاضرا غائبا ، قريبا بعيدا ، نائما يقظانا ، ينظر إليهم ولا يبصرهم يسمع كلامهم ولا يعيه ، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ورق به إلى الملأ الأعلى يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية ، وما أصعب هذا وأشقه على النفوس وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، فبين العبد وبينه أن يصدق الله تبارك وتعالى ويديم اللجأ إليه ويلقى نفسه على بابه طريحا ذليلا ، ويعين على هذا محبة صادقة وذكر دائم بالقلب واللسان وتجنب المفسدات ، وينبغى له أن يأخذ من

المخالطة بمقدار الحاجة ، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينها دخل عليه الشر .

أحدهما : مَنْ مخالطتُه كالغذاء لا يستغنى عنه فى اليوم والليلة فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام ، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولخلقه ، فهذا الضرب فى مخالطتهم الربح كل الربح .

القسم الثانى : مَنْ مخالطتُه كالدواء يحتاج إليه عند المرض فمادمت صحيحا فلا حاجة لك فى خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش وقيام ماأنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها ، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث .

القسم الثالث : وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه ، فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن وهو من لا تربح عليه فى دين ولا دنيا ومع ذلك فلابد أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إن تمكنت منك مخالطته واتصلت فهى مرض الموت المخوف ، ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك فإذا فارقك سكن الألم ، ومنهم من مخاطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذى لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها فى منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به ، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التى لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض ، وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضيه ولازمة ، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته ، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك « لغة فى الهلاك » فمخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله إليه العزاء ، وما أكثر هذا الضرب من الناس لاكثَّرهَم الله ، وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة الرسول ﷺ الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكرا والمنكر معروفا .

إن جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين ، وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين ، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا : أنت من المشبهين ، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نها الله عنه ورسوله من المنكر قالوا أنت من المفتتين ، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين .

فهذا الضرب لا ينبغى للعاقل أن يجالسهم ، وإن فعل فإما الموت لقلبه أو المرض نسأل الله لنا ولهم العافية .

الآثار : عن عبد الرازق عن معمر قال : كان طاووس جالسا وعنده ابنه فجاء رجل من المعتزلة فتكلم فى شىء فأدخل طاووس أصبعيه فى أذنيه وقال : يابنى أدخل أصبعيك فى أذنيك حتى لا تسمع من قوله شيئا فإن القلب ضعيف ، ثم قال : أى بنى اسدد فمازال يقول : أسدد حتى قام الآخر .

وعن صالح المزى قال : دخل رجل على ابن سيرين وأنا شاهد ففتح بابا من أبواب القدر فتكلم فيه ، فقال ابن سيرين : إما أن تقوم وإما أن نقوم .

فضول الطعام*

اعلم أنه من أعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن فبها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار ؛ إذ نهيا عن الشجرة فغلبتهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات ، إذ يتبعها شهوة الفرج ثم تتبع شهوة الطعام والنكاح شدة الرغبة فى الجاه والمال اللذَانِ هما وسيلة إلى التوسع فى المطعومات ، ثم يتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات ، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد منها من بطر الشبع والامتلاء ، ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق مجارى الشيطان لأذعنت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ، عن المقدام بن معد يكرب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه »**[1] .

وهذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها وقد روى أن ابن أبى ماسويه الطبيب لما قرأ هذا الحديث فى كتاب أبى خيثمة قال : لو استعمل الناس هذه الكلمات لسلموا من الأمراض والأسقام ولتعطلت المارشايات ودكاكين الصيادلة ، وإنما قال هذا لأن أصل كل داء التخم ، فهذا من منافع قلة الغذاء وترك التملوء من الطعام بالنسبة إلى صلاح البدن وصحته ، وأما منافعه بالنسبة إلى القلب وصلاحه فإن قلة الغذاء توجب رقة القلب وقوة الفهم وانكسار النفس وضعف الهوى والغضب ، وكثرة الغذاء توجب ضد ذلك ، وقد ندب النبى ﷺ إلى

(*) انظر إحياء علوم الدين – وتفسير المعوذتين لابن القيم – وجامع العلوم والحكم لابن رجب .

(1) رواه الترمذى (٩/٢٢٤) الزهد . وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجة (٣٣٤٩) الأطعمة ، والحاكم (٤/١٢١) وصححه ووافقه الذهبى والألبانى .

التقلل من الأكل فى حديث المقدام وقال : « **حسب ابن آدم لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَه** »[1] وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « **المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء** »[2] والمراد أن المؤمن يأكل بآداب الشرع فيأكل فى معى واحد والكافر يأكل بمقتضى الشهوة والشره ، والنهم فيأكل فى سبعة أمعاء ، وندب ﷺ مع التقلل من الأكل والاكتفاء ببعض الطعام إلى الإيثار بالباقى منه فقال : « **طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الأثنين يكفى الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفى الأربعة** »[3] فأحسن ما أكل المؤمن فى ثلث بطنه وشرب فى ثلث وترك للنفس ثلثا كما ذكره النبى ﷺ : قال بعض السلف : كان شباب يتعبدون فى بنى إسرائيل فإذا كان فطرهم قام عليهم قائم فقال : لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فتخسروا كثيرا . وقد كان النبى ﷺ وأصحابه يجوعون كثيرا ، وإن كان ذلك لعدم وجود الطعام إلا أن الله لا يختار لرسوله إلا أكمل الأحوال وأفضلها ، ولهذا كان ابن عمر يتشبه به فى ذلك مع قدرته على الطعام وكذلك أبوه من قبله .

وعن عائشة قالت : « ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من خبز بر ثلاث ليال تباعا حتى قبض »[4] .

قال إبراهيم بن أدهم : من ضبط بطنه ضبط دينه ، ومن ملك جوعه ملك الأخلاق الصالحة ، وإن معصية الله بعيده من الجائع قريبة من الشبعان . ومن أكبر فوائد الجوع كسر شهوات المعاصى كلها ، والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء ، فإن منشأ المعاصى كلها الشهوات والقوى ، ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة ، وإنما السعادة كلها فى أن يملك

---

(١) السابق .

(٢) رواه مسلم (٢٥/١٤) الأشربة عن أبى موسى الأشعرى ورواه البخارى ومسلم عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم .

(٣) رواه البخارى (٩/٤٦٧) الأطعمة ، ومالك (٢٠/٩٢٨/٢) صفة النبى .

(٤) رواه مسلم (٢٣/١٤) الأشربة ، أحمد (٢٤٤/٢) .

الرجل نفسه والشقاوة فى أن تملكه نفسه ، وكما أنك لا تملك الدابة الجموع إلا بضعف الجوع ، فإذا شبعت قويت وشردت وجمحت فكذلك النفس .

ويروى عن لقمان أنه قال لابنه : يا بنى إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

ومن فوائد الجوع كذلك أنه يورث الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذى هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى ، فلا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع ، فعنده تسكن لربها وتخشع له وتقف على عجزها وذلها ، إذا ضاقت حيلتها بلقيمة طعام فاتتها ، وأظلمت عليها الدنيا لشربة ماء تأخرت عنها .

وما لم يشاهد الإنسان ذل نفسه وعجزه لا يرى عزة مولاه ولا قهره ، وإنما سعادته فى أن يكون دائما مشاهدا نفسه بعين الذل والعجز ، ومولاه بعين العز والقدرة والقهر ، فليكن دائما جائعا مضطرا إلى مولاه .

وعلى الجملة لا سبيل إلى إهمال النفس فى الشهوات المباحة واتباعها بكل حال ، فبقدر ما يستوفى العبد من شهوته يخشى أن يقال له يوم القيامة أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، وبقدر ما يجاهد نفسه ويترك شهوته يتمتع فى الدار الآخرة .

فضـول النـوم(*)

فضول النوم وكثرته تميت القلب وتثقل البدن وتضيع الوقت وتورث كثرة الغفلة والكسل ، ومنه المكروه جدا ، ومنه الضار غير النافع للبدن ، وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه ، ونوم أول الليل أنفع من آخره ، ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه ، وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه وكثر ضرره ولا سيما نوم العصر والنوم أول النهار إلا لسهران ، ومن المكروه النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس ، فإنه وقت غنيمة وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة حتى لو ساروا طول ليلتهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس ، فإنه أول النهار ومفتاحه ووقت نزول الأرزاق وحصول القسمة وحلول البركة ومنه ينشأ النهار وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة فينبغي أن يكون نومها كنوم المضطر .

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير وهو مقدار ثمان ساعات ، وهذا أعدل النوم عند الأطباء وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم فى الطبيعة انحرافا جسيما .

ومن النوم الذى لا ينفع أيضا : النوم أول الليل عقب غروب الشمس ، وكان رسول الله ﷺ يكرهه فهو مكروه شرعا وطبع .

وفى كثرة النوم ضياع العمر ، وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب ، والعمر أنفس الجواهر وهو رأس مال العبد فيه يتجر والنوم موت فتكثيره ينقص

(*) انظر مدارج السالكين لابن القيم

العمر ، ثم فضيلة التهجد لا تخفى ، وفى النوم فواتها ، ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة .

وكما أن كثرة النوم مورثة لهذه الآفات فمدافعته وهجره مورث لآفات أخرى عظام من سوء المزاج ويبسه وانحراف النفس وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل ، ويورث أمراضا مختلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا ببدنه معها ، وما قام الوجود إلا بالعدل ، فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير والله المستعان .

٨ – أسباب حياة القلب
وأغذيته النافعة

اعلم أن الطاعات لازمة لحياة القلب لزوم الطعام والشراب لحياة الجسد ، والمعاصى بمثابة الأطعمة المسمومة التى تفسد القلب ولابد ، وكما يأخذ العبد بالأسباب لحياة جسده من المداومة على تناول الأغذية النافعة فى أوقات متقاربة وإذا تبين له أنه تناول طعاما مسموما عن طريق الخطأ أسرع فى تخليص جسده من الأخلاط الرديئة والسموم الضارة ؛ فحياة قلب العبد أولى بالاهتمام من حياة الجسد ، فإذا كانت حياة الجسد تؤهله لمعيشة غير منغصة بالمرض فى الدنيا فحياة القلب تؤهله لمعيشة طيبة طاهرة فى الدنيا وسعادة غير متناهية فى الآخرة ، كذلك موت الجسد يقطع العبد عن الدنيا وموت القلب يقطع عن الدنيا والآخرة وتبقى آلامه أبد الآباد . قال بعض الصالحين : يا عجبا من الناس يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد . فإذن الطاعات كلها لازمة لحياة القلب ونخص بتفصيل الذكر هنا إن شاء الله تعالى خمسة لضرورتها لقلب العبد وشدة الحاجة إليها وهى ، **ذكر الله عز وجل وتلاوة القرآن ، والاستغفار ، والدعاء ، والصلاة على النبى ﷺ ، وقيام الليل .**

ذكر الله عز وجل
وتلاوة القرآن*

الذكر هو المنزلة الكبرى التى منها يتزود العارفون ، وفيها يتجرون وإليها دائما يترددون ، وهو منشور الولاية الذى من أعطيه اتصل ومن منعه عزل ، وهو قوت قلوب العارفين التى متى فارقتها صارت الأجساد لها قبورا ، وعمارة ديارهم التى إذا تعطلت عنه صارت بورا ، وهو سلاحهم الذى يقاتلون به قطاع الطريق ، وماؤهم الذى يطفئون به التهاب الطريق ودواء أسقامهم الذى متى فارقهم انتكست منهم القلوب ، والسبب الواصل والعلاقة التى كانت بينهم وبين علام الغيوب .

به يستدفعون الآفات ويستكشفون الكربات وتهون عليهم به المصيبات ، إذا أظلَّهم البلاء فإليه ملجؤهم ، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم ، فهو رياض جنتهم التى فيها يتقلبون ، ورؤوس أموال سعادتهم التى بها يتجرون ، يدع القلب الحزين ضاحكا مسرورا ، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورا ، وفى كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة (والذكر) عبودية القلب واللسان وهى غير مؤقتة ، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم فى كل حال قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها ، فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها .

وهو جلاء القلوب وصقالتها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها ، وكلما ازداد الذاكر فى ذكره استغراقا ازداد محبة إلى لقائه للمذكور واشتياقا ، وإذا واطأ فى

(*) انظر مدارج السالكين لابن القيم والوابل الصيب له كذلك والتبيان فى آداب حملة القرآن للنووى .

ذكره قلبه للسانه نسى فى جنب ذكره كل شيء ، وحفظ الله عليه كل شيء ، وكان له عوضا من كل شيء ، به يزول الوقر عن الأسماع والبكم عن الألسنة وتتقشع الظلمة عن الأبصار .

زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين ، فاللسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصماء واليد الشلاء .

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته قال الحسن البصرى :

تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء : فى الصلاة وفى الذكر وقراءة القرآن ، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق .

فوائد الذكـر :

قد ذكر الامام ابن القيم رحمه الله فى كتابه القيم (الوابل الصيب) للذكر أكثر من سبعين فائدة .

- منها أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره ، ويرضى الرحمن عز وجل ، ويزيل الهم والغم والحزن ، ويجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .
- ومنها : أنه يقوى القلب والبدن ، وينور الوجه والقلب ويجلب الرزق .
- ومنها : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة ، ويورثه المحبة التى هى روح الإسلام وقطب رحى الدين ومدار السعادة والنجاة .
- ومنها : أنه يورث المراقبة حتى يدخل العبد فى باب الإحسان فيعبد الله كأنه يراه ، ويورثه الإنابة والقرب ، فعلى قدر ذكر العبد لربه يكون قربه منه ، وعلى قدر غفلته يكون بعده عنه .

● ومنها : أنه يورث ذكر الله عز وجل قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] وفى الحديث القدسى : « **فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم** »[١] .

● ومنها : أنه يورث حياة القلب كما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : الذكر للقلب كالماء للسمك فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء .

● ومنها : أنه يورث جلاء القلب من صداه ، وكل شيء له صدأ ، وصدأ القلب الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار .

● ومنها : أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات والحسنات يذهبن السيئات .

قال ﷺ : « **من قال فى يوم وليلة سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر** »[٢] .

● ومنها أنه سبب لنزول الرحمة والسكينة كما قال ﷺ : « **وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده** »[٣] .

● ومنها : أنه سبب لاشتغال اللسان عن الغيبة والنميمة والكذب والفحش والباطل ، فمن عَوَّدَ لسانه ذكر الله صانه عن الباطل واللغو ، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ترطب بكل باطل ولغو وفحش ولا حول ولا قوة إلا بالله .

---

(١) رواه البخارى (٣٨٤/١٣) التوحيد ، ومسلم (٢/١٧ ، ٣) والذكر والدعاء ، والترمذى (٩١/١٣) الدعوات .

(٢) رواه البخارى (٢٠٦/١١) الدعوات ، ومسلم (١٧/١٧) الذكر ومالك فى الموطأ (٢٠٩/١) القرآن ، والترمذى (١٦/١٣) الدعوات .

(٣) رواه مسلم (٢١/١٧ ، ٢٢) الذكر والدعاء ، وأبو داود (٢٢٩/١٣ ، ٢٣٠) ، والترمذى (١٩٧/٦) الحدود مختصرا .

● ومنها : أنه غراس الجنة كما فى حديث جابر عن النبى ﷺ قال : « **من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة**[1] .

● ومنها : أن العطاء والفضل الذى ترتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه** »[2] .

● ومنها : أن دوام ذكر الرب تعالى يوجب الأمان من نسيانه الذى هو سبب شقاء العبد فى معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [الحشر : ١٩] .

وإذا نسى العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت ، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره فإنه يفسد ولابد .

● ومنها : أن الذكر شفاء لقسوة القلوب قال رجل للحسن : يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبى . قال أَذِبْهُ بالذكر ، وقال مكحول : ذكر الله شفاء وذكر الناس داء .

● ومنها : أن الذكر يوجب صلاة الله تعالى وملائكته على الذاكر ، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح وفاز كل الفوز قال الله تعالى :

---

(١) تقدم تخريجه ص (٥٨) .

(٢) رواه البخارى (٣٣٨/٦ ، ٣٣٩) بدء الخلق ، ومسلم (١٧/١٧) الذكر ، والترمذى (١٣ ، ١٦ ، ١٧) الدعاء .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤١ - ٤٣] .

● ومنها : أن اللّه عز جل يباهي بالذاكرين ملائكته كما فى حديث أبى سعيد الخدرى قال : خرج معاوية على حلقة فى المسجد فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر اللّه تعالى قال : آللّه ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : واللّه ما أجلسنا إلا ذاك . قال : أما إنى لم استحلفكم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلتى من رسول اللّه ﷺ أقلَّ عنه حديثا منى وإن رسول اللّه ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال : « **ما أجلسكم : قالوا جلسنا نذكر اللّه تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام من علينا بك . قال آللّه ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : آللّه ما أجلسنا إلا ذاك : قال أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ولكن أتانى جبريل فأخبرنى أن اللّه تبارك وتعالى يباهى بكم الملائكة** »[1] .

ومنها : أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر اللّه عز وجل قال تعالى : **﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى ﴾** [طه : ١٤] أى لاقامة ذكرى وقال شيخ الإسلام فى قوله تعالى : **﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾** [العنكبوت : ٤٥] الصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر ، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولما فيها من ذكر اللّه أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر .

● ومنها : أن إدامته تنوب عن الطاعات وتقوم مقامها حيث لا تنوب جميع التطوعات عن ذكر اللّه عز وجل ، وقد جاء ذلك صريحا فى حديث أبى هريرة : « **أن فقراء المهاجرين أتوا رسول اللّه ﷺ فقالوا : يا رسول اللّه ذهب أهل**

---

(١) رواه مسلم (٢٢/١٧ ، ٢٣) الذكر .

الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل أموالهم يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ، فقال ألا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا أحد يكون أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم قالوا : بلى يا رسول اللّه قال : تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة »(1) .

وعن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه قال : لأن أسبح اللّه تعالى تسبيحات أحب إلى من أن أنفق عددهن دنانير فى سبيل اللّه عز وجل .

● ومنها : أن الذكر يعطى الذاكرة قوة فى قلبه وفى بدنه حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه ، وقد علم النبى ﷺ إبنته فاطمة وعليا رضى اللّه تعالى عنهما أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثا وثلاثين ويحمدا ثلاثا وثلاثين ويكبرا أربعا وثلاثين لما سألته الخادم وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعى والخدمة فعلمها ذلك وقال : « **إنَّهُ خير لكما من خادم** »(2) فقيل إن من دوام على ذلك وجد قوة فى يومه تغنيه عن خادم .

● ومنها : أن كثرة الذكر أمان من النفاق فإن المنافقين قليلوا الذكر للّه عز وجل قال اللّه عز وجل فى المنافقين : ﴿ **وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴾ [النساء : ١٤٢] .

قال كعب : من أكثر ذكر اللّه عز وجل برىء من النفاق ولهذا واللّه أعلم ختم اللّه تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون** ﴾ [المنافقون : ٩] .

---

(١) رواه البخارى (١٣٢/١١ ، ١٣٣) الدعوات .

(٢) رواه البخارى (١١٩/١١) الدعوات ، ومسلم (٤٥/١٧) الدعوات والترمذى (٢٩٣/١٢ ، ٢٩٤) أبواب الدعاء .

- ومنها : أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شيء فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر والنعيم الذى يحصل لقلبه لكفى به ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة .

قال مالك بن دينار : ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر اللّه عز وجل.. .

- ومنها : أن دوام الذكر تكثير لشهود العبد يوم القيامة .

- ومنها : أن الذكر أفضل من الدعاء : الذكر ثناء على اللّه عز وجل ، والدعاء سؤال العبد حاجته ، فأين هذا من هذا ، والذكر كذلك يجعل الدعاء مستجابا ، فالدعاءالذى تقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد .

أنواع الذكـر :

الأول : ذكر أسماء اللّه عز وجل وصفاته ومدحه والثناء عليه بها نحو : « سبحان اللّه » و « الحمد اللّه » و « لا إله إلا اللّه » .

الثانى : الخبر عن اللّه عز وجل بأحكام أسمائه وصفاته نحو : اللّه عز وجل يسمع أصوات عبادة ويرى حركاتهم .

الثالث : ذكر الأمر والنهى كأن تقول : إن اللّه عز وجل أمر بكذا ونهى عن كذا .

الرابع ذكر آلائه وإحسانه .

والذكر يكون بالقلب أو باللسان وأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان ، وذكر القلب أفضل من ذكر اللسان .

فضل تلاوة القرآن وحملته :

أفضل الذكر تلاوة القرآن وذلك لتضمنه لأدوية القلب كما قال الله عز وجل : ﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الإسراء : ٨٢] وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ** ﴾ [يونس : ٥٧] .

وقد ورد من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة ما يُبين فضل هذه العبادة وفضل أهلها ، قال الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ [فاطر : ٢٩] .

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[١] وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران** »[٢] .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **إن الله يرفع بهذا الكلام أقواما ويضع به آخرين** »[٣] وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **اقرؤا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه** »[٤] .

---

(١) رواه البخارى (٩/٦٦ ، ٦٧ ب) فضائل القرآن ، والترمذى (١١/٣٢) ثواب القرآن ، وأبو داود (١٤٣٩) الصلاة .

(٢) رواه البخارى (٨/٦٩١) التفسير ، ومسلم (٦/٨٤) صلاة المسافرين . وأبو داود (١٤٤١) الصلاة ، والترمذى (١٢/٢٩) فضائل القرآن .

(٣) رواه مسلم (٦/٩٨) صلاة المسافرين .

(٤) رواه مسلم (٦/٩٠) صلاة المسافرين وبقية الحديث « اقرؤا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران .. » إلخ .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قرأ حرفا من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف لكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف** »[1] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **يقال لصاحب القرآن أقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها** »[2] .

الآثار :

قال خباب رضى الله عنه : تقرب إلى الله ما استطعت فإنك لن تتقرب إليه بشىء أحب إليه من كلامه .

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : لو طَهُرَتْ قلوبكم ما شبعت من كلام ربكم .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من كان يحب أن يعلم أنه يحب الله فليعرض نفسه على القرآن ، فإن أحب القرآن فهو يحب الله ، فإنما القرآن كلام الله .

---

(١) رواه الترمذى (٣٤/١١) فضائل القرآن وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وصححه الألبانى .

(٢) رواه الترمذى (٣٦/١٢) فضائل القرآن ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأبو داود (١٤٥١) الصلاة ، وأحمد (١٩٢/٢) وصححه الألبانى .

الاستغفار*

الاستغفار هو طلب المغفرة ، والمغفرة هى وقاية شر الذنوب مع سترها . أى أن اللّه عز وجل يستر على العبد فلا يفضحه فى الدنيا ويستر عليه فى الآخرة فلا يفضحه فى عرصاتها ويمحو عنه عقوبة ذنوبه بفضله ورحمته .

وقد كثر ذكر الاستغفار فى القرآن ، فتارة يؤمر به كقوله تعالى : ﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المزمل : ٢٠] وتارة يمدح أهله كقوله تعالى : ﴿ **وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ** ﴾ [آل عمران : ١٧] وتارة يذكر اللّه عز وجل أنه يغفر لمن استغفره كقوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء : ١١] وكثيرا ما يقرن الاستغفار بذكر التوبة فيكون الاستغفار حينئذ عبارة عن طَلب المغفرة باللسان والتوبة عبارة عن الإقلاع عن الذنوب بالقلب والجوارح ، وحكم الاستغفار كحكم الدعاء ، إن شاء اللّه أجابه وغفر لصاحبه لا سيما إذا خرج من قلب منكسر بالذنوب أو صادف ساعة من ساعات الإجابة كالأسحار وأدبار الصلوات ، وأفضل الاستغفار أن يبدأ بالثناء على ربه ثم يثنى بالاعتراف بذنبه ثم يسأل ربه بعد ذلك المغفرة كما فى حديث شداد بن أوس عن النبى ﷺ قال : « **سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى ، وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عَلَىَّ وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت** »[1]

(*) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب وإحياء علوم الدين .

(١) رواه البخارى (١١/٩٧ ، ٩٨) الدعوات ، والترمذى (١٢/٢٨٠ ، ٢٨١) التفسير والنسائى(٨/٢٧٩ / الاستعاذة .

وقوله : « **أبوء لك بنعمتك على** » أى أعترف لك و « **أبوء بذنبى** » أى اعترف وأقر بذنبى ، وفى حديث عبد اللّه بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول اللّه علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى قال : قل : « **اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم** »[١] ومن أفضل الاستغفار أن يقول العبد : « أستغفر اللّه العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه » وقد ورد عن النبى ﷺ أن من قاله : « **غفر له وإن كان فر من الزحف** »[٢] .

وعن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال : إن كنا لنعد لرسول اللّه ﷺ فى المجلس الواحد مائة مرة يقول : « **رب أغفر لى وتب على إنك أنت التواب الغفور** »[٣] وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **واللّه إنى لأستغفر اللّه وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة** »[٤] .

وعن النبى ﷺ قال : « **إنه لَيُغَانُ على قلبى وإنى لأستغفر اللّه فى اليوم مائة مرة** »[٥] وقد ورد فى حديث أنس أهم الاسباب التى يغفر اللّه عز وجل بها الذنوب فقال ﷺ قال اللّه تعالى : « **يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم**

---

(١) رواه مسلم (١٧/٢٧ ، ٢٨) الذكر ، والترمذى (١٣/٥٣) الدعاء .

(٢) رواه الترمذى (٣٥٧٢) الدعاء ، وأبو داود (١٥٠٣) الصلاة وقال المنذرى فى الترغيب : إسناده جيد متصل وفى سنده بلال بن يسار لم يوثقه إلا ابن حبان وله شاهد رواه الحاكم (١/٥١١) الدعاء وصححه ووافقه الذهبى .

(٣) رواه أحمد (٤٧٢٦) ، وأبو داود (١٥٠٠) الصلاة ، وابن ماجة (٣٨١٥) الأدب وصححه الألبانى .

(٤) رواه البخارى (١١/١٠١) الدعوات ، ومسلم (١٧/٢٤) بلفظ « **فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة** » .

(٥) رواه مسلم (١٧/٢٣) الذكر ، وأبو داود (١٥٠١) الصلاة قوله : « **ليغان** » : أى ليغطى ويغشى والمراد به السهو .

استغفرتنى غفرت لك ، يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة »[1] .

وقد تضمن هذا الحديث ثلاثة أسباب من أعظم أسباب المغفرة :

أحدها : الدعاء مع الرجاء فإن الدعاء مأمور به موعود عليه بالإجابة كما قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر : ٦٠] فالدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطه وانتفاء موانعه ، وقد تتخلف الإجابة لانتفاء بعض شروطه أو وجود بعض موانعه ، ومن أعظم شرائطه حضور القلب ورجاء الإجابة من اللّه تعالى ، فمن أعظم أسباب المغفرة أن العبد إذا أذنب ذنبا لم يرج مغفرته من غير ربه ، ويعلم أنه لا يغفر الذنوب ويأخذ بها غيره فقوله : « **إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك ما كان منك ولا أبالى** » يعنى على كثرة ذنوبك وخطاياك ، ولا يتعاظمنى ذلك ولا أستكثره وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن اللّه لا يتعاظمه شيء[2] فذنوب العباد وإن عظمت عفو اللّه ومغفرته أعظم منها ، كما قال الإمام الشافعى عند موته :

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَت مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمًا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعظَمَ

الثانى : الاستغفار ؛ فلو عظمت الذنوب وبلغت الكثرة عنان السماء – وهو السحاب، وقيل : ما انتهى إليه البصر منها – ثم استغفر العبد ربه عز وجل فإن اللّه يغفرها له .

---

(١) رواه الترمذى (١٣/٥٩ ، ٦٠) الدعاء وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وأحمد (٥/١٥٤) أو الدارمى (٢/٣٢٢) وشهر بن حوشب مختلف فيه وباقى رجاله ثقات وله شاهد من حديث أبى ذر وحسنه الألبانى فى الصحيحة رقم ١٢٧ .

(٢) رواه مسلم (١٧/٦) الذكر .

روى عن لقمان أنه قال لابنه : يا بنى عود لسانك اللهم اغفر لى فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلا .

وقال الحسن : أكثروا من الاستغفار فى بيوتكم وعلى موائدكم وفى طرقكم وفى أسواقكم وفى مجالسكم وأينما كنتم ، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة .

الثالث : التوحيد وهو السبب الأعظم ومن فقده حُرِمَ المغفرة ومن أتى به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة .

قال اللّه تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ١٦٦] قال ابن القيم رحمه اللّه فى معنى قوله : « **يا ابن آدم لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة** » يُعْفَى لأهل التوحيد المحض الذى لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك ، فلو لقى الموحد الذى لم يشرك باللّه ألبتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده ، فإن التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب لأنه يتضمن من محبة اللّه وإجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض ، فالنجاسة عارضةٌ والدافع لها قوى . ومعنى « **قُراب الأرض** » ملؤها أو ما يقارب ذلك ، ولكن هذا مع مشيئة اللّه عز وجل فإن شاء غفر بفضله ورحمته وإن شاء عذب بعدله وحكمته ، وهو المحمود على كل حال .

قال بعضهم : الموحد لا يلقى فى النار كما يلقى الكفار ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار . فإن كمل توحيد العبد وإخلاصه للّه فيه وقام بشروطه كلها بقلبه ولسانه وجوارحه أو بقلبه ولسانه عند الموت أوجب ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلها ومنعه من دخول النار بالكلية ، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى اللّه محبة وتعظيما وإجلالا ومهابة وخشية ورجاء وتوكلا وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما

قلبتها حسنات فإن هذا التوحيد هو الإكسير الأعظم ، فلو وضعت ذرة منه على جبال الذنوب والخطايا لقلبتها حسنات ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : كما أن الله عز وجل لا يقبل طاعات المشركين فنرجو أن يغفر الله عز وجل ذنوب الموحدين أو معناه .

الآثار فى فضل الاستغفار :

قالت عائشة رضى الله عنها : طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفارا كثيرا[1] .

وقال على رضى الله عنه : ما ألهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه .

وقال قتادة رحمه الله : إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، فأما داؤكم فالذنوب ، وأما دواؤكم فالاستغفار .

وسمعوا أعرابيا وهو متعلق بأستار الكعبة يقول : اللهم إن إستغفارى مع إصدارى لَلَوْمٌ وإن تركى استغفارَكَ مع علمى بسعة عفوك لعجزٌ فكم تتجبب إلىَّ بالنعم مع غناك ، عنى وكم أتبغض إليك بالمعاصى مع فقرى إليك ، يا من إذا وعد وَفىّ وإذا أوعد عفا ، أدخل عظيم جرمى فى عظيم عفوك يا أرحم الراحمين[2] .

---

(١) رواه ابن ماجة مرفوعا عن عبد الله بن بسر (٣٨١٨) الأدب وصححه الألبانى .

(٢) قوله : « إذا أوعد عفا » مخالف لعقيدة السلف رضى الله عنهم فوعد الله عز وجل ووعيده حق كما قال تعالى : ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ .

الدعـــاء*

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لى ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف :] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِن الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

فسبحان الله العظيم ذى الكرم الفياض والجود المتتابع جعل سؤال عبده لحوائجه وقضاء مآربه عبادة له وطلبه منه وذمه على تركه بأبلغ أنواع الذم فجلعه مستكبرا عليه ، وهدده بأشد ألوان التهديد فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُون عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ وعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : « **الدعاء هو العبادة** » ثم تلا الآية : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] والعبادة هى التذلل والخضوع والدعاء إظهار فقر وحاجة وتذلل من العبد الفقير الضعيف الذى لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلى الله عز وجل القادر على جلب جميع المنافع ودفع جميع المضار، والذى إذا أعطى الأولين والآخرين الإنس والجن جميع مطالبهم

(*) انظر الجواب الكافى لابن القيم - وجامع العلوم والحكم لابن رجب - وإحياء علوم الدين للغزالى - وشرح حديث الولى للشوكانى .

(١) رواه أبو داود (١٤٤٦) الصلاة ، والترمذى (٢٦٧/١٢) التفسير وقال : حسن صحيح ، وابن ماجة (٣٨٢٨) الدعاء والحاكم (٤٩٠/١ ، ٤٩١) وصححه ووافقه الذهبى والألبانى .

وحقق لهم جميع مآربهم لا ينقص ما عنده ، كما قال تعالى : ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ﴾ وقال ﷺ : « **يَدُ الله ملأى لا تُغِيضُهَا نفقة سَحَّاءُ الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما فى يمينه** »[1] أى لم ينقص ما فى يمينه ، والله عز وجل يحب أن يتفضل على عباده بالنعم ، ويحب من العباد أن يعترفوا بفقرهم وذلهم وحاجتهم واضطرارهم إليه عز وجل ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ** ﴾ [الأنعام : ٤٢] فالله عز وجل يبتلى الناس ليظهر فقرهم إليه ؛ ولذا أحب الله عز وجل الدعاء .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « **إنه من لم يسأل الله يغضب عليه** »[2] رأى أحد العلماء رجلا يتردد على أحد الملوك فقال له : يا هذا تذهب إلى من يَسُدُّ دونك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويخفى عنك غناه ، وتترك من يفتح لك بابه ويظهر لك غناه ويقول : ﴿ **ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ .

وفى ذلك قيـل :

لا تَسْأَلَنَّ بُنَىَّ آدَمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِى أَبْوَابُه لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وإذا سَأَلْتَ بُنَىَّ آدَمَ يَغْضَبُ

وقال تعالى : ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ** ﴾ [النمل : ٦٢] والدعاء سبب مقتض للإجابة مع استكمال شرائطة وانتفاء موانعه ، فيقطع بقبوله مع توفر شروطه وانتفاء الموانع ، والأدلة على ذلك من الكتاب ما تقدم من الآيات ، ومن السنة حديث سلمان الفارسى عن رسول الله

---

(١) رواه البخارى (٤٠٣/١٣) التوحيد ، ومسلم (٨٠/٧ ، ٨١) الزكاة والترمذى (١٧٢/١١ ، ١٧٣) التفسير ، وابن ماجة (٧١/١) المقدمة .
(٢) رواه أحمد (٤٤٢/٢) والبخارى فى « الأدب المفرد » (٦٥٨) والترمذى (٢٦٧/١٢ ، ٢٦٨) التفسير ، وابن ماجة (٣٨٢٧) الدعاء ، والحاكم (٤٩١/١) وصححه الألبانى .

ﷺ قال : « **إنَّ اللّه حيىٌّ كريم يستحى إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفرا خائبتين** »[1] ولأنس بن مالك عنه ﷺ قال : « **لا تعجزوا فى الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد** »[2] ، ولأبى سعيد الخُدْرى عن النبى ﷺ قال :

« **مَا من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه اللّه بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها** »[3] .

والدعاء من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يتخلف أثره عنه إما لضعفه فى نفسه - بأن يكون دعاء لا يحبه اللّه لما فيه من العدوان - وإما لضعف القلب وعدم إقباله على اللّه وجمعيته عليه وقت الدعاء فيكون بمنزلة القوس الرخو جدا فإن السهم يخرج منه خروجا ضعيفا ، وإما لحصول المانع من الإجابة : من أكل الحرام ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والشهوة واللهو وغلبتها عليه .

والدعاء من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل ، فله من البلاء ثلاثة مقامات :

أحدها : أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه .

الثانى أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه .

الثالث : أن يتقاوما ويمنع كل واحد منهما صاحبه .

---

(١) رواه الترمذى (١٣/٦٨) الدعاء وقال : حسن غريب ، وأبو داود (١٤٧٤) الصلاة ، وابن حبان (٢٣٩٩ موارد) ، والحاكم (١/٤٩٧) وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) رواه ابن حبان (٢٣٩٨ موارد) الأدعية ، والحاكم (١/٤٩٤) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبى : صحيح .

(٣) رواه الحاكم (١/٤٩٣) وصححه ووافقه الذهبى ورواه الترمذى بمعناه عن أبى الزبير عن جابر (١٢/٢٧٣) .

آداب الدعـــاء

الأول : أن يجزم بالدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه قال ﷺ : **« لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمنى إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره »**[1] .

وقال ﷺ : **« ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه »**[2] .

قال سفيان بن عيينة : لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال : ﴿ **رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [الحجر : ٣٦] .

الثانى : أن يلح فى الدعاء ويكرره ثلاثا قال ابن مسعود رضى الله عنه : **« كان رسول الله إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا »**[3] .

الثالث : لا يعجل ولا يقول دعوت ولم يستجيب لى لحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : **« يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لى »**[4] قال ابن بطال : المعنى أن يسأم فيترك الدعاء فيكون

---

(١) رواه البخارى (١٣٩/١١) الدعوات ، ومسلم (٦/١٧) الذكر .

(٢) رواه الترمذى (٢٢/١٣) الدعاء ، وفى سنده صالح بن بشير وهو ضعيف وقد حسنه المنذرى ، ورواه الحاكم (٤٩٣/١) وقال : يستقيم الإسناد وحسنه الألبانى بشاهده عند أحمد (١٧٧/٢) .

(٣) رواه أبو داود (١٥١٠) الصلاة بلفظ **« كان يعجبه أن يدعو ثلاثا »** وحسنه فى تحقيق جامع الأصول (٦٣/٤) .

(٤) رواه البخارى (١٤٠/١١) الدعوات ، ومسلم (٥١/١٧) الذكر رواه الترمذى (٢٧٦/١٢) الدعاء وقال : حسن صحيح وأبو داود (١٤٧٠) الصلاة .

كالمان بدعائه أو أنه أتى من الدعاء ما يستحق به الإجابة فيصير كالمبخل للرب الكريم الذى لا تعجزه الإجابة ولا ينقصه العطاء ، وفى الحديث أدب من آداب الدعاء وهو أن يلازم الطلب ولا ييأس من الإجابة لما فى ذلك من الإستسلام والانقياد وإظهار الافتقار .

الرابع : أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل ، قال ﷺ : ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : « **من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفر له** »[1] .

قيل إن يعقوب عليه السلام إنما قال : ﴿ **سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى** ﴾ [يوسف : ٩٨] ليدعو فى وقت السحر .

الخامس : أن يغتنم الأحوال الشريفة عند زحف الصفوف فى سبيل الله عز وجل ، وعند نزول الغيث لتسمية الغيث رحمه قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ** ﴾ [الشورى : ٢٨] وكذلك حال السجود لحديث أبى هريرة رضى الله عنه قال النبى ﷺ : « **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء** »[2] ويرجع شرف الأوقات إلى شرف الأحوال ؛ إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات ، ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل .

---

(١) رواه البخارى (٤٦٤/١٣) التوحيد ، ومسلم (٣٨/٦ ، ٣٩) صلاة المسافرين والترمذى (١٣/ ٣٠) الدعوات ، وأبو داود (١٣٠١) الصلاة .

(٢) رواه مسلم (٢٠٠/٤) الصلاة ، وأبو داود (١٢٨/٣) الصلاة ، والنسائى (٢٢٦/٢) الصلاة .

السادس : خفض الصوت بين المخافته والجهر والاستكانة والانكسار وإظهار الفقر والحاجة قالت عائشة فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا** ﴾ [الإسراء : ١١٠] أى بدعائك ، وقال أبو موسى الأشعرى رضى اللّه عنه : قدمنا مع رسول اللّه ﷺ فلما دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم - فقال النبى ﷺ : « **يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم - أى ارفقوا بها واخفضوا أصواتكم - إن الذى تدعون ليس أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا بصيرا** »(١) وقد أثنى اللّه تعالى على نبيه زكريا عليه السلام : فقال ﴿ **إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًا** ﴾ [مريم : ٣] وقال تعالى : « **أُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** » [الأعراف : ٥٥] .

السابع : أن يفتتح الدعاء بحمد اللّه تعالى والثناء عليه بأسمائه وصفاته ، ثم يصلى على نبيه ﷺ ، ويختم بالصلاة والحمد كذلك للحديث : سمع رسول اللّه ﷺ رجلا يدعو فى صلاته ، لم يمجد اللّه تعالى ولم يصل على النبى ﷺ ، فقال :« « **عَجِّل هَذَا** » **ثم دعاه فقال له ولغيره إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه عز وجل والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى** ﷺ ، **ثم يدعو بما شاء** »(٢) .

الثامن : أن يطيب مطعمه لقول ﷺ : « **إن اللّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن اللّه تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى** : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا** ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧٢] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام فأنَّى يستجاب لذلك »(٣) .

---

(١) رواه البخارى (١٨٧/١١) الدعوات ، ومسلم (٢٥/١٧ ، ٢٦) الذكر .

(٢) رواه الترمذى (٢١/١١) الدعاء ، وأبو داود (١٤٦٨) الصلاة ، والنسائى (٤٤/٣) السهو وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٣) رواه مسلم (١٠٠/٧) الزكاة ، والترمذى (١١٠/١١) التفسير .

فمع وجود أربعة شروط لقبول الدعاء وهى قوله : « **يطيل السفر** » فمتى طال السفر كان أقرب إلى إجابة الدعاء لأنه مظنة حصول انكسار النفس بطول الغربة عن الأوطان ، وتحمل المشاق والانكسار من أعظم أسباب الإجابة ، الثانى قوله : « **أشعث أغبر** » فحصول التبذل فى اللباس والهيئة بالشعث والإغبار مظنة للإجابة ، الثالث قوله : « **يمد يديه إلى السماء** » فقد تواترت الأخبار على رفع اليدين فى الدعاء ، وفى حديث سلمان المذكور آنفا قوله ﷺ : « **إن اللّه حيى كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرا خائبتين** »[1] الرابع قوله : « **يقول يارب يارب** » وهو الإلحاح على اللّه عز وجل بتكرير ذكر ربوبيته وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدعاء ، فمع وجود هذه الشروط التى تقتضى الإجابة يقول ﷺ : « **فأنى يستجاب لذلك** » والمانع له من الإجابة مع وجود هذه الشروط أن مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام .

التاسع : أن يدعو مستقبلا القبلة ويرفع يديه ولا يتكلف السجع فى الدعاء ، وإن دعا بالمأثور فهو حسن ، ولا يدعو بإثم ولا بقطيعة رحم لحديث أبى سعيد المتقدم .

العاشر : أن يعظم الرغبة فى ربه عز وجل لقوله ﷺ : « **إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن اللّه لا يتعاظمه شىء** »[2] .

الحادى عشر : وهو أدب الباطن وهو الأصل فى الإجابة وهو التوبة ورد المظالم والإقبال على اللّه عز وجل والاستجابة للّه عز وجل قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى** ﴾ [البقرة : ١٨٦] فالاستجابة للّه عز وجل سبب لاستجابة اللّه عز وجل لدعاء العبد كما قال ﷺ حاكيا عن ربه عز وجل فى حديث الولى الذى يتقرب إلى اللّه عز وجل بالنوافل حتى يحبه : « **ولئن سألنى لأعطينه** »[3] .

---

(١) تقدم تخريجه ص (١١٠) .
(٢) رواه مسلم (٦/١٧) الذكر .
(٣) حديث الولى رواه البخارى (٣٤٠/١١ ، ٣٤١) الرقاق ، وأبو نعيم (٤/١) .

الصلاة على النبى ﷺ (*)

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] قال ابن كثير رحمه الله : المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده فى الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه فى الملأ الأعلى عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلى عليه ، ثم أمر تعالى العالم السفلى بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوى والسفلى جميعا .

وقال ابن القيم رحمه الله فى « جلاء الأفهام » : والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله فصلوا أنتم أيضا عليه ؛ فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليما ؛ لما نالكم ببركة رسالته ويُمْنِ سفارته ، من خير شرف الدنيا والآخرة .

معنى الصلاة على النبى ﷺ :

قال أبو العالية : صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاة الملائكة الدعاء[1] .

وقال ابن عباس : يصلون يباركون[2] .

(*) انظر تفسير ابن كثير – وجلاء الأفهام لابن القيم – فضل الصلاة على النبى ﷺ للجهضمى بتحقيق الألبانى .

(١) ذكره البخارى تعليقا بصيغة الجزم .

(٢) ذكره البخارى تعليقا بصيغة الجزم .

قال ابن القيم رحمه الله : الصلاة المأمور بها فيها أى فى الآية المتقدمة هى الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته ، وهى ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه .

فضل الصلاة على النبى ﷺ :

عن عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : « **أتيت النبى وهو ساجد فأطال السجود قال : أتانى جبريل قال : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه فسجدت لله شكرا** »[1] وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرا** »[2]. وعن يعقوب بن زيد بن طلحة التيمى قال : قال رسول الله ﷺ : « **أتانى آت من ربى فقال : ما من عبد يصلى عليك صلاة إلا صلى الله عليه بها عشرا** » .

فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله أجعل نصف دعائى لك ؟ قال : إن شئت .

قال : ألا أجعل ثلثى دعائى ؟ قال : إن شئت .

قال : ألا أجعل دعائى كله قال : « **إذن يكفيك الله هم الدنيا وهم الآخرة** »[3] .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « **رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عَلى ، ورغم أنف رجل أدرك أبويه عنده الكبر فلم يدخلاه**

---

(٢) رواه الحاكم (٥٥٠/١) (وأحمد والجهضمى (وقال الحاكم : صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقال الألبانى : صحيح لطرقه وشواهده .

(٣) رواه مسلم (١٢٨/٤) الصلاة ، والترمذى (٢٧٠/٢) الصلاة وأبو داود (١٥١٦) الصلاة ، والنسائى (٥٠/٣) السهو .

(٤) رواه الجهضمى (٢٨ ، ٢٩) وقال الألبانى : هذا مرسل صحيح الإسناد ويشهد له ما بعده .

الجنة ، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له »[1] .

عن على بن الحسين قال : أخبرنى أبى عن جدى أنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« لا تجعلوا قبرى عيدا وصلو على وسلموا حيثما كنتم فسيبلغنى سلامكم وصلاتكم »**[2] .

وعن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال :

« إن لله ملائكة سياحين يبلغونى من أمتى السلام »[3] .

وعن الحسن قال : قال رسول الله : **« بحسب امرىء فى البخل أن أذكر عنده فلا يصلى على »**[4] .

وعن محمد بن على قال : قال رسول الله ﷺ :

« من ذكرت عنده فلم يصل على خطىء طريق الجنة »[5] .

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : **« من صلى على أو سأل لى الوسيلة حقت عليه شفاعتى يوم القيامة »**[6] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« ما جلس**

---

(١) رواه الترمذى (٣٦١٣ تحفة) الدعاء وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه والحاكم (١/٥٤٩) الدعاء مقتصرا على الفقرة الأولى وقال الألبانى إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح .

(٢) رواه أبو داود (٢٠٢٦) المناسك ، وأحمد (٢/٣٦٧) وحسنه الحافظ وقال الألبانى : صحيح بطرقه وشواهده .

(٣) رواه النسائى (٣/٤٣) السهو ، والحاكم (٢/٤٢١) التفسير وصححه ووافقه الذهبى وقال الألبانى : إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح .

(٤) رواه الترمذى (٣٦١٤) الدعوات تحفة وقال : حسن غريب صحيح والحاكم (١/٥٤٩) الدعاء وقال الألبانى : مرسل صحيح يشهد له ما قبله .

(٥) رواه الجهضمى فى فضل الصلاة على النبى ﷺ .. ص (٤٥) وقال الألبانى : إسناده مرسل جيد .

(٦) رواه مسلم (٤/٨٥) الصلاة ، وأبو داود (٥١٩) الصلاة والترمذى (١٣/١٠٢) المناقب ، والنسائى (٢/٢٥/٢٦) الأذان .

قوم مجلسا لم يذكروا الله ولم يصلوا على نبيهم ﷺ إلا كان مجلسهم عليهم ترة يوم القيامة ، إن شاء عفا عنهم وإن شاء أخذهم »[1] .

كيفية الصلاة على النبى ﷺ :

عن أبى مسعود الأنصارى قال : « أتانا رسول الله ﷺ ونحن فى مجلس سعد بن عبادة فقال له بشر بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله فكيف نصلى عليك ؟ قال : فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله ثم قال رسول الله ﷺ : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ، والسلام كما علمتم »[2] .

الفوائد والثمرات الحاصلة بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم :

١ – امتثال أمر الله سبحانه وتعالى وموافقته سبحانه فى الصلاة عليه ﷺ وموافقة ملائكته فيها .

٢ – حصول عشر صلوات من الله عز وجل على المصلى بالصلاة مرة واحدة على النبى ﷺ .

٣ – أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها كما تقدم .

٤ – أنها سبب لكفاية العبد ما أهمه كما فى حديث زيد بن طلحة المتقدم .

---

(١) رواه الترمذى (٣٤٤٠ تحفه) الدعاء وحسنه ، وصححه الألبانى فى الصحيحة ومعنى ترة أى حسرة .

(٢) رواه مسلم (١٢٤/٤ ، ١٢٥) الصلاة ، ومالك فى الموطأ (١٦٥/١ ، ١٦٦) والترمذى (٩٥/١٢) التفسير ، وأبو داود (٩٦٧) السهو والنسائى (٤٥/٣ ، ٤٦) .

٥ – أنها ترمى بصاحبها على طريق الجنة وتخطىء بتاركها عن طريقها .

٦ – أنها سبب لإبقاء اللّه سبحانه الثناء الحسن والبركة للمصلى لأن المصلى طالب من اللّه أن يثنى على رسوله ويكرمه ويشرفه ويبارك عليه وعلى آله ، وهذا الدعاء مستجاب فلا بد أن يحصل للمصلى نوع من ذلك والجزاء من جنس العمل .

٧ – أنها سبب لدوام محبة العبد لرسول اللّه ﷺ وزيادتها وتضاعفها ، وذلك عقد من عقود الإيمان الذى لا يتم إلا به ، وهى سبب أيضا لزيادة محبته ﷺ للمسلم وعرض اسم المصلى عليه ﷺ ، وكفى بالعبد نبلا أن يذكر اسمه بين يدى رسول اللّه ﷺ .

مواطن الصلاة على النبى صلى اللّه عليه وسلم :

الموطن الأول : وهو أهمها وآكدها فى الصلاة فى آخر التشهد وقد أجمع المسلمون على مشروعيته واختلفوا فى وجوبه فيها .

الموطن الثانى : صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية ، عن الزهرى قال : سمعت أبا أمامة بن سهل بن حنيف يحدث سعيد بن المسيب قال : « إن السنة فى صلاة الجنازة أن يقرأ بفاتحة الكتاب ، ويصلى على النبى ﷺ ، ثم يخلص الدعاء للميت حتى يفرغ ، ولا يقرأ إلا مرة واحدة ثم يسلم فى نفسه »[1] .

الموطن الثالث : عند ذكره ﷺ وقد اختلف فى وجوبها كلما ذكر اسمه ﷺ فقال الطحاوى والحليمى : تجب الصلاة عليه ﷺ كلما ذكر اسمه . وقال غيرهما : ذلك مستحب وليس بفرض يأثم تاركه .

---

(١) رواه النسائى مختصرا (٤/٧٥) الجنائز ، والحاكم بمعناه (١/٣٦٠) الجنائز وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى والألبانى .

الموطن الرابع : عند دخول المسجد وعند الخروج منه ، عن فاطمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **إذا دخلتِ المسجد فقولى بسم الله والسلام على رسول الله اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد واغفر لنا وسهل لنا أبواب رحمتك فإذا فرغتِ فقولى مثل ذلك غير أن قولى : وسهل لنا أبواب فضلك** »(١)

الموطن الخامس : عقب سماع الأذان لقوله ﷺ : « **إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عَلَىَّ ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة** »(٢) .

الموطن السادس : عند الدعاء لحديث فضالة بن عبيد صاحب رسول الله ﷺ قال : سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو فى صلاته لم يمجد الله ولم يصل على النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « **عجل هذا** » ثم دعاه فقال له ولغيره : « **إذ صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله والثناء عليه ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يدعو بعد بما شاء** »(٣) .

الموطن السابع : الصلاة عليه ﷺ يوم الجمعة : لحديث أوس بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة ، فإن صلاتكم معروضة عَلَىَّ ، قالوا يا رسول الله كيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرِمْتَ ؟ -

---

(١) رواه ابن ماجة (٧٧٢) المساجد ، الترمذى (٢/ ١١) الصلاة وحسنه وصححه الألبانى بشواهده .
(٢) تقدم تخريجه (ص : ١١٩) .
(٣) تقدم تخريجه (ص : ١١٥) .

يقولون : قد بليت - قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[1] .

الموطن الثامن : الخطب كخطبة الجمعة والعيدين والاستسقاء وغيرها .

الموطن التاسع : عند القيام من المجلس .

الموطن العاشر : عند خطبة الرجل المرأة فى النكاح .

---

(١) رواه أبو داود (١٠٣٤) الصلاة ، والنسائى (٣/٩١ ، ٩٢) الجمعة ، وابن ماجة (١٠٨٥) الصلاة ، والحاكم (١/٢٧٨) الجمعة وصححه على شرطهما ووافقه الذهبى على شرط البخارى وصححه الألبانى .

قيام الليل(*)

فضيلة قيام الليل :

قال الله عز وجل : ﴿ **تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ [السجدة : ١٦] .

ثم عقب بقوله تعالى : ﴿ **فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة : ١٧] .

وقال تعالى فى وصف المحسنين : ﴿ **كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات : ١٧ ، ١٨] .

نقل عن قتادة ومجاهد وغيرهما أن معناه كانوا لا ينامون ليلة حتى الصباح ، وعن ابن عباس معناه : لم تكن تمضى عليهم ليلة لا يأخذوا منها شيئا ، وقال تعالى : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** ﴾ [الزمر : ٩] قال شيخ الإسلام : القنوت : دوام الطاعة ، والمصلى إذا أطال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت .

وقال عز وجل فى صفة عباد الرحمن : ﴿ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٤] .

قال البخارى : « باب فضل قيام الليل » ثم أورد بسنده عن عبد الله بن عمر قال : « **كان الرجل فى حياة النبى ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ ، فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله ﷺ وكنت غلاما شابا وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله ﷺ ، فرأيت فى النوم كأن**

(*) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ، وإحياء علوم الدين .

ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار فإذا هي مطوية كطي البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها أناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار . قال : فلقينا ملك آخر فقال لي لم ترع ».

فقصصتها على حفصة ، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ ، فقال : « **نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل** » فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا[1] ، وشاهد الترجمة قوله ﷺ : « **نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل** » فمقتضاه أن من كان يصلي من الليل يوصف بكونه نعم الرجل وفي الحديث كذلك أن قيام الليل يدفع العذاب .

وفي حديث أبي هريرة قوله ﷺ : « **أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل** »[2] وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخبر أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام ليلة فقال : ألا تصليان ؟ فقلت يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إِلَيَّ شيئا ثم سمعته وهو مولٍ يضرب فخذه وهو يقول : ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلا** ﴾[3] .

قال ابن بطال : فيه فضيلة قيام الليل وإيقاظ النائمين من الأهل والقرابة لذلك . قال الطبري : لولا ما علم النبي ﷺ من عظم فضل الصلاة في الليل ما كان يزعج إبنته وابن عمه في وقت جعله الله لخلقه سكنا لكنه اختار لهما إحراز تلك الفضيلة .

---

(١) رواه البخاري (٣/٦) التهجد وقوله : « فكان بعد ... إلخ » من كلام سالم بن عبد الله بن عمر .
(٢) رواه مسلم (٨/٥٥) الصيام ، وأبو داود (٢٤١٢) الصوم ، والترمذي (٢/٢٢٧) الصلاة ، والنسائي (٣/٢٠٧) قيام الليل .
(٣) رواه البخاري (٣/١٠) التهجد ، ومسلم (٦/٦٤ ، ٦٥) المساجد .

كيف كان قيام النبى صلى الله عليه وسلم :

١ - طول القيام :

عن عبد الله مسعود رضى الله عنه قال : **« صليت مع النبى ﷺ ليلة فلم يزل قائما حتى هممت بأمر سوء ، قلنا : وما هممت ؟ قال : هممت أن أقعد وأذر النبى ﷺ »**[١] .

قال الحافظ :

فى الحديث دليل على اختيار النبى ﷺ تطويل الصلاة بالليل، وقد كان ابن مسعود قويا محافظا على الاقتداء بالنبى ﷺ وما هم بالقعود إلا بعد طول كثير ما اعتاده ، وذهب كثير من الصحابة وغيرهم إلى أن كثرة الركوع والسجود أفضل ، ولمسلم من حديث ثوبان : **« أفضل الأعمال كثرة السجود »**[٢] والذى يظهر أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال وروى مسلم من حديث حذيفة أنه صلى مع النبى ﷺ ليلة فقرأ البقرة وآل عمران والنساء فى ركعة ، وكان إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، أو سؤال سأل ، أو تَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ، ثم ركع نحوا مما قام ، ثم قام نحوا مما ركع ثم سجد نحوا مما قام[٣] ، وهذا إنما يتأتى فى نحو من ساعتين فلعله ﷺ أحيا تلك الليله كلها ، أما ما يقتضيه حاله فى غير هذه الليلة فإن فى أخبار عائشة أنه كان يقوم قدر ثلث الليل .

---

(١) رواه البخارى (٣/١٩) التجهد ، ومسلم (٦/٦٣) المساجد وقال النووى : فيه أنه ينبغى الأدب مع الأئمة والكبار وأن لا يخالفوا بفعل ولا قول ما لم يكن حراما واتفق العلماء على أنه إذا شق على المقتدى فى فريضة أو نافلة القيام وعجز عنه جاز له القعود وإنما لم يقعد ابن مسعود للتأدب مع النبى ﷺ - (شرح النووى على صحيح مسلم - ٦/٦٣) .

(٢) رواه مسلم (٤/٢٠٥) الصلاة بمعناه ، والترمذى (٣٨٦) الصلاة بمعناه كذلك .

(٣) رواه مسلم (٦/٦١ ، ٦٢) صلاة المسافرين ، وأبو داود (٨٦٠) الصلاة بمعناه ، والنسائى (٢/١٧٦ ، ١٧٧) الافتتاح مختصرا .

٢ - كيف صلاة النبى ﷺ وكم كان يصلى من الليل ؟

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : « **إن رجلا قال يا رسول الله كيف صلاة الليل ؟ قال : مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة** »[١] .

قال الحافظ فى الفتح : أما حديث ابن عمر فهو الأفضل فى حق الأمة لأنه أجاب به السائل ، وقد صح عنه ﷺ الفصل والوصل .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « **كان النبى ﷺ يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة منها الوتر وركعتا الفجر** »[٢] وفى الصحيحين عنها رضى الله عنها قالت : « **كان رسول الله ﷺ يصلى ما بين أن يفرغ من صلاة العشاء إلى الفجر إحدى عشرة ركعة ، يسلم بين كل ركعتين ويوتر بواحدة** »[٣] .

٣ - متى كان رسول الله ﷺ يقوم للصلاة ؟

عن أنس رضى الله عنه قال : « **كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن أنه لا يصوم ، ويصوم حتى نظن أنه لا يفطر منه شيئا ، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته ، ولا نائما إلا رأيته** »[٤] قال الحافظ فى الفتح : « فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قام فى أول الليل وفى وسطه وفى آخره ، إلا أنه ﷺ قد أخبر عن أحب القيام إلى الله عز وجل فقال : ﷺ فى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص : « **أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، وكان ينام نصف الليل ، ويقوم**

---

(١) رواه البخارى (٣/٢٠) التهجد ، ومسلم (٢/٢٢٦ ، ٢٢٧) الصلاة .
(٢) رواه البخارى (٣/٢٠) التهجد ، ومسلم (٦/٥٢ ، ٥٣) الصلاة .
(٣) رواه البخارى (٣/٧) التهجد ، ومسلم (٦/١٦) الصلاة .
(٤) رواه البخارى (٣/٢٢) التهجد .

ثلثه وينام سدسه ، ويصوم يوما ويفطر يوما »[1]

قال المهَلَّب : كان داود عليه السلام يَجِمُّ[2] نفسه بنوم أول الليل ، ثم يقوم فى الوقت الذى ينادى اللّه فيه هَل من سائل فأعطيه سؤله ، ثم يستدرك بالنوم ما يستريح به من نصب القيام فى بقية الليل ، وهذا هو النوم عند السحر ، وإنما صارت هذه الطريقة أحب من أجل الأخذ بالرفق للنفس التى يخشى منها السآمة ، وقد قال ﷺ : **« إن اللّه لا يَمَلُّ حتى تملوا »[3]** واللّه يحب أن يديم فضله ويوالى إحسانه ، وإنما كان ذلك أرفق لأن النوم بعد القيام يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم ، بخلاف السهر إلى الصباح ، وفيه من المصلحة أيضا استقبال صلاة الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال ، وأنه أقرب إلى عدم الرياء ، لأن من نام السدس الأخير أصبح ظاهر اللون سليم القوى ، فهو أقرب إلى أن يخفى علمه الماضى على من يراه ، أشار إلى ذلك ابن دقيق العيد .

حكم قيام الليل :

قال ابن عبد البر : شذ بعض التابعين فأوجب قيام الليل ولو قدر حلب الشاة ، والذى عليه جماعة العلماء أنه مندوب إليه ، ونقل الترمذى عن اسحق بن راهويه أنه قال إنما قيام الليل على أصحاب القرآن ، وهذا يخص ما نقل عن الحسن وهو أقرب وليس فيه التصريح بالوجوب أيضا .

الأسباب التى بها يتيسر قيام الليل :

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا من وفقه اللّه عز وجل للقيام والأسباب الميسرة له الظاهرة والباطنة سبعة .

---

(١) رواه البخارى (٣/١٦) التهجد .

(٢) يُجمُّ : يلدع .   (٣) رواه البخارى (٣/٣٦) التهجد ، ومسلم (٦/٧١) صلاة المسافرين .

فأما الظاهرة فأربعة :

الأول : أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم كما قال بعضهم : لا تأكلوا كثيرا فتشربوا كثيرا فترقدوا كثيرا .

الثانى : أن لا يتعب نفسه بالنهار فى الأعمال التى تَعْيَا بِهَا الجوارح وتضعف بها الأعصاب ، فإن ذلك أيضا مجلبة للنوم .

الثالث : أن لا يترك القيلولة بالنهار للاستعانة بها على قيام الليل .

الرابع : أن لا يكثر من الأوزار بالنهار فإن ذلك مما يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة .

والملوك لا يسمحون للخلوة بهم ومناجاتهم إلا أهل طاعتهم ووداهم والإخلاص لهم .

قالوا لابن مسعود رضى الله عنه : لا نستطيع قيام الليل . فقال : أبعدتكم الذنوب . وقال رجل للحسن لا أستطيع قيام الليل فصف لى دواء ، قال لا تعصه بالنهار وهو يقيمك بين يديه بالليل .

وقال الثورى : حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أصبته .

وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لغطهم ولغوهم يقول : أظن أن ليل هؤلاء ليل سوء . فالذنوب كلها تورث قساوة القلب وتمنع من قيام الليل وأخصها بالتأثير تناول الحرام ، وتؤثر اللقمة الحلال فى تصفية القلب وتحريكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها ، ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له ، ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام اليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة ، وإن العبد ليأكل أكلة أو يفعل فعلة فيحرم بها قيام سنة .

الميسرات الباطنة :

الأول : سلامة القلب عن البدع والحقد على المسلمين وعن فضول هموم الدنيا ، فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام وإن قام فلا يتفكر فى صلاته إلا فى مهماته ولا يجول إلا فى وساوسه وفى مثل ذلك يقال :

يُخَبِّرُنِى الْبَوَّابُ أَنَّكَ نَائِمٌ وَأَنْتَ إِذَا اسْتَيْقَظْتَ أَيْضًا فَنَائِمٌ

الثانى خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل ؛ فإن العبد إذا تفكر فى دركات جهنم وأهوال الآخرة طار نومه .

قال عبد اللّه بن رواحة : إن عبد اللّه إذا ذكرت الجنة طال شوقه وإذا ذكرت النار طار نومه .

قال ابن المبارك رحمه اللّه :

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ فَيَسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعٌ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا وَأَهْلُ الْأَمْنِ فِى الدُّنْيَا هُجُوعٌ

وقال بعضهم :

مَنَعَ الْقُرْآنُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ مُقَلَ الْعُيُونِ فَلَيْلُهَا لَا تَهْجَعُ
فَهِمُوا عَنِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ كَلَامَهُ فَهْمًا تَذِلُّ لَهُ الرِّقَابُ وَتَخْضَعُ

الثالث : أن يعرف فضل قيام الليل كما أوردنا من الآيات والأخبار ، حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة فى درجات الجنات .

الآثار فى قيام الليل :

قال ابن المنكدر : ما بقى من لذات الدنيا إلا ثلاث : قيام الليل ولقاء الإخوان وصلاة الجماعة .

وقال أبو سليمان : أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا .

وكان ابن مسعود رضى اللّه عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح .

٩ - أحوال النفس ومحاسبتها*

اتفق السالكون إلى ربهم عز وجل على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب ، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إليه إلا بعد إماتتها وتركها بمخالفتها والظفر بها .

فإن الناس على قسمين : قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعا لها تحت أوامرها ، وقسم ظفروا بنفوسهم فقروها فصارت طوعا لها منقادة لأوامرهم .

قال بعض العارفين : إنتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح ، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك ، قال اللّه تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَنَ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ، وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى** ﴾ [النازعات : ٣٧ - ٤١]

(*) انظر كتاب « الروح » لابن القيم ، وإغاثة اللهفان له كذلك .

والنفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا ، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهى النفس عن الهوى ، والقلب بين الداعيين يميل إلى هذا الداعى مرة وإلى هذا الداعى مرة ، وهذا موضع المحنة والابتلاء ، وقد وصف اللّه سبحانه النفس فى القرآن بثلاث صفات : المطمئنة واللوامة والأمارة بالسوء ، فاختلف الناس : هل النفس واحدة وهذه أوصاف لها ، أم للعبد ثلاث أنفس ؟ فالأول قول الفقهاء والمفسرين والثانى قول كثير من أهل التصوف والتحقيق أنه لا نزاع بين الفريقين فإنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاث باعتبار صفاتها .

النفس المطمئنة :

إذا سكنت النفس إلى اللّه عز وجل واطمأنت بذكره وأنابت إليه واشتاقت إلى لقائه وأنست بقربه فهى مطمئنة .

قال ابن عباس رضى اللّه عنهما : المطمئنة : المصدقة .

وقال قتادة رحمه اللّه : هو المؤمن اطمأنت نفسه إلى ما وعد اللّه .

وصاحب هذه النفس يطمئن فى باب معرفه أسماء اللّه عز وجل وصفاته إلى خبره الذى أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله ﷺ ، ثم يطمئن إلى خبره عما بعد الموت من أمور البرزخ وما بعده من أحوال القيامة حتى كأنه يشاهد ذلك كله عيانا ، ثم يطمئن إلى قدر اللّه عز وجل فيسلم له ويرضى فلا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه فلا يأس على ما فاته ولا يفرح بما آتاه ، لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يُخْلَقَ قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن : ١١] قال غير واحد من السلف : هوالعبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

وأما طمأنينة الإحسان فهى الطمأنينة إلى أمره امتثالا وإخلاصا ونصحا ، فلا يقدم على أمره إرادة ولا هوى ولا تقليدا ، ولا يساكن شبهة تعارض خبره ولا

شهوة تعارض أمره ، بل إذا مرت به أنزلها منزلة الوساوس التى لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يجدها فهذا كما قال النبى ﷺ : « صريح الإيمان »[1] وكذلك يطمئن من قلق المعصية وانزعاجها إلى سكون التوبة وحلاوتها .

فإذا اطمأن من الشك إلى اليقين ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الغفلة إلى الذكر ، ومن الخيانة إلى التوبة ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن العجز إلى الكَيِس ، ومن صولة العجب إلى ذلة الإخبات ، ومن التيه إلى التواضع ، فعند ذلك تكون نفسه مطمئنة .

وأصل ذلك كله هى اليقظة التى كشفت عن قلبه سنة الغفلة وأضاءت له قصور الجنة فصاح قائلا :

أَلا يَا نَفْسُ وَيْحَكِ سَاعِدِينِى   بِسَعْيٍ مِنْكِ فِى ظُلَمِ اللَّيَالِى
لَعَلَّكِ فِى الْقِيَامَةِ أَنْ تَفُوزِى   بِطِيبِ العَيْشِ فِى تِلْكَ العَلَالِى

فرأى فى ضوء هذه اليقظة ما خلق له وما سيلقاه بين يديه من حين الموت إلى دخول دار القرار ، ورأى سرعة انقضاء الدنيا وقلة وفائها لبنيها وقتلها لعشاقها وفعلها بهم أنواع المثلات ، فنهض فى ذلك الضوء على ساق عزمه قائلا : ﴿ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : ٥٦] فاستقبل بقية

---

(١) رواه مسلم (١٥٣/٢) الإيمان ولفظه عن أبى هريرة قال : جاء ناس من أصحاب النبى ﷺ فسألوه انا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم قال : **ذاك صريح الإيمان** .

وروى مسلم كذلك عن عبد الله بن مسعود قال : سئل النبى ﷺ عن الوسوسة قال : « **تلك محض الإيمان** » .

قال النووى : استعظامكم الكلام به هو صريح الإيمان فإن استعظام هذا وشدة الخوف منه ومن النطق به فضلاً عن اعتقاده إنما يكون لمن استكمل الإيمان استكمالا محققا وانتفت عنه الريبة والشك – شرح النووى على صحيح مسلم (١٥٤/٢) .

عمره مستدركا ما فات محييا ما أمات مستقبلا ما تقدم له من العثرات منتهزا فرصة الإمكان التى إن فاتت فاته جميع الخيرات ، ثم يلحظ فى نور تلك اليقظة نعمة ربه عليه ويرى أنه آيس من حصرها وإحصائها عاجز عن أداء حقها ، ويرى فى تلك اليقظة عيوب نفسه وآفات عمله وما تقدم له من الجنايات والإساءات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات ، فتذكر نفسه وتخشع جوارحه ويسير إلى اللّه ناكس الرأس بين مشاهدة نعمه ومطالعة جناياته وعيوب نفسه ، ويرى أيضا فى ضوء تلك اليقظة عزة وقته وخطره وأنه رأس مال سعادته فيبخل به فيما لا يقربه إلى ربه ، فإن فى إضاعته الخسران والحسرة وفى حفظه الربح والسعادة ، فهذه آثار اليقظة وموجباتها وهى أول منازل النفس المطمئنة التى ينشأ منها سفرها إلى اللّه والدار الآخرة .

النفس اللوامة :

قالت طائفة : هى التى لا تثبت على حال واحدة فهى كثيرة التقلب والتلون ، فتذكر وتغفل ، وتقبل وتعرض ، وتحب وتبغض ، وتفرح وتحزن ، وترضى وتغضب ، وتطيع وتتقى .

وقالت أخرى : هى نفس المؤمن . قال الحسن البصرى : إن المؤمن لا تراه إلا يلوم نفسه دائما يقول : ما أردت بهذا ؟ لم فعلت هذا ؟ كان هذا أولى من هذا أو نحو هذا الكلام .

وقالت أخرى : اللوم يوم القيامة ، فإن كل أحد يلوم نفسه إن كان مسيئا على إساءته وإن كان محسنا على تقصيره . يقول الإمام ابن القيم : وهذا كله حق .

واللوامة نوعان : لوامة ملومة ، ولوامة غير ملومة .

اللوامة الملومة : هى النفس الجاهلة الظالمة التى يلومها اللّه عز وجل وملائكته .

اللوامة الغير ملومة: وهي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره فى طاعة الله مع بذله جهده ، فهذه غير ملومة ، وأشرف النفوس من لامت نفسها فى طاعة الله ، واحتملت ملام اللوام فى مرضاته ، فلا تأخذها فى الله لومة لائم ، فهذه قد تخلصت من لوم الله ، وأما من رضيت بأعمالها ولم تلم نفسها ولم تحتمل فى الله ملام اللوام فهى التى يلومها الله عز وجل .

النفس الإمارة بالسوء :

وهذه هى النفس المذمومة فإنها تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها ، فما تخلص أحد من شرها إلا بتوفيق الله ، كما قال تعالى حاكيا عن امرأة العزيز : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [يوسف : ٥٣] وقال عز وجل : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [النور : ٢١] وكان النبى ﷺ يعلمهم خطبة الحاجة « **إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا** »[١] فالشر كامن فى النفس وهو يوجب سيئات الأعمال فإذا خلى الله بين العبد وبين نفسه هلك بين شرها وما تقتضيه من سيئات الأعمال وإن وفقه الله وأعانه نجا من ذلك كله فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

وخلاصة القول : أن النفس واحدة تكون أمارة ثم لوامه ثم مطمئنة ، وهى عايه كمالها وصلاحها ، والنفس المطمئنة قرينها الملك يليها ويسددها ويقذف فيها الحق ويرغبها فيه ويريها حسن صورته ، وبالجملة فما كان لله وبالله فهو من عند النفس المطمئنة ، وأما النفس الأمارة بالسوء فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذى

---

(١) رواه مسلم (١٥٦/٦) الجمعة ، والنسائى (١٨٨/٣ ، ١٨٩) العيدين .

يليها فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ويزينه لها ، ويطيل فى الأمل ويريها الباطل فى صورة تقبلها وتستحسنها .

فالنفس المطمئنة والملك من الإيمان يقتضيان من النفس المطمئنة التوحيد والإحسان والبر والتقوى والتوكل والتوبة والإنابة والإقبال على اللّه وقصر الأمل والاستعداد للموت وما بعده ، والشيطان وجنده من الكفر يقتضيان من النفس الأمارة ضد ذلك .

وأصعب شيء على النفس المطمئنة تخليص الأعمال من الشيطان ومن الأمارة فلو وصل منها عمل واحد لَنَجَا به العبد ، ولكن أبت الأمارة والشيطان أن يَدَعَا عملا واحدا يصل إلى اللّه ، كما قال بعض العارفين : « واللّه لو أعلم أن لى عملا واحدًا وصل إلى اللّه لكنت أفرح بالموت من الغائب يقدم على أهله » . وقال عبد اللّه بن عمر رضى اللّه عنهما : « لو أعلم أن اللّه قبل منى سجدة واحدة لم يكن غائب أحب إلَىَّ من الموت » .

وقد انتصبت الأمارة فى مقابلة المطمئنة ، فكلما جاءت به تلك من خير ضاهتها هذه وجاءت من الشر بما يقابله حتى تفسده عليها ، فتريه حقيقة الجهاد فى صورة تقتل النفس وتنكح الزوجة ويصير الأولاد يتامى ويقسم المال ، وتريه حقيقة الزكاة والصدقة فى صورة مفارقة المال ونقصه وخلو اليد منه واحتياجه إلى الناس ومساواته للفقير .

محاسبة النفس

وعلاج استيلاء النفس الأمارة على قلب المؤمن محاسبتها ومخالفتها أخرج الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه أنه قال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم

خافية »[1] وقال الحسن : « المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من حيلة إليك ، هيهات حيل بينى وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ما أردت إلى هذا ، مالى ولهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبدا ، إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن ، وحال بين هلكتهم ، إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه وفى بصره وفى لسانه وفى جوارحه ، مأخوذ عليه فى ذلك كله » .

قال مالك بن دينار : « رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ، ثم زمها ، ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله عز وجل فكان لها قائدا » .

فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها فى حركاتها وسكناتها وخطراتها قال الله تعالى : ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ ، مُحْضَراً ، وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا** ﴾ [آل عمران : ٣٠] .

ومحاسبة النفس نوعان نوع قبل العمل ونوع بعده :

أما النوع الأول : فهو أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه .

قال الحسن رحمه الله : « رحم الله عبدا وقف عند همه ، فإن كان لله أمضاه ، وإن كان لغيره تأخر » .

وشرح بعضهم هذا فقال : إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد وقف أولا ونظر هل ذلك العمل مقدور عليه أو غير مقدور عليه

(١) رواه الترمذى (٢٨٢/٩) صفة القيامة .

ولا مستطاع ، فإن لم يكن مقدورا عليه لم يقدم عليه ، وإن كان مقدورا عليه وقف وقفه أخرى ونظر ، هل فعله خير من تركه ؟ أو تركه خير له من فعله ؟ فإن كان الثانى تركه ولم يقدم عليه ، وإن كان الأول وقف وقفه ثالثة هل الباعث عليه إرادة وجه اللّه عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق ؟ .

فإن كان الثانى لم يقدم وإن أفضى به مطلوبه ، لئلا تعتاد النفس الشرك ويخفف عليها العمل لغير اللّه ، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل للّه تعالى حتى يصير أثقل شيء عليها ، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجا إلى ذلك أم لا ؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه ، كما أمسك النبى ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصارا ، وإن وجده معانا عليه فليقدم عليه فإنه منصور بإذن اللّه ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال وإلا فمع إجتماعها لا يفوته النجاح ، فهذه أربعة مقامات يحتاج العبد إلى محاسبة نفسه عليها قبل العمل .

وأما النوع الثانى : فمحاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق اللّه تعالى فلم توقعها على الوجه الذى ينبغى ، وحق اللّه فى الطاعة ستة أمور : الإخلاص فى العمل ، والنصيحة للّه فيه ، ومتابعة الرسول ﷺ ، وشهود مشهد الإحسان وشهود منة اللّه ، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله .

فيحاسب نفسه هل وَفَّى هذه المقامات حقها ؟ وهل أتى بها فى هذه الطاعة ؟

الثانى : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله .

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمر مباح لم فعله ؟ وهل أراد به اللّه والدار

الآخرة ؟ فيكون رابحا ، أو أراد به الدنيا عاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به .

وآخر ما عليه الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الأمور وتمشيتها فإن هذا يؤول به إلى الهلاك وهذه حال أهل الغرور يغمض عينيه عن العواقب ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه والنظر فى العاقبة وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعه الذنوب وأنس بها وعسر عليه فطامها ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد .

وجماع ذلك : أن يحاسب نفسه أولا على الفرائض فإن تذكر نقصا تداركه إما بقضاء أو إصلاح ، ثم يحاسبها على المناهى فإن عرف أنه ارتكب منها شيئا تداركة بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية ، ثم يحاسب نفسه على الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على اللّه تعالى ، ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشته رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه ماذا أرادت بهذا ؟ وَلِمَ فَعلته وعلى أى وجه فعلته قال اللّه تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الحجر : ٩٢] .

وقال تعالى : ﴿ **فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ** ﴾ [الأعراف : ٦ ، ٧] .

وقال تعالى : ﴿ **لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ** ﴾ [الأحزاب : ٦ ، ٧] .

فإذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين .

وقال تعالى : ﴿ **ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾ [التكاثر : ٨] .

قال محمد بن جرير رحمه اللّه : يقول تعالى ثم ليسألنكم اللّه عز وجل عن النعيم الذى كنتم فيه فى الدنيا : ماذا عملتم فيه ؟ ومن أين وصلتم إليه ؟ وفيم أصبتموه ؟ وماذا [illegible] به .

وقال قتادة : إن اللّه سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه .

والنعيم المسئول عنه نوعان : نوع أخذ من حله وصرف فى حقه فيسأل عن شكره ، ونوع أخذ بغير حله وصرف فى غير حقه فيسأل عن مستخرجه ومصرفه .

فإذا كان العبد مسئولا ومحاسبا على كل شيء حتى على سمعه وبصره وقلبه كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب .

وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : ١٨] .

يقول تعالى : لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال ، أَمِنَ الصالحات التى تنجيه ، أم من السيئات التى توبقه ؟ .

قال قتادة : مازال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد .

والمقصود أن صلاح القلب بمحاسبة النفس وفسادها بأهمالها والاسترسال معها .

فوائد محاسبة النفس

من فوائد محاسبة النفس الاطلاع على عيوبها ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته ، فإذا أطلع على عيبها ، مقتها فى ذات اللّه تعالى روى الإمام أحمد عن أبى الدرداء رضى اللّه عنه قال : « لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى جنب اللّه ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا » .

قال محمد بن واسع : لو كان للذنوب ريح ما قدر أحد يجلس إِلَيَّ .

قال أبو حفص : « من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ولم يخالفها فى جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أوقاته كان مغرورا ، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها .

وعن عقبة بن صهبان الهنائى قال : سألت عائشة رضى الله عنها عن قول الله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر : ٣٢] .

فقالت : يا بنى هؤلاء فى الجنة أما السابق فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة والرزق ، وأما المقتصد عمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلك ، فجعلت نفسها معنا » وفى كتاب الزهد للإمام أحمد : « أن رجلا من بنى إسرائيل تعبد ستين سنة فى طلب حاجة فلم يظفر بها ، فقال فى نفسه والله لو كان فيك خير لظفرت بحاجتك ، فأُتِىَ فى منامه فقيل له أرأيت أزدراءك نفسك تلك الساعة فإنه خير من عبادتك تلك السنين » فالنفس داعية إلى المهالك معينة للأعداء طامحة إلى كل قبيح متبعة لكل سوء فهى تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة .

فالنعمة التى لا خطر لها الخروج منها والتخلص من رقها فإنها أعظم حجاب بين العبد وبين الله تعالى ، وأعرف الناس بها أشدهم إزراء عليها ومقتالها .

ومقت النفس فى ذات الله من صفات الصديقين ويدنو العبد به من الله تعالى فى لحظة واحدة أضعاف ما يدنو بالعمل .

ومن فوائد محاسبة النفس أيضا : أن يعرف العبد بذلك حق الله تعالى ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدى عليه وهى قليلة المنفعة جدا .

فمن أنفع ما للقلب النظر فى حق اللّه على العباد فإن ذلك يورثه مقت نفسه والإزراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدى ربه واليأس من نفسه وأن النجاة لا تحصل إلا بعفو اللّه ومغفرته ورحمته ، فإن من حقه أن يطاع ولا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر .

فمن نظر فى هذا الحق الذى لربه عليه علم علم اليقين أنه غير مؤد له كما ينبغى ، وأنه لا يسعه إلا العفو والمغفرة ، وأنه إن أحيل على عمله هلك .

فهذا محل نظر أهل المعرفة باللّه تعالى وبنفوسهم ، وهذا الذى أيأسهم من أنفسهم وعلق رجاءهم كله بعفو اللّه ورحمته .

وإذا تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك ينظرون فى حقهم على اللّه ولا ينظرون فى حق اللّه عليهم ، ومن هنا انقطعوا عن اللّه وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره ، وهذا غاية جهل الإنسان بربه وبنفسه .

فمحاسبة النفس هو نظر العبد فى حق اللّه عليه أولا ، ثم نظره هل قام به كما ينبغى ، وأفضل الفكر الفكر فى ذلك ؛ فإنه يسير القلب إلى اللّه ويطرحه بين يديه ذليلا خاضعا منكسرا كسرا فيه جبره ومفتقرا فقرا فيه غناه وذليلا ذلا فيه عزه ، ولو عمل من الأعمال ما عساه أن يعمل فإنه إذا فاته هذا فالذى فاته من البر أفضل من الذى ناله .

١٠ – داء الريـاء*

دلت أدلة الكتاب والسنة من الآيات والأخبار على تحريم الرياء وذم فاعله قال تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ** ﴾ [الماعون : ٤ ، ٦] ويقول الله عز وجل : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ [الكهف : ١١٠] وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه** »[١] وقال ﷺ : « **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : « **الرياء ، يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : ﴿ اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ﴾**[٢] .

رأى أبـو أمامـة الباهلى رجلا فى المسجد يبكى فى سجوده فقال : أنتَ أنتَ لو كان هذا فى بَيْتِكَ .

(*) انظر إحياء علوم الدين للغزالى .

(١) رواه مسلم (١٨/١١٥) الزهد وقال النووى : هكذا وقع فى بعض الأصول « وشركه » وفى بعضها وشريكه وفى بعضها وشركته ، ومعناه أنا غنى عن المشاركة وغيرها ، فمن عمل شيئا لى ولغيرى لم أقبله بل أتركه لذلك الغير ، والمراد أن عمل المرائى باطل الثواب فيه ويأثم به .

(٢) رواه أحمد (٥/٤٢٨ ، ٤٢٩) ، والبغوى فى شرح السنة (١٤/ ٣٢٤) وابن حبان (٢٤٩٩) موارد بمعناه وقال المنذرى إسناده جيد وصححه الألبانى .

بيان حقيقة الرياء وجوامع ما يراءى له :

الرياء مشتق من الرؤية ، وأصله طلب المنزلة فى قلوب الناس بإرائهم خصال الخير ، والمراد به كثير ويجمعه خمسة أقسام وهى جوامع ما يتزين به العبد للناس وهى : البدن والزى والقول والعمل والاتباع والأشياء الخارجة .

فأما الرياء فى الدين بالبدن فباظهار النحول والصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة .

وأما الرياء بالهيئة والزى فمثل تشعيث الشعر ، وإطراق الرأس فى المشى ، والهدوء فى الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، كل ذلك يراءى به .

وأما الرياء بالقول فرياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة والآثار لإظهار شدة العناية بأحوال الصالحين وتحريك الشفتين بالذكر فى محضر الناس .

وأما الرياء فى العمل فكمراءاة المصلى بطول القيام وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات .

وأما المراءاة بالأصحاب والزائرين كالذى يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال : إن فلانا قد زار فلانا .

بيـــان المراءى لأجلـه :

اعلم أن للمرائى مقصودا لا محالة وإنما يرائى لإدراك حال أو جاه أو غرض من الأغراض ، وله درجات أحدها أن يكـون مقصوده التمكن من معصيته كالذى يرائى بعبادته ويظهر التقوى والورع وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى منصبا أو يسلم إليه تفرقة مال ليستأثر بما قدر عليه منه ، وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى ، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلما إلى معصيته ثانيها : أن يكون غرضه نيل حظ

من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح كالذى يظهر العلم والعبادة ليرغب فى تزويجه أو إعطائه ؛ فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة اللّه متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول .

الثالث : أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ، ولكنه يظهر عبادته خوفا من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة والزهاد ويعُتقد أنه من جملة العامة .

بيــان الريــاء الخفــى :

الرياء جلى وخفى : فالجلى هو الذى يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب وهو أجلاه ، وأخفى منه قليلا الذى لا يحمل على العمل بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذى يريد به وجه اللّه كالذى يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه ، ومن الرياء الخفى كذلك أن يخفى العبد طاعاته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وأن يثنوا عليه ، وأن ينشطوا فى قضاء حوائجه ، وأن يسامحوه فى البيع والشراء ، وأن يوسعوا له المكان فإن قَصَّر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه ، ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفى يجتهدون فى إخفاء طاعاتهم أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم ، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم اللّه يوم القيامة بإخلاصهم إذ علموا أنه لا يقبل يوم القيامة إلا الخالص ، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم فى القيامة .

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب منه :

عرفت أن الرياء محبطٌ للأعمال ، وسبب للمقت عند الكبير المتعال ، وأنه من كبائر المهلكات ، وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد فى إزالته ، وفى علاجه مقامات :

أحدهما : قطع عروقه وأصوله وهى حب لذة المحمدة والفرار من ألم الذم والطمع فيما فى أيدى الناس ، فهذه الثلاثة هى التى تحرك المرائى إلى الرياء ،

وعلاجه أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه وما يحرم عليه فى الحال من التوفيق وفى الآخرة من المنزلة عند اللّه تعالى ، ومايتعرض له من العقاب والمقت الشديد والخزى الظاهر ، فمهما تفكر العبد فى هذا الخزى وقابل ما يحصل له من العباد والتزين الهم فى الدنيا بما يفوته فى الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال فإنه يسهل عليه قطع الرغبة عنه كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكنه إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه .

المقام الثانى : دفع العارض منه أثناء العبادة وذلك لابد أيضا من تعلمه فإن من جاهد نفسه بقطع مغارس الرياء وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فقد لا يتركه الشيطان فى أثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرياء فإذا خطر له معرفة إطلاع الخلق دفع ذلك بأن قال لنفسه مالك وللخلق علموا أو لم يعلموا واللّه عالم بحالك فأى فائدة فى علم غيره ، فإذا هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ذكر ما رسخ فى قلبه من قبل آفة الرياء وتعرضه للمقت الإلهى والخسران الأخروى .

بيان الخطأ فى ترك الطاعات خوفا من الرياء :

من الناس من يترك العمل خوفا من أن يكون مرائيا به ، وذلك غلط وموافقه للشيطان وجر إلى البطالة وترك للخير ، فما دام الباعث على العمل صحيحا وهو فى ذاته موافق للشرع الحنيف فلا يترك العمل لوجود خاطر الرياء ، بل على العبد أن يجاهد خاطر الرياء ويلزم قلبه الحياء من اللّه وأن يستبدل بحمده حمد المخلوقين .

قال الفضيل بن عياض : العمل من أجل الناس شرك ، وترك العمل من أجل الناس رياء ، والإخلاص أن يعافيك اللّه منهما .

وقال غيره : من ترك العمل خوفا من الإخلاص فقد ترك الإخلاص والعمل .

١١ - داء الكـــبر*

قال تعالى : ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ﴾ [الزخرف : ١٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ** ﴾ [غافر : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ** ﴾ [النحل : ٢٣] وقال عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [غافر : ٦٠] .

وقال ﷺ : « **يقول الله تعالى : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى جهنم ولا أبالى** »[١] وقال ﷺ : « **لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطرا** »[٢] .

وروى مسلم فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه**

(*) انظر إحياء علوم الدين للغزالى .

(١) رواه مسلم (١٧٣/١٦) البر والصلة بلفظ « العِزُّ إزارى » ، وأبو داود (٤٠٧٢) بلفظة اللباس ، وقال الخطابى : معنى هذا الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله سبحانه واختص بهما لا يشركه أحد فيهما ولا ينبغى لمخلوق أن يتعاطاهما لأن صفة المخلوق التواضع والتذلل وضرب الرداء والإزار مثلًا فى ذلك يقول والله أعلم كما لا يشرك الإنسان فى ردائه وإزاره فكذلك لا يشركنى فى الكبرياء والعظمة مخلوق - عون المعبود (١٥٠/١١) .

(٢) رواه البخارى (٢٥/١٠) اللباس ، ومسلم (٦٠/١٤) اللباس والموطأ (٩١٤/٢) وقال ابن الأثير : الخيلاء : الكبر والعجب .

حسنا ونعله حسنا فقال : إن اللّه جميل يحب الجمال الكبر بَطَرُ الحَقِّ وغمط الناس »[1] ومعنى بطر الحق : الاستنكاف عن قبوله ورده والنظر إليه بعين الاستصغار وذلك للترفع والتعاظم ، ومعنى غمط الناس : ازدراؤهم واستحقارهم .

بيان ما يتكبر به :

أولا : العلم : وما أسرع الكبر إلى بعض العلماء فلا يلبث أن يستشعر فى نفسه كمال العلم فيستعظم نفسه ويستحقر الناس ويستجهلهم ويستخدم من خالطه منهم وقد يرى نفسه عند اللّه تعالى أعلى وأفضل منهم .

الثانى : الكبر بالحسب والنسب ؛ فالذى له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب ، وإن كان أرفع منه علما وعملا ، وهذا من فعل الجاهلية كما جاء أن أبا ذر رضى اللّه عنه قال قاولت رجلا عند النبى ﷺ فعيرته بأمه فغضب ﷺ وقال : « **يا أبا ذر إنك امروء فيك جاهلية : هم إخوانكم** »[2] .

الثالث : الكبر بالمال : وذلك يجرى بين الأغنياء فى لباسهم وخيولهم ومراكبهم فيستحقر الغنى الفقير ويتكبر عليه ، وكل ذلك جهل منهم بفضيلة الفقر وآفة الغنى .

الرابع : التكبر بالأتباع والأنصار والعشيرة ، فهذه بعض ما يتكبر به الناس بعضهم على بعض نسأله تعالى العون بلطفه ورحمته .

واعلم أن التكبر فى شمائل الرجل كصعر فى وجهه ونظره شزرا وفى أقواله حتى فى صوته ونغمته ويظهر فى مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته

---

(١) رواه مسلم (٨٩/٢) الإيمان ، وأبو داود (٤٠٧٣) اللباس ، والترمذى (١٦٤/٨ ، ١٦٥) البر والصلة .

(٢) رواه البخارى (٨٤/١) الإيمان .

وسكناته فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر فى بعض ويتواضع فى بعض ، فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه ، ومنها أن لا يمشى إلا ومعه غيره يمشى خلفه ، ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلا فى بيته ، والتواضع خلافه : جاء أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيوف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ فقال الضيف أقوم إلى السراج فأصلحه فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه قال أفأنبه الغلام ؟ فقال : هى أول نومة نامها فقام وملأ المصباح زيتا فقال الضيف قمت أنت يا أمير المؤمنين ؟ فقال ذهبت وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر ما نقص منى شىء وخير الناس من كان عند اللّه متواضعا .

وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبى ﷺ فينبغى أن يقتدى به قال ابن أبى سلمة قلت لأبى سعيد الخدرى : ما ترى فيما أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال : يا ابن أخى كل للّه واشرب للّه والبس للّه ، وكل شىء من ذلك دخله زهو أو مباهات أو رياء أو سمعة فهو معصية وسرف ، وعالج فى بيتك من الخدمة ما كان يعالج رسول اللّه ﷺ فى بيته ، كان يحلب الشاةَ ، ويخصف النعلَ ، ويرقع الثوب ويأكل مع خادمه ، ويشترى الشىء من السوق لا يمنعه الحياء أن يعلق الإناء بيده ، ويصافح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئا على كل من استقبله من صغير أو كبير ، يجيب إذا دعى ولا يحقر ما دعى إليه ، لين الخلق جميل المعاشرة طليق الوجه ، شديدا فى غير عنف ، متواضعا فى غير مذلة جوادا من غير سرف ، رقيق القلب ، زادت عائشة رضى اللّه عنها وأنه ﷺ لم يمتلىء قط شبعا ولم يبث إلى أحد شكوى وكان يقول : « **البذاذة من الإيمان** »[1] .

---

(١) رواه أبو داود (٤١٤٣) الترجل ، وابن ماجة (٤١١٨) الزهد ، الحاكم (٩/١) وقال : احتج مسلم بصالح بن أبى صالح السمان ووافقه الذهبى وصححه الألبانى فى الصحيحة رقم ٣٤١ ، والبذاذه رثاثة الهيئة أراد التواضعَ فى اللباس وترك التبجح به ، ومنه بهيئة بذة أى سيئة تدل على الفقر – تلخيص الذهبى على المستدرك (٩/١) .

فقال هارون سألت عن معنى البذاذة فقال هو الدون من اللباس ، فمن طلب التواضع فليقتد به ﷺ ، ومن لم يرض لنفسه بذلك فما أشد جهله فلقد كان ﷺ أعظم خلق اللّه فى الدنيا والدين ، فلا عز ولا رفعة إلا فى الاقتداء به .

قال كعب : ما أنعم اللّه على عبد من نعمه فى الدنيا فشكرها للّه إلا أعطاه اللّه نفعها فى الدنيا ورفع بها درجته فى الآخرة .

الطريق فى معالجة الكبر واكتساب التواضع :

أعلم أن الكبر من المهلكات وإزالته فرض عين ، ولا يزول بمجرد التمنى بل بالمعالجة وفى معالجته مقامان « أحدهما » قطع شجرته من مغرسها فى القلب .

الثانى : دفع العارض منه بالأسباب التى قد يتكبر فيها .

المقام الأول : فى استئصال أصله ، وعلاجه علمى وعملى ولا يتم الشفاء إلابمجموعهماإن شاء اللّه تعالى . « أما العلمى » فهو أن يعرف نفسه ويعرف صفات ربه تبارك وتعالى ويكفيه ذلك فى إزالة الكبر فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلا التواضع ، وإذا علم صفات ربه عز وجل علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا للّه عز وجل .

المقام الثانى : يدفع العارض منه بالأسباب التى ذكرناها فمن تكبر بنسبه فليداو قلبه بمعرفة أن هذا جهل من حيث أنه تعزز بكمال غيره ولذلك قال الشاعر :

لَئِنْ فَخَرْتَ بَآبَاءٍ ذَوِى نَسَبٍ ... لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنِ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

ومن كان خسيسًا فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ، وبمعرفة نسبه الحقيقى أعنى أباه وجده فإن أباه القريب وجده البعيد تراب ولقد عرف اللّه تعالى نسبه

فقال : ﴿ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِن مَّاءٍ مَهِينٍ ﴾ [السجدة : ٧ ، ٨] .

أما التكبر بالغنى وكثرة المال وفى معناه كثرة الأتباع والأنصار والتكبر بالمناصب والولايات فكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان وهذا أقبح أنواع الكبر ، فلو ذهب ماله أو احترقت داره لعاد ذليلا وكم فى اليهود من يزيد عليه فى الغنى والثروة والتجمل فأفٍ لشرف يسبقه به يهودى أو يأخذه سارق فى لحظة فيعود ذليلا مفلسا .

أما التكبر بالعلم والعبادة وهو أعظم الآفات بأمرين :

أحدهما : أن يعلم أن حجة اللّه على أهل العلم آكد وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عُشْرُهُ من العالم ، فإن عصى اللّه تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش وخطره أعظم .

ثانيهما : أن يعرف أن الكبر لا يليق إلا باللّه عز وجل وحده ، وأنه إذا تكبر صار عند اللّه ممقوتا بغيضا ، فهذا مما يزيل التكبر ويبعث على التواضع .

١٢ – داء العجـــب*

اعلم أن العجب مذموم فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى : « **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا** » [التوبة : ٢٥] وقال الله عز وجل : ﴿ **وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا** ﴾ [الحشر : ٢] فرد على الكفار فى إعجابهم بحصونهم وشوكتهم . وقال تعالى : ﴿ **وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** ﴾ [الكهف : ١٠٤] وهذا يرجع أيضا إلى العجب بالعمل وقال ﷺ : « **ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات فتقوى الله فى السر والعلانية ، والقول بالحق فى الرضا والسخط ، والقصد فى الغنى والفقر وأما المهلكات فهوى متبع وشح مطاع وإعجاب المرء بنفسه وهى أشدهن** »(١) وقال ﷺ : « **بينما رجل يتبختر فى بردين وقد أعجبته نفسه ، خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة** »(٢) . قوله : يتجلجل فى الأرض أى ساخ فيها .

وقال ابن مسعود : الهلاك فى اثنين : القنوط والعجب .

وإنما جمع بينهما لأن السعادة لاتنال إلا بالسعى والطلب والجد والتشمير ، القنـوط لا يسعى ولا يطلب ، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وظفر بمراده فلا

(*) إحياء علوم الدين .

(١) رواه البزار (رقم – ٨٠) ، وأبو نعيم فى الحلية (٢/ ٣٤٣) والبيهقى فى شعب الإيمان (١/٣٨٢/٢) وقال الألبانى بعد أن ذكر طرقه وبالجملة فالحديث بمجموع هذه الطرق حسن على أقل الدرجات إن شاء الله وبه جزم المنذرى – الصحيحة (١٨٠٢) .

(٢) رواه البخارى (٢٥٨/١٠) اللباس ، ومسلم (٦٣/١٤ ، ٦٤) اللباس .

يسعى ، وقال اللّه تعالى : ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ [البقرة : ٢٦٤] والمن نتيجة استعظام العمل وهو العجب .

بيان خطر داء العجب :

اعلم أن خطر داء العجب عظيم فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر آفات كثيرة لا تخفى هذا مع العباد ، وأما مع اللّه تعالى فالعجب يدعو إلى إهمال الذنوب ونسيانها ، فلا يحدث لها توبة ويستعظم أعماله وطاعاته ويمن على اللّه بفعلها ، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر اللّه وعذابه ويظن أنه عند اللّه بمكان ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ ، ويمنعه عجبه عن سؤال أهل العلم فهذا وأمثاله من آفات العجب ، فلذلك كان من المهلكات ومن أعظم آفاته أن يفتر فى السعى لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح نسأل اللّه العظيم حسن التوفيق لطاعته .

بيان علاج العجب على الجملة :

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده وعلة العجب الجهل المحض ، أى جهل العبد بنفسه وبربه عز وجل فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، فالعجب إما بالعلم أو المال أو النسب وكل ذلك بفضل اللّه عز وجل ومنه ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] والحسنة فى الآية هى النعمة والسيئة هى المصيبة وأعظم النعم هى نعمة الهداية والتوفيق للعلم والعمل فمنشأ العجب هو الجهل وكفران نعمة اللّه عز وجل على العبد قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور : ٢١] والعبد مهما بلغ فى العلم والعمل فإنه لا يدخل به الجنة حتى

يتغمده اللّه عز وجل برحمته كما قال سيد الخلق ﷺ وأفضلهم لأصحابه وهم خير الناس : « **ما منكم من أحد ينجيه عمله قالوا : ولا أنت يا رسول اللّه قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى اللّه برحمته** »[1] .

قال بعضهم : لا تغتر بكثرة العمل فإنك لا تدرى أيقبل منك أم لا ، ولا تأمن من الذنوب فإنك لا تدرى كُفِّرَت عنك أم لا ، إن عملك كله مغيب عنك . أما المال فليس للعبد فضل فيه بل هو محض فضل من اللّه عز وجل وقد أخبر اللّه عز وجل عن الكافر الذى أعجب بماله فقال : ﴿ **أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا** ﴾ [الكهف : ٣٤] .

وقال عن قارون : ﴿ **إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى** ﴾ [القصص : ٧٨] وأخبر اللّه عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقال ﷺ : « **إن اللّه أذهب عنكم عبية الجاهلية – أى كبرها – كلكم بنو آدم وآدم من تراب** »[2] .

---

(١) رواه البخارى (٢٩٤/١١) الرقاق ، ومسلم (١٥٩/١٧) صفة القيامة ، وأحمد (٤٥١/٣٢) ، والدارمى (٣٠٥/٢ ، ٣٠٦) .

وانظر شرح الحديث فى الفتح (٢٩٥/١١ ، ٢٩٦) وكذلك كلام شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم .

(٢) رواه أبو داود (٥٠٩٤) الأدب ، والترمذى (٣٠٠/١٣) المناقب وقال : هذا حديث حسن غريب وحسنه الألبانى .

١٣ - التوبــة(*)

التوبة من الذنوب بالرجوع إلى علام الغيوب وغفار الذنوب مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول اقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين .

ومنزل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه ونزل به ، فالتوبة هى بداية الطريق ونهايته وقد قال تعالى : ﴿ **وَتوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور : ٣١] .

وهذه الآية فى سورة مدنية خاطب اللّه بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة وأتى بكلمة لعل إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون - جعلنا اللّه منهم - وقال تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾ [الحجرات : ١١] فقسم العباد إلى تائب وظالم وليس ثَمَّ قسم ثالث ، وأوقع اسم الظلم على من لم يتب ، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات عمله ، وقد قال ﷺ : « **يا أيها الناس توبوا إلى اللّه ، فو اللّه إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة** »[1] وهو أعلم الخلق باللّه عز وجل .

والتوبة هى رجوع العبد إلى اللّه ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين .

(*) مدارج السالكين ، رياض الصالحين .

(١) تقدم تخريجه (ص : ١٦) .

شرائط التوبة :

إذا كان الذنب فى حق اللّه عز وجل فشرائط التوبة ثلاثة هى الندم ، والإقلاع عن الذنب ، والعزم على عدم العودة .

فأما الندم فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه ، وأما الإقلاع عن الذنب فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

والشرط الثالث : هو العزم على عدم العودة ، ويعتمد أساسا على إخلاص هذا العزم والصدق فيه ، وشرط بعض العلماء عدم الذنب ، وقال متى عاد إليه تَبَيَّنَّا أن توبته كانت باطلةً غير صحيحة ، والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط ، فكم من محبٍ للصحة ويأكل ما يضره .

أما إذا كان الذنب متضمنا لحق آدم فعلى التائب أن يصلح ما أفسد ، أو يسترضى من أخطأ فى حقه لقوله ﷺ : « **من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات** »[1] فهذا الذنب يتضمن حقين : حق اللّه ، وحق الآدمى ، فالتوبة منه بتحلل الآدمى لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين اللّه لأجل حقه .

بعض التوبات الخاصة :

- إذا كانت المظلمة بقدح فى الآدمى بغيبة أو بقذف فهل يشترط إعلامه ؟

اشترط أبو حنيفة ومالك وغيرهما الإعلام ، واحتجوا بالحديث السابق ، والقول الآخر أنه لا يشترط الإعلام بل يكفى توبته بينه وبين اللّه وأن يذكر

---

(١) رواه البخارى (١٠١/٥) المظالم ، والترمذى (٢٥٤/٩) صفة القيامة بمعناه .

المغتاب أو المقذوف فى مواضع غيبته أو قذفه بضد ما ذكره به ، ويستغفر له وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، واحتج لذلك بأن إعلامه مفسدة محضة لا تتضمن مصلحة وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه فضلا عن أن يوجبه أو يأمر به .

● أما توبة من اغتصب مالا فعليه رد هذا المال إلى أصحابه ، فإن تعذر عليه رده لجهله بأصحابه أو لانقراضهم أو لغير ذلك فعليه أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها ، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق كان لهم الخيار بين أن يجرزوا ما فعل وتكون أجورها لهم ، وبين أن لا يجيزوا ما فعل ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم ، ويكون ثواب تلك الصدقة له إذ لا يبطل اللّه سبحانه ثوابها ، فقد روى أن ابن مسعود رضى اللّه عنه اشترى من رجل جارية ، ودخل يزن له الثمن ، فذهب رب الجارية ، فانتظره حتى يئس من عودته ، فتصدق بالثمن وقال للهم هذا عن رب الجارية ، فإن رضى فالأجر له ، وإن أَبى فالأجر لى ، وله من حسناتى بقدره .

● وأما توبة من عاوض غيره معاوضة محرمة وقبض العوض كبائع الخمر والمغنى وشاهد الزور ثم تاب والعوض بيده ، فقالت طائفة يرده إلى مالكه إن هو عين ماله ولم يقبضه بإذن الشارع ولا حصل لربه فى مقابلته نفع مباح ، وقالت طائفة وهو الأصوب بل توبته بالتصدق به وكيف يرد إلى دافعه مالا استعان به على معاصى اللّه وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بمال حرام وتعذر عليه تمييزه فعليه أن يقدر الحرام ويتصدق به ويطهر بقية ماله واللّه أعلم .

مســـألة :

إذا تاب العبد من الذنب هل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التى حطه عنها الذنب أو لا يرجع إليها ؟

قالت طائفة : يرجع إلى درجته لأن التوبة تجب الذنب بالكلية وتصيره كأن لم يكن .

وقالت أخرى : لا يعود إلى درجته وحاله لأنه لم يكن فى وقوف وإنما كان فى صعود فبالذنب صار فى هبوط فإذا تاب نقص منه ذلك القدر الذى كان مستعدا به للترق .

قال شيخ الإسلام : والصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصير خيرا مما كان قبل الذنب وكان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة .

قال ابن القيم رحمه الله : وهنا مثل مضروب ، رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن فهو يعدو مرة ويمشى أخرى ويستريح تارة وينام أخرى، فبينما هو كذلك إذ عَرَضَ له فى سيره ظل ظليل وماء بارد ومقيل وروضة مزهرة ، فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن فنزل عليها فوثب عليه منها عدو فأخذه وقيده ومنعه عن السير فعاين الهلاك وظن أنه منقطع به وأنه رزق الوحوش والسباع وأنه قد حيل بينه وبين مقصده الذى يؤمه ، فبينما هو على ذلك تتقاذفه الظنون إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر فحل كتافه وقيوده وقال له اركب الطريق واحذر هذا العدو فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد واعلم أنك ما دمت حاذرا منه متيقظا له لا يقدر عليك فإذا غفلت وثب عليك وأنا متقدمك إلى المنزل وفَرَط لك فاتبعنى على الأثر ، فإذا كان هذا السائر كَيِّسًا فطنا لبيبا حاضر الذهن والعقل استقبل سيره استقبالا آخر أقوى من الأول وأتم واشتد حذره وتأهب لهذا العدو وأعد له عدته فكان سيره الثانى أقوى من الأول وخيرا منه ، ووصوله إلى المنزل أسرع وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد عاد كما كان وهو مُعَرَّضٌ لما عرض له أولا ، وإن أورثه ذلك توانيا فى سيره وفتورا وتذكر الطيب وقيله وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان .

التوبـة النصـــوح :

قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [التحريم : ٨] الآية وعن أبي موسى الاشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها** »[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه** »[2] .

وعن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « **إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر** »[3] والغرغرة هى بلوغ الروح الحلقوم .

والنصح فى التوبة هو تخليصها من كل غش ونقص وفساد .

قال الحسن البصرى : هى أن يكون العبد نادما على ما مضى مجمعا على أن لا يعود فه .

وقال الكلبى : أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن .

وقال سعيد بن المسيب : « تَوْبَةً نَصُوحًا » تنصحون بها أنفسكم .

---

(١) رواه مسلم (٧٦/١٧) التوبة .

(٢) رواه مسلم (٢٥/١٧) الذكر والدعاء .

(٣) رواه الترمذى (٥٨/١٣) الدعوات ، وأحمد (٦١٦٠ شاكر ، وابن ماجة (٤٢٥٣) ، والحاكم (٢٥٧/٤) التوبة وصححه ووافقه الذهبى وقال الترمذى : حسن غريب ، وقال العلامة أحمد شاكر : إسناده صحيح وحسنه الألبانى .

وقال ابن القيم : النصح فى التوبة يتضمن ثلاثة أشياء :

الأول : تعميم جميع الذنوب واستغراقها بحيث لا تدع ذنبا إلا تناولته .

الثانى : إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرا بها .

الثالث : تخليصها من الشوائب والعلل القادحة فى إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من اللّه وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده ، لا كمن يتوب لحفظ حاجته وحرمته ومنصبه ورياسته ولحفظ قوته وماله ، أو استدعاء حمد الناس أو الهروب من ذمهم ، أولئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى صحتها وخلوصها للّه عز وجل .

فالأول يتعلق بما يتوب منه ، والثانى يتعلق بذات التائب ، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه ، فنصح التوبة الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب ، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهى أكمل ما يكون من التوبة .

وتوبة العبد إلى اللّه محفوفة بتوبة من اللّه عليه قبلها وتوبة منه بعدها ، فتوبته بين توبتين من ربه سابقة ولاحقة ، **فإنه تاب عليه أولا إذناً وتوفيقا وإلهاما فتاب العبد ، فتاب اللّه عليه ثانيا قبولا وإثابة وذلك لقوله عز وجل : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾** [التوبة : ١١٨] فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم وأنها هى التى جعلتهم تائبين فكانت سببا مقتضياً لتوبتهم وهذا القدر من سر إسميه « الأول والآخر » ، فهو المعد والممد ، ومنه السبب والمسبب ، والعبد تواب والرب تواب ، فتوبة العبد رجوعه إلى سيده بعد الإباق وتوبة الرب نوعان : إذن

وتوفيق ، وقبول وإنابة ، والتوبة لها مبدأ ومنتهى فمبدؤها الرجوع إلى الله بسلوك الصراط المستقيم الذى أمر بسلوكه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ونهايتها الرجوع إليه فى الميعاد وسلوك صراطه الذى نصبه موصلا إلى جنته فمن رجع إلى اللّه فى هذه الدار بالتوبة رجع إليه فى المعاد بالثواب قال اللّه عز وجل : ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان : ٧١] .

اتهام التوبـة :

- من اتهام التوبة ضعف العزيمة والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة وتذكر حلاوة مواقعته .
- ومنها طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب حتى كأنه قد أعطى منشورا بالأمان فهذا من علامات التهمة .
- ومنها جمود العين واستمرار الغفلة وأن لا يستحدث أعمالا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة .

علامـات صحة التوبـة :

- منها : أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها .
- ومنها أن لا يزال الخوف مصاحبا له لا يأمن مكر اللّه طرفة عين ، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه : ﴿ أَن لَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] فهناك يزول خوفه .
- ومنها : إنخلاع قلبه وتقطعه ندما وخوفا ، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً

فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّا أن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٠] قال : تقطعها بالتوبة ، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه وهذا حقيقة التوبة ، لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفا من سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط تقطع فى الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين ، فلابد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

● ومنها : كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شىء ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد ، وإنما هى أمر وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة عامة قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدى ربه طريحا ذليلا خاشعا ، كحال عبد آبق من سيده فأخذ فأحضر بين يديه ولم يجد من ينجيه من سطوته ولم يجد منه بُدًّا ولا عنه غناء ولا منه مهربا ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه ، وقد علم إحاطة سيدة بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزة وقوة سيده ، وذله وعز سيده .

فيجتمع فى هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد وما أجدى عائدتها عليه وما أعظم جبره بها وما أقربه بها من سيده ، فليس شىء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستلام له ، فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال :

أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى .

أسألك بقوتك وضعفى وبغناك عنى وفقرى إليك .

هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواى كثير وليس لى سيد سواك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك

رقبته ورغم لك أنفه وفاضت لك عيناه وذل لك قلبه .

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُـه ... وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أُحَـاذِرُهُ
لَايَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ... وَلا يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة وما أسهلها باللسان والدعوى .

أسرار التوبة ولطائفها :

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه خطيئة فله نظر إلى ثلاثة أمور :

أحدها : أن ينظر إلى أمر الله ونهيه فيحدث له ذلك الاعتراف بكونها خطيئة والإقرار على النفس بالذنب .

الثانى : أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيحدث له ذلك خوفا وخشية يحمله على التوبة .

الثالث : أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها وتقديرها عليه وأنه لو شاء لعصمه منها ؛ فيحدث له ذلك أنواعا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته ومغفرته وحلمه وكرمه ، وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء لا تحصل بدون لوازمها ألبتة ، ويعلم ارتباط الخلق والأمر والجزاء والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته وأن ذلك موجب الأسماء والصفات وأثرها فى الوجود ، وأن كل اسم وصفة مقتض لأثره وموجبه متعلق به لابد منه .

هذا المشهد بأسمائه يطلعه على رياض مُونقةٍ من المعارف والإيمان وأسرار القدر والحكمة يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم .

● فمنها : أن يعرف عزة الله فى قضائه وهو أنه سبحانه العزيز الذى يقضى بما يشاء وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء ، وحال بين العبد وقلبه وجعله مريدا شائيا لما شاء فيه العزيز الحكيم ، وهذا من كمال العزة إذ لا يقدر على ذلك إلا الله ، وغاية المخلوق أن يتصرف فى بدنك وظاهرك وأما جعلك مريدا شائيا لما يشاؤه منك ويريده فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة ، فإذا عرف العبد عز سيده ولا حظه بقلبه وتمكن شهوده منه كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له ، لأنه يصير مع الله لامع نفسه .

– ومن معرفة عزته فى قضائه : أن يعرف أنه مُدَبَّر مقهور ناصيه بيد غيره لا عصمة له إلا بعصمته ولا توفيق له إلا بمعونته فهو ذليل حقير فى قبضة عزيز حميد .

– ومن شهود عزته أيضا فى قضائه : أن يشهد أن الكمال والحمد والغناء التام والعزة كلها لله وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم والعيب والظلم والحاجة وكلما ازداد شهوده لذله ونقصة وعيبه وفقره ازداد شهوده لعزة الله وكماله وحمده وغناه وكذلك بالعكس فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة .

● ومنها : أن يعرف برّه سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية مع كمال رؤيته له ولو شاء لفضحه بين خلقه ، وهذا من كمال بره ومن أسمائه (البر) وهذا البر من سيده كان عن كمال غناه وكمال فقر العبد إليه ، فيشتغل بمطالعة هذه المنه ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم ، فيذهل عن ذكر الخطيئة فيبقى مع الله سبحانه وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته وشهود ذل معصيته ، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه هو المطلب الأعلى والمقصد الأسنى .

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقا ، بل فى هذه الحال فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة وذكر الجناية ، ولكل وقت ومقام عبودية تليق به .

● ومنها شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة ولو شاء لعاجله بالعقوبة ولكنه الحليم الذى لا يعجل بالعقوبة فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه (الحليم) ومشاهدة صفه « الحلم » والتعبد بهذا الاسم والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب أحب إلى الله وأصلح للعبد وأنفع من فوتها ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع .

● ومنها : معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر فيه إذا اعتذر إليه بالتوبة لا بالاحتجاج بالقدر فإنه مخاصمة ومحاجة ، فيقبل عذره فيوجب له ذلك اشتغالا بذكره وشكره ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده . والواقع شاهد بذلك فعبودية التوبة بعد الذنب لون وهذا لون آخر .

● ومنها : أن يشهد فضله فى مغفرته فإن المغفرة فضل من الله وإلا فلو أخذك بمحض حقه كان عادلا محمودا وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك أيضا شكرا له ومحبة وإنابة وفرحا وابتهاجا به ومعرفة له باسمه (الغفار) ومشاهدة لهذه الصفة وتعبدا بمقتضاها وهذا أكمل فى العبودية والمحبة والمعرفة .

● ومنها : أن يكمل لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه والافتقار إليه ، فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية ، ولو قدرت لقالت مثل قول فرعون ، ولكنه قدر فأظهر وغيره عجز فأضمر ، إنما يخلصها من هذه المضاهاة ذل العبودية وهو أربع مراتب :

المرتبة الأولى : مشتركة بين الخلق وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله ، فأهل السماوات والأرض جميعا محتاجون إليه فقراء إليه وهو وحده الغنى عنهم .

المرتبة الثانية : ذل الطاعة والعبودية ، وهو ذل الاختيار وهذا خاص بأهل طاعته وهو سر العبودية .

المرتبة الثالثة : ذل المحبة فإن المحب ذليل بالذات وعلى قدر محبته له يكون ذله كما قيل :

مَسَاكِينُ أَهْلُ الحُبِّ حَتَّى قُبُورُهُمْ عَلَيْهَا تُرابُ الذُّلِّ بينَ المَقَابِرِ

المرتبة الرابعة : ذل المعصية والجناية :

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم إذ يذل له خوفا وخشية ومحبة وإنابة وطاعة وفقرا وفاقة .

● ومنها : أن أسماءه الحسنى تقتضى آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها فاسم (السميع البصير) يقتضى مسموعا ومبصرا واسم (الرزاق) يقتضى مرزوقا واسم (الرحيم) يقتضى مرحوما ، وكذلك أسماء (الغفور والعفو والتواب) يقتضى من يغفر لهويتوب عليه ويعفو عنه ، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات إذ هى أسماء كمال ونعوت جلال ، وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول : « **والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم** »[1] .

فإذا فرضت أن المعصية والخطيئة منتفية عن العالم فلمن يغفر وعمن يعفو وعلى من يتوب ويحلم ، وإذا فرضت الفاقات كلها قد سدت والعبيد أغنياء معافون فأين السؤال والتضرع والابتهال والإجابة وشهود الفضل والمنة والتخصيص بالإنعام والإكرام ، فسبحان من تعرف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات ودلهم عليه ﴿ **لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

---

(١) رواه مسلم (٦٤/١٧) التوبة ، والترمذى (٥٢٣/٩ تحفه) الدعوات وانظر طرق الحديث فى الصحيحة رقم ٩٧٠ .

ومنها : السر الأعظم الذى لا تقتحمه العبارة ، ولا تجسر عليه الإشارة ، وينادى عليه منادى الإيمان على رؤوس الأشهاد ، بل شهدته قلوب خواص العباد فازدادت به معرفة لربها ومحبة له وطمأنينة به وشوقا إليه ولهجا بذكره وشهودا للطفه وكرمه وإحسانه ومطالعة لسر العبودية وإشرافا على حقيقة الإلهية ، وهو ما ثبت فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلة بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح** »(١) .

وقد بين النبى ﷺ محبة الرب جل وعلا للتوبة فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، فأوجبت هذه المحبة فرحا كأعظم ما يقدر من الفرح ، ولو كان فى الفرح المشهود فى هذا العام نوع أعظم من فرحة هذا الواجد لمادة حياته وبلاغه فى سفره بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده راحلته وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا أشتدت محبته للشىء وغاب عنه ثم وجده وصار طوع يده فلا فرحة أعظم من فرحته به .

فما الظن بمحبوب لك تحبه حبا شديدا أسره عدوك وحال بينك وبينه وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ويعرضه لأنواع الهلاك ، وأنت أولى به منه ، وهو غرسك وتربيتك ، ثم إنه انفلت من عدوه ووافاك على غير ميعاد ، فلم يفجأك إلا وهو على بابك يتملقك ويترضاك ويستعينك ويمرغ خديه على تراب أعتابك ، فيكف يكون فرحك به وقد اختصصته لنفسك ورضيته لقربك وآثرته على سواه .

---

(١) رواه مسلم (٦٣/١٧) التوبة واللفظ له ، والبخارى مختصرا (١٠٢/١١) الدعوات ورواه مطولا من حديث عبد الله بن مسعود (١٠٢/١١) الدعوات .

هذا ولست الذى أوجدته وخلقته وأسبغت عليه نعمك والله عز وجل هو الذى أوجد عبده وخلقه وكونه وأسبغ عليه نعمة وهو يحب أن يتمها عليه فيصير مظهرا لنعمه قابلا لها شاكرا لها محبا لوليها ومطيعا له عابدا معاديا لعدوه ومبغضاً له عاصيا له ، وفى التوبة من ذلك أوفر نصيب ، فكانت بذلك التوبة من أحب العبادات إلى الله تعالى ، نسأل الله أن يرزقنا توبة نصوحا .

١٤ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(*)

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين ، وهو المهم الذى ابتعث الله له النبيين أجمعين ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذى خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد إندرس هذا القطب علمه وعمله ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس فى اتباع الهوى والشهوات واسترسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه فى الله لومة لائم ، فمن سعى فى تلافى هذه الفترة وسد هذه الثلمة ، إما متكفلا بعلمها أو متقلدا لتنفيذها مجددا لهذه السنة الدائرة ، ناهضا بأعبائها ومشتمرا فى إحيائها ، كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها .

وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفضيلته :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ففى الآية بيان الإيجاب فإن قوله ﴿ **وَلْتَكُنْ** ﴾ أمر ، وظاهر الأمر

(*) إحياء علوم الدين - جامع العلوم والحكم - رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لشيخ الإسلام ابن تيمية .

الإيجاب ، وفيها أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال : ﴿ **وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية لافرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ، إذ لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف بل قال : ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ** ﴾ فإنه مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين ، وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة .

وقال تعالى : ﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [آل عمران : ١١٣ ، ١١٤] فلم يشهد اللّه عز وجل لهم بالصلاح بمجرد الإيمان باللّه واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقال تعالى : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ** ﴾ [التوبة : ٧١] فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فالذى هجر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين فى هذه الآية .

وقال تعالى : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [المائدة : ٧٨ ، ٧٩] .

وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للنعة بتركهم النهى عن المنكر ، وقال عز وجل : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ [آل عمران : ١٠] وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إذ بين أنهم كانوا به خير أمة أخرجت للناس .

وقال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٦٥] فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهى عن السوء .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان** »(١) دل هذا الحديث على أن إنكار المنكر يجب بحسب القدرة عليه ، أما إنكار القلب فلا بد منه ، فإذا لم ينكر القلب دل على ذهاب الإيمان منه ، سمع ابن مسعود رجلا يقول هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر فقال ابن مسعود : هلك من لم يعرف بقلبه المعروف والمنكر . فالإنكار باليد واللسان يكون بحسب الطاقة ، أما معرفة المعروف والمنكر بالقلب ففرضٌ لا يسقط عن أحد ، فمن لم يعرفه هلك ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : يوشك من عاش منكم أن يرى منكرا لا يستطيع له غير أن يعلم الله من قلبه أنه له كاره . قوله ﷺ : « **من رأى منكم منكرا** » يدل على أن الإنكار متعلق بالرؤية ، فإن كان مستورا فلم يره ولكن علم به فالراجح أنه لا يتعرض له وأنه لا يفتش عما استراب به ، قيل لابن مسعود : إن فلانا تقطر لحيته خمرا فقال : نهانا الله عن التجسس ، وقوله : « **وذلك أضعف الإيمان** » يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من خصال الإيمان ، ويدل على أن من قدر على خصلة من خصال الإيمان وفعلها كان أفضل ممن تركها عجزا ، ويدل على ذلك أيضا قوله ﷺ فى حق النساء : « **أما نقصان دينها فإنها تمكث الأيام والليالى لا تصلى** »(٢) يشير إلى أيام الحيض ، مع أنها ممنوعة حينئذ من الصلاة ، وقد جعل

---

(١) رواه مسلم (٢/٢٢ ، ٢٥) الإيمان ، والترمذى (٩/١٨ ، ١٩) الفتن وأبو داود (١١٢٨) صلاة العيدين ، والنسائى (٨/١١١ ، ١١٢) الإيمان ، وابن ماجة (٤٠١٣) الفتن .

(٢) رواه البخارى (١/٤٠٥) الحيض بمعناه ، ومسلم (٢/٦٦) الإيمان وابن ماجة (٤٠٠٣) الفتن .

ذلك نقصا فى دينها ، فدل على أن من قدرعلى واجب وفعله فهو أفضل ممن عجز عنه وتركه وإن كان معذورا فى تركه .

وعن النبى ﷺ قال : « **والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابا من عنده ثم لتدعنه ولا يستجاب لكم** »(١) .

وعنه ﷺ قال : « **مثل المداهن فى حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا فى سفينَةٍ فصار بعضهم فى أسفلها وصار بعضهم فى أعلاها ، فكان الذى فى أسفلها يمر بالماء على الذين فى أعلاها ، فتأذوا به فأخذ فأسا فجعل ينقر أسفل السفينة فأتوه فقالوا : مالك ؟ قال : تأذيتم بى ولا بد لى من الماء ، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم** »(٢) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **ما من نبى بعثه الله فى أمه قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل** »(٣) .

وعن أبى بكر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **ما من قوم يعمل**

---

(١) رواه الترمذى (١٧/٩) الفتن وقال : هذا حديث حسن، وحسنه الألبانى فى صحيح الترمذى (١٧٦٢) وتحقيق المشكاة ٥١٤٠ .

(٢) رواه البخارى (١٣٢/٥) الشركة ، والترمذى (١٩/٩) الفتن .

(٣) رواه مسلم (٢٧/٢) الإيمان .

فيهم بالمعاصى هم أعز وأكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب »[1] .

من هم الآمرون بالمعروف :

هنا يغلط فريقان من الناس .

فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنهى متأولا قوله عز وجل : ﴿ **عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ** ﴾ [المائدة : ١٠٥] قال طائفة من الصحابة : لم يأت تأويلها بعد إنما تأويلها فى آخر الزمان .

وعن مكحول قال : لم يأت تأويلها بعد ، إذا هاب الواعظ ، وأنكر الموعوظ ، فعليك حينئذ بنفسك ، لا يضرك من ضل إذا اهتديت .

الفريق الثانى : من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقا من غير فقه ولا حلم ولا صبر ، ولا نظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح وما يقدر عليه وما لا يقدر ، فيأتى بالأمر والنهى معتقدا أنه مطيع لله ولرسوله وهو معتد فى حدوده ، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهى فكان إفسادهم أعظم من إصلاحهم .

الصراط المستقيم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

العلم : – لابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ، ولابد من العلم بحال المأمور وحال المنهى ، فإن العمل لا يكون صالحا إن لم يكن بعلم وفقه ، كما قال عمر بن عبد العزيز : من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

---

(١) رواه أبو داود (٤٣١٦) الملاحم ، وابن ماجة (٤٠٠٥) ، وأحمد رقم (١٦/١ ، ٢٩ ، ٥٣ شاكر) وصححه الألبانى .

وقال معاذ رضى الله عنه : العلم أمام العمل والعمل تابعه وهذا ظاهر فإن القصد والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا واتباعا للهوى .

فإذا علم العبد أن إنكار منكر معين يترتب عليه منكر أكبر منه فإنه يحرم إنكاره ، وإذا ترتب عليه إزالة معروف أكثر منه يحرم الإنكار كذلك ، كما ترك النبى ﷺ عبد الله بن أبى بن سلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما لهم من أعوان ، فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزم إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم وبنفور الناس إذا سمعوا أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه .

فينبغى قياس المصالح والمفاسد المترتبة قبل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الرفق : لابد من الرفق فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما قال ﷺ : **« ما كان الرفق فى شىء إلا زانه ولا كان العنف فى شىء إلا شانه »**[1] وقال ﷺ : **« إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف »**[2] وعن جرير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« من يحرم الرفق يحرم الخير »**[3] .

قال الإمام أحمد : يأمر بالرفق والخضوع فإن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيكون كمن يريد أن ينتصر لنفسه ، كان أصحاب ابن مسعود إذا مروا بقوم يرون منهم ما يكرهون يقولون : مهلا رحمكم الله مهلا رحمكم الله .

قال سفيان الثورى : لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال : رفيق بما يأمر رفيق بما ينهى ، عدل بما يأمر عدل بما ينهى ، عالم بما يأمر عالم بما ينهى .

---

(١) رواه مسلم (١٤٦/١٦) البر والصلة ، وأبو داود (٢٤٦١) الجهاد وأحمد (٥٨/٦) .
(٢) رواه البخارى (٢٨٠/١٢) الاستتابة ، ومسلم (١٤٦/١٦) البر والصلة .
(٣) رواه مسلم (١٤٥/١٦) البر والصلة .

الصبر : لابد أيضا أن يكون الناصح حليما صبورا على الأذى فإنه لابد أن يحصل له أذى كما قال لقمان لابنه : ﴿ **وَأْمُرْ بِالْمعرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَاأَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمورِ** ﴾ [لقمان : ١٧] ولهذا أمر الله الرسل وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالصبر كقوله عز وجل لخاتم الرسل ﷺ : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرْ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ [المدثر : ١ ، ٧] .

فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة وختمها بالأمر بالصبر .

وقال تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا** ﴾ [الطور : ٤٨] وقال تعالى ؛ ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** ﴾ [المزمل : ١٠] وقال تعالى : ﴿ **وَاصْبِر وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ** ﴾ [النمل : ١٣٧] فلا بد من هذه الثلاثة : العلم والرفق والصبر ، العلم قبل الأمر والنهى ، والرفق معه ، والصبر بعده .

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما يوجب صعوبته على كثير من النفوس فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه ، وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال أو أقل ، فإن ترك الواجب معصية ، وفعل ما نهى الله عنه فى الأمر معصية ، فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار ، والمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل ، قد يكون الثانى شرا من الأول ، وقد يكون دونه ، وقد يكونان سواء ، فهكذا تجد المقصر فى الأمر والنهى والمعتدى فيه ، قد يكون ذنب هذا أعظم وقد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكونان سواء .

الدافع إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تارة يحمل عليه رجاء ثوابه ، وتارة خوف العقاب فى تركه ، وتارة الغضب لله على انتهاك محارمه ، وتارة النصيحة للمؤمنين والرحمة لهم ورجاء إنقاذهم مما أوقعوا أنفسهم فيه من التعرض لعقوبة الله وغضبه فى الدنيا والآخرة ، وتارة يحمل عليه إجلال الله وإعظامه ومحبته ، وأنه أهل أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وأنه يفتدى من انتهاك محارمه بالنفوس والأموال ، كما قال بعض السلف : وددت أن الخلق كلهم أطاعوا الله وأن لحمى قرض بالمقارض ، وكان عبد الملك بن عمر ابن عبد العزيز يقول لابيه : وددت أنى غلت بى وبك القدور فى الله تعالى ، من لحظ هذا المقام والذى قبله هان عليه كل ما يلقى من الأذى فى الله تعالى وربما دعا لمن آذاه .

١٥ - الجهـاد فى سبيل اللّه*

الجهاد لغة : معناه بذل الجهد ، وشرعا : هو بذل الجهد فى مقاتلة المشركين والبغاة ، ولم يشرع الجهاد إلا بعد الهجرة ، فقد كان المسلمون فى مكة مأمورين بأن يكفوا أيديهم ويقابلوا أذى المشركين بالعفو والصبر فلما هاجروا إلى المدينة وانضموا إلى إخوانهم الأنصار قويت شوكتهم واشتد جناحهم فأذن لهم حينئذ فى القتال ممن ظلموهم بمكة ، ولكنه لم يفرض عليهم فقال تعالى : ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ [الحج : ٣٩] ثم فرض عليهم بعد ذلك قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٩٠] ثم فرض عليهم بعد ذلك قتال المشركين كافة فقال عز وجل : ﴿ **قَاتِلوا الْمُشْرِكِيْنَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾ [التوبة : ٣٦] فهذه هى مراتب مشروعية الجهاد ، كان أول الأمر محرّما ثم صار مأذونا فيه ، ثم مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع المشركين .

قال الشيخ حسن البنا رحمه اللّه : - وقد أجمع أهل العلم مجتهدين ومقلدين ، سلفيين وخلفيين ، على أن الجهاد فرض كفاية على الأمة الإسلامية لنشر الدعوة ، وفرض عين لدفع هجوم الكفار عليها ، والمسلمون الآن كما تعلم مستذلون لغيرهم محكومون بالكفار قد ديست أرضهم ، وانتهكت حرماتهم ، وتحكم فى شئونهم خصومهم ، وتعطلت شعائر دينهم فى ديارهم فضلا عن نشر

(*) زاد المعاد لابن القيم - فتح البارى شرح صحيح البخارى - الترغيب والترهيب للمنذرى - الجهاد لحسن البنا - السلسلة الصحيحة الألبانى .

دعوتهم ، فوجب وجوبا عينيا لا مناص منه أن يتجهز كل مسلم وأن ينطوى على نية الجهاد وإعداد العدة له حتى تحين الفرصة ويقضى اللّه أمرا كان مفعولا .

إن الأمة التى تحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب لها اللّه الحياة العزيزة فى الدنيا والنعيم الخالد فى الآخرة ، وما الوهن الذى أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت .

وقال الإمام ابن القيم رحمه اللّه :

قال اللّه تعالى : ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة : ٤١] وعلق النجاة من النار به ومغفرة الذنب ودخول الجنة فقال : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [الصف : ١٠ ، ١٢] وأخبرهم أنهم إذا فعلوا ذلك أعطاهم من النصر والفتح القريب فقال : ﴿ **وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ** ﴾ [الصف : ١٣] وأخبر سبحانه أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وأن هذا الوعد قد أودعه أفضل كتبه المنزلة من السماء وهى التوراة والإنجيل والقرآن ، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحد أوفى بعهده منه تبارك وتعالى ، ثم أكد ذلك بأن أمرهم بأن يستبشروا ببيعهم الذى عاقدوه ، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوز العظيم ، فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطرة وأجله ، فإن اللّه عز وجل هو المشترى والثمن جنات النعيم والفوز برضاه والتمتع برؤيته هناك ، والذى جرى على يده هذا العقد أشرف رسله وأكرمهم عليه فى الملائكة والبشر ، وأن سلعة هذا شأنها لقد هيأت لأمرٍ عظيمٍ وخطب جسيمٍ .

قَد هَيَّئُوكَ لِأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ فَارْبَأْ بِنَفسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الهُمَّلِ

مهر المحبة والجنة بذل النفس والمال لمالكهما الذى اشتراهما من المؤمنين ، فما للجبان المعرض المفلس وسوم هذه السلعة ، بالله ما هزلت فيستامها المفلسون ولا كسدت فيبيعها بالنسيئة المعسرون ، لقد أقيمت للعرض فى سوق من يريد ، فلم يرض ربها لها بثمن دون بذل النفوس ، فتأخر البطالون وقام المحبون ينتظرون أيهم يصلح أن تكون نفسه الثمن ، فدارت السلعة بينهم ووقعت فى يد : ﴿ **أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ** ﴾ [المائدة : ٥٤] لما كثر المُدَّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدعوى ، فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلى حرفة الشجي ، فتنوع المدعون فى الشهود ، فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا ببينة : ﴿ **قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران : ٣١] فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الرسول ﷺ فى أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينة وقيل لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿ **يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** ﴾ [المائدة : ٥٤] فتأخر أكثر المدعين للمحبة وقام المجاهدون ، فقيل لهم : إن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم فسلموا ما وقع عليه العقد ، فإن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين ، فلما رأى التجار عظمة المشترى وقدر الثمن وجلالة قدر من جرى عقد التبايع على يديه ومقدار الكتاب الذى أثبت فيه هذا العقد عرفوا أن للسلعة قدرا وشأنا ليس لغيرها من السلع ، فرأوا من الخسران البين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس دراهم معدودة تذهب شهوتها وتبقى تبعتها وحسرتها ، فإن فاعل ذلك معدود فى جملة السفهاء فعقدوا مع المشترى بيعة الرضوان رضاء واختيارا من غير ثبوت خيار ، وقالوا والله لا نقيلك ، ولا نستقيلك فلما تم العقد وسلموا المبيع قيل لهم : قد صارت أنفسكم وأموالكم لنا والآن فقد رددناها عليكم أوفر ما كانت وأضعاف أموالكم معها : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾

[آل عمران : ١٦٩] لم نبتغ منكم بنفوسكم وأموالكم طلبا للربح عليكم بل ليظهر أثر الجود والكرم فى قبول المعيب والإعطاء عليه أجل الأثمان ، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمن .

فَحَيّهَلَا إن كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ فقد حَدَابِكَ حادى الشوق فاطوِ الْمَرَاحِلَا
وَقُلْ لِمُنَادِي حُبِّهِمْ وَرِضَاهُم إذا مَا دَعَا لَبَّيكَ أَلْفَا كَوَامِلَا
وَلَا تَنْظُر الأَطْلَالَ مِن دُونِهِم فإن نظرتَ إِلَى الأَطلالِ عُدْنَ حَوَائِلَا
وَلا تنتظِر بالسَّيْرِ رِفْقَةَ قَاعِدٍ وَدَعْهُ فَإِنَّ الشَّوق يكفيك حَاملا
فَمَا هِىَ إِلَّا سَاعة ثُمَّ تنقضى وَيُصْبِحُ ذُو الاحزَانِ فرحان جازلا

فضل الجهاد فى سبيل الله :

الآيات :

قال الله تعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

وقال تعالى : ﴿ **إنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [التوبة : ٤١] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ** ﴾ [التوبة : ١١١] .

وقال تعالى : ﴿ **لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينِ غَيْر أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُون فِى سَبِيلِ اللَّهِ بَأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى**

القَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنه وَمغفِرة وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غفُورا رَحيماً ﴾ [النساء : ٩٥] .

الأحــاديث :

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : « **جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال : دلنى على عمل يعدل الجهاد قال : لا أجده ، قال هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر وتصوم ولا تفطر قال : ومن يستطيع ذلك** » .

قال أبو هريرة : إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ فى طِوَلِهِ فيكتب له حسنات[١] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه قال : « **قيل يا رسول اللّه أى الناس أفضل ؟ فقال رسول اللّه ﷺ : مؤمن يجاهد فى سبيل اللّه بنفسه وماله قالوا : ثم من ؟ قال مؤمن فى شعب من الشعاب يتقى اللّه ويدع الناس من شره** »[٢] .

وعن أنس بن مالك رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « **لغدوة فى سبيل اللّه أو روحة خير من الدنيا وما فيها** »[٣] .

وعن سلمان رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان** »[٤] وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال :

---

(١) رواه البخارى (٤/٦) الجهاد ، ومسلم (٢٤/١٣ ، ٢٥) الإمارة .
(٢) رواه البخارى (٦/٦) الجهاد ، ومسلم (٣٣/١٣ ، ٣٤) الإمارة .
(٣) رواه البخارى (١٣/٦) الجهاد ، ومسلم (٢٧/١٣) الإمارة .
(٤) رواه مسلم (٦١/١٣) الإمارة ، والترمذى (١٦٢/٧) فضائل الجهاد ، والنسائى (٣٩/٦) و « الفَتّان » منكر ونكير .

قال رسول الله ﷺ : « **من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق** »[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة** »[2] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد . سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم** »[3] .

قال الألبانى : فذكر أن تسليط الذل ليس هو لمجرد الزرع والحرث بل لما اقترن به من الإخلاد إليه والانشغال به عن الجهاد فى سبيل الله فهذا هو المراد بالحديث وأما الزرع الذى لا يقترن به شيء من ذلك فهو المراد بالأحاديث المرغبة فى الحرث فلا تعارض بينها ولا إشكال .

الآثـــار :

روى الذهبى أن ابن المبارك لما كان مرابطا بطرطوس سنة سبع وسبعين

---

(١) رواه مسلم (١٣/٥٦) الإمارة ، وأبو داود (٢٤٨٥) الجهاد ، والنسائى (٦/٨) الجهاد ، وقال مسلم قال ابن سهم قال عبد الله بن المبارك فنرى أن ذلك كان على عهد رسول الله ﷺ .

قال النووى : وهذا الذى قاله ابن المبارك محتمل وقد قال غيره إنه عام ، والمراد أن من فعل هذا أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد فى هذا الوصف فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق .

(٢) رواه البخارى (٦/٦) الجهاد ، ومسلم بمعناه أطول منه (١٣/٢٠) الإمارة ، ومالك فى الموطأ (١/٤٤٣ ، ٤٤٤) الجهاد والنسائى (٦/٢٠) الجهاد .

(٣) رواه أبو داود (٣٤٤٥) البيوع وقال الألبانى : صحيح لمجموع طرقه وانظر الصحيحة رقم ١١ .

قال الرافعى : وبيع العينة هو أن يبيع شيئا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه المشترى ثم يشتريه قبل قبض الثمن نقداً أقل من ذلك القدر (عون المعبود ٧/٣٣٦ /٣٣٧) .

ومنه أرسل إلى الفضيل بن عياض رسالة فيها هذه الأبيات :

يا عَابِدَ الحَرَمَيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا ... لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي الْعِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يُخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ ... فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتعِبُ خَيْلَهُ فِى بَاطِلٍ ... فَخُيُولُنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتْعَبُ
رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا ... وَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغُبَارُ الأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا ... قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
لَا يَسْتَوِى غُبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فى ... أَنْفِ امرِئٍ وَغُبَارُ نَارٍ تَلْهَبُ
هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا ... لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يُكْذَبُ

فلما قرأها الفضيل ذرفت عيناه ثم قال : صدق أبو عبد الرحمن ونصح ؛ ثم قال للرسول أتكتب الحديث قال : نعم . قال : فاكتب هذا الحديث كراء حملك كتاب أبى عبد الرحمن إلينا ثم أملاه بسنده رواية لحديث أبى هريرة المذكور آنفا فى فضل الجهاد .

فضل الشهادة فى سبيل اللّه :

عن أنس رضى اللّه عنه أن النبى ﷺ قال : « **ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شىء إلا الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ؛ لما يرى من الكرامة** »(١) .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « **والذى نفسى بيده لوددت أن أغزو فى سبيل اللّه فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل** »(٢) .

---

(١) رواه البخارى (٦/٣٢) الجهاد ، ومسلم (١٣/٢٤) الإمارة ، والترمذى (٧/١٦١) فضائل الجهاد .

(٢) رواه البخارى (٦/١٦) الجهاد ، ومسلم (١٣/٢٠) الإمارة .

وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضى اللّه عنهما أن رسول ﷺ قال : **« يغفر للشهيد كل شىء إلا الدَّيْنَ »**(١) .

وعن المقدام بن معد يكرب رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : **« للشهيد عند اللّه سِت خصال : يغفر له فى أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويحلى حُلَّةَ الإيمان ، ويزوج من الحور العين ، ويشفع فى سبعين إنسانا من أقاربه »**(٢) .

وعن رجل من أصحاب النبى ﷺ أن رجلا قال : **« يا رسول اللّه ما بال المؤمنين يفتنون فى قبورهم إلا الشهيد ؟ قال : كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة »**(٣) .

صور من جهاد أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

● عن أنس رضى اللّه عنه قال : **« غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول اللّه غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن اللّه أشهدنى قتال المشركين ليرين اللّه ما أصنع ، فلما كان يوم أحد وأنكشف المسلمون ، قال : اللّهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعنى أصحابه – وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعنى المشركين – ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إنى أجد ريحها من دون أحد ، قال سعد : فما**

---

(١) رواه مسلم (٣٠/١٣) الإمارة ويشترط لتكفير الخطايا أن يكون المجاهد صابرا محتسبا مقبلًا غير مدبر ، لما رواه مسلم كذلك أن رجلا قال : يا رسول اللّه أرأيت إن قتلت فى سبيل اللّه تكفر عنى خطاياى فقال له رسول اللّه ﷺ نعم: إن قتلت فى سبيل اللّه وأنت صابر محتسب مُقْبِلٌ غير مدبر . وفى قوله « فى سبيل اللّه » اشتراط الإخلاص – وهذا فيما عدا حقوق الآدميين كما دل عليه قول : « إلا الدين » نسأل اللّه شهادة فى سبيله مقبلين غير مدبرين .

(٢) رواه الترمذى (١٦١/٧) فضائل الجهاد وقال هذا حديث حسن صحيح غريب ،وابن ماجة (٢٧٩٩) واللفظ له ، وأحمد (١٣١/٤) وصححه الألبانى .

(٣) رواه النسائى (٩٩/٤) الجنائز وقال الألبانى فى أحكام الجنائز ص (٣٦) : وسنده صحيح .

استطعت يا رسول الله ما صنع ، قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة بالرمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل وقد مَثَّل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه ، قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفى أشباهه ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾[1] [الأحزاب : ٢٣] .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « **انطلق رسول الله وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، قال عمير بن الحمام : بَخٍ بَخٍ فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بَخٍ بَخٍ – قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها قال : فإنك من أهلها قال : فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى إنها لحياة طويلة ، فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل** »[2] .

وعن ابن عمر أنه قال : كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم ، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل بينهم ، فصاح الناس وقالوا . سبحان الله يلقى بيده إلى التهلكة ، فقام أبو أيوب الأنصارى فقال : أيها الناس أنتم تتأولون هذه الآية هذا التأويل وإنما نزلت فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سرا دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت وإن الله تعالى أعز الإسلام وكثر ناصره ،

---

(١) رواه البخارى (٣٥٤/٧ ، ٣٥٥) المغازى ، ومسلم (٤٧/١٣ ، ٤٨) الإمارة ، والترمذى (٨٠/١٢ ، ٨١) التفسير .

(٢) رواه مسلم (٤٥/١٣ ، ٤٦) الإمارة .

فلو أقمنا فى أموالنا وأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل اللّه تعالى على نبيه ما يرد علينا ما قلناه ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] وكانت التهلكة الإقامة فى الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو ، فما زال أبو أيوب شاخصا فى سبيل اللّه حتى دفن بأرض الروم[١] .

---

(١) رواه الترمذى (١١/٩٦ ، ٩٧) التفسير وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

١٦ - الزهـــد*

الزهد هو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، وأما العلم المورث لهذه الحال فهو العلم بكون المتروك حقيرا بالإضافة إلى المأخوذ ، فمن عرف أن ما عند الله باق ، وأن الآخرة خير وأبقى من الدنيا كما أن الجوهر خير وأبقى من الثلج ، فالدنيا كقطعة الثلج الموضوعة فى الشمس لا تزال فى الذوبان حتى تنتهى ، والآخرة كالجوهر غالية الثمن لا تذوب ولا تنتهى ، وبقدر اليقين بالتفاوت بين الدنيا الآخرة تقوى الرغبة ، فى البيع ، وقد مدح الله تعالى الزهد فى الدنيا وذم الرغبة فيها فى غير موضع فقال تعالى : ﴿ **بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى** ﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٧] وقال تعالى : ﴿ **وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ** ﴾ [الرعد : ٢٦] وقال تعالى : ﴿ **وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ** ﴾ [العنكبوت : ٦٤] وقال تعالى : ﴿ **كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ** ﴾ [القيامة : ٢٠ ، ٢١] وقال تعالى : ﴿ **تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

قال تعالى حاكيا عن مؤمن آل فرعون أنه قال : ﴿ **يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ** ﴾ [غافر : ٣٩] وقد بين رسول الله ﷺ حقارة الدنيا فعن جابر رضى الله عنه : « **أن رسول الله ﷺ مر بالسوق**

(*) عدة الصابرين لابن القيم - إحياء علوم الدين للغزالى ، جامع العلوم والحكم لابن رجب - رياض الصالحين للنووى .

والناس كنفتيه ، فمر بجدى أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحن أنه لنا بشىء وما نصنع به ؟!! ثم قال أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت فقال : والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم »[1] .

وعن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع** »[2] .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء** »[3] .

وقد حذر المعصوم ﷺ من فتنة الدنيا فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « **إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء** »[4] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما** »[5] والمراد بالدنيا كل ما يشغل عن الله تعالى ويبعد عنه أفاده الألبانى .

---

(١) رواه مسلم (٩٣/١٨) الزهد ، وأبو داود (١٨٤) الطهارة وقوله : « **والناس كنفتيه** » أى حَوْلُه . وقوله : « **أسك** » أى صغير الأذنين .

(٢) رواه مسلم (٩٣/١٨) الجنة وصفة نعيمها ، والترمذى (١٩٩/٩) الزهد ، وابن ماجة (٤١٠٨) .

(٣) رواه الترمذى (١٩٨/٩) الزهد وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبى : زكريا ضَعفوه . وقال الألبانى والصواب أن الحديث صحيح لغيره فإن له شواهد تقويه وانظر شواهده فى الصحيحة رقم ٩٤٣ .

(٤) رواه مسلم (٥٥/١٧) الرقاق : قال النووى : ومعنى الدنيا خضرة يحتمل أن المراد بها شيئان أحدهما حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها كالفاكهة الخضراء الحلوة فإن النفوس تطلبها طلبا حثيثا فكذا الدنيا ، والثانى سرعة فنائها كالشىء الأخضر فى هذين الوصفين .

(٥) رواه الترمذى (١٩٨/٩) الزهد وقال : حسن غريب ، وابن ماجة (٤١١٢) الزهد وحسنه الألبانى .

كيف كانت حياة النبى :

لقد كان من حال النبى ﷺ ما يدفع إلى الزهد فى الدنيا والتقلل من أعراضها فإن قال قائل لعل هذا من قلة الشىء عنده ﷺ فالرد عليه أن اللّه عز وجل لا يختار لنبيه ﷺ أحب الخلق إليه وأكرمهم عنده إلا أفضل الأحوال ، ولذا كان ابن عمر رضى اللّه عنهما يقتدى به ﷺ بعد أن فتح اللّه عز وجل البلاد بالإسلام وسيقت الأموال إلى جزيرة العرب ، وكذا كان أبوه من قبله رضى اللّه عنهما .

طعام النبى صلى اللّه عليه وسلم :

عن النعمان بشير رضى اللّه عنهما قال : ذكر عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال : « لقد رأيت رسول اللّه ﷺ يظل اليوم يتلوى لا يجد من الدقل ما يملأ بطنه »[١] والدقل : ردىء التمر .

وعن عائشة رضى اللّه عنها قالت : « ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول اللّه ﷺ »[٢] .

وعن أنس رضى اللّه عنه قال : « لم يأكل النبى ﷺ على خوان حتى مات ولم يأكل خبزا مرققا حتى مات »[٣] والخوان هو ما نسميه فى زماننا بالمنضدة ،

---

(١) رواه مسلم (١٠٩/١٨) الزهد ، والترمذى (٢٢١/٩) الزهد .

(٢) رواه البخارى (٢٨٢/١١) الرقاق ، ومسلم (١٠٥/١٨ ، ١٠٦) الزهد .

(٣) رواه البخارى (٢٧٣/١١) الرقاق والترمذى (٢١٦/٩) الزهد ، وابن ماجة (٣٢٩٢) قال ابن بطال : تركه عليه الصلاة والسلام الأكل على الخوان وأكل المرقق إنما هو لدفع طيبات الدنيا اختيارًا لطيبات الحياة الدائمة والمال إنما يرغب فيه ليستعان به على الآخرة فلم يحتج النبى ﷺ إلى المال من هذا الوجه وحاصله أن الخبر لا يدل على تفضيل الفقر على الغنى بل يدل على فضل القناعة والكفاف وعدم التبسط فى ملاذ الدنيا .

وعن عروة عن عائشة رضى اللّه عنها أنها كانت تقول : واللّه يا ابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما أوقد فى أبيات رسول اللّه ﷺ نار . قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء ، إلا أنه كان لرسول اللّه ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منايح ، فكانوا يرسلون إلى رسول اللّه ﷺ من ألبانها فيسقيناه »[1] منايح : جمع منيحة وهى الناقة ذات اللبن .

ثياب النبى صلى اللّه عليه وسلم :

عن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى رضى اللّه عنه قال : « أخرجت لنا عائشة رضى اللّه عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت : قبض رسول اللّه ﷺ فى هذين »[2] ملبدا : أى مرقعا .

فراش النبى صلى اللّه عليه وسلم :

عن عائشة رضى اللّه عنها قالت : « إنما كان فراش رسول اللّه ﷺ الذى ينام عليه أدما حشوه ليفاً »[3] .

وكيف كانت حياة الصحابة رضى اللّه عنهم :

وقد كان من أحوال الصحابة رضى اللّه عنهم خير هذه الأمة التى هى خير الأمم وأفضلها ما يدل على فضل الزهد فى حطامها ، والتقلل من أعراضها .

---

(١) رواه البخارى (٢٨٣/١١) الرقاق ، ومسلم (١٠٧/١٨ ، ١٠٨) الزهد .
(٢) رواه مسلم (٥٧/١٤) اللباس .
(٣) رواه البخارى (٢٨٢/١١) الرقاق ، ومسلم (٥٧/١٤) اللباس .

عن فضالة بن عبيد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم فى الصلاة من الخصاصة - وهم أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب هؤلاء مجانين - أو مجانون - فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم فقال : « **لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة** »(١) .

والخصاصة : هى الفاقة والجوع .

وعن محمد بن سيرين قال : « كنا عند أبى هريرة رضى الله عنه وعليه ثوبان ممشقان من كتان فمخط فى أحدهما ثم قال : بخ بخ يتمخط أبو هريرة فى الكتان ، لقد رأيتنى وإنى لأخِرُّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ وحجرة عائشة من الجوع مغشيا على ، فيجىء الجائى فيضع رجله على عنقى ، يرى أن بى الجنون وما هو إلا الجوع »(٢) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : رأيت عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رقع بين كتفيه برقاع ثلاث لبد بعضها على بعض .

درجات الزهد :

الدرجة الأولى :

أن يزهد فى الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكن يجاهدها ويكفها وهذا يسمى متزهدا .

---

(١) رواه الترمذى (٢١٨/٩) الزهد وصححه ووافقه الألبانى .

(٢) رواه البخارى (٣٠٣/١٣) الاعتصام بالكتاب والسنة ، الترمذى (٢١٦/٩ ، ٢١٧) الزهد .

الدرجـة الثانيـة :

أن يترك الدنيا طوعا لاستحقاره أياها بالإضافة إلى ما طمع فيه ، ولكنه يرى زهده ويلتفت إليه كالذى يترك درهما لأجل درهمين .

الدرجـة الثالثـة :

أن يزهد فى الدنيا طوعا ويزهد فى زهده فلا يرى أنه ترك شيئا ، فيكون كمن ترك خذفة وأخذ جوهرة ، ويمثل صاحب هذه الدرجة بمن منعه من الدخول على الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بها ودخل على الملك ونال القرب منه ، فالشيطان كلب على باب اللّه عز وجل يمنع الناس من الدخول ، مع أن الباب مفتوح والحجاب موفوع ، والدنيا كلقمة فمن تركها لينال عز الملك فكيف يلتفت إليها .

روايات عن السـلف فى تفسـير الزهـد :

قال الحسن : الزاهد الذى إذا رأى أحدا قال هو أزهد معنى .

قال إبراهيم بن أدهم : الزهد ثلاثة أقسـام : فزهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة ، فأما الزهد الفرض : فالزهد فى الحرام ، وأما الزهد الفضل فالزهد فى الحلال ، وأما الزهد السلامة فالزهد فى الشبهات .

قال يونس بن ميسرة : ليس الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، إنما الزهادة فى الدنيا أن تكون بما فى يد اللّه أوثق منك بما فى يدك ، وأن يكون حالك فى المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء ، وأن يكون مادحك وذامك فى الحق سواء .

ففسر الزهد بثلاثة أشياء كلها من أعمال القلوب لا من أعمال الجوارح لذا كان أبو سليمان يقول : لا تشهد لأحد بالزهد ، أحدها : « أن يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يد نفسه » وهذا ينشأ من صحة اليقين وقوته ، قيل لابى حازم الزاهد : مَامَالُك ؟ قال : لى مالان لا أخشى معهما الفقر : الثقة بالله ، واليأس مما فى أيدى الناس . وقيل له أما تخاف الفقر ؟ فقال : أنا أخاف الفقر ومولاى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ؟!

قال الفضيل : أصل الزهد الرضا عن الله عز وجل. وقال : القنوع هو الزاهد وهو الغنى ، فمن حقق اليقين وثق بالله فى أموره كلها ورضى بتدبيره له وانقطع عن التعلق بالمخلوقين رجاء وخوفا منعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة ، ومن كان كذلك كان زاهدا وكان من أغنى الناس وإن لم يكن له شيء فى الدنيا كما قال عمار رضى الله عنه : كفى بالموت واعظا وكفى باليقين غنا وكفى بالعبادة شغلا . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : اليقين أن لا ترضى الناس بسخط الله ولا تحسد أحدا على رزق الله ولا تلم أحـد على ما لم يؤتك الله فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده كراهة كاره ، إن الله بقسطه وعلمه وحكمته جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا ، وجعل الهم والحزن فى السخط والشك .

الثانى : أن يكون العبد إذا أصيب بمصيبة فى دنياه من ذهاب مال أو ولد أو غير ذلك أرغب فى ثواب ذلك مما ذهب منه من الدنيا أن يبقى له ، وهذا أيضا ينشأ من كمال اليقين قال على كرم الله وجهه : من زهد فى الدنيا هانت عليه المصيبات .

وقال بعض السلف : لولا مصائب لوردنا الآخرة من المفاليس .

الثالث : أن يستوى عند العبد حامده وذامه فى الحق ، فإذا عظمت الدنيا فى قلب العبد اختار المدح وكره الذم ، وربما حمله ذلك على ترك كثير من الحق

خشية الذم ، وعلى فعل كثير من الباطل رجاء المدح ، فمن استوى عنده حامده وذامه فى الحق دل على سقوط منزلة المخلوقين من قلبه وامتلائه من محبة الحق وما فيه رضى مولاه كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : « اليقين أن لا ترضى الناس بسخط الله » .

ومن باع الآخرة بالدنيا فهو زاهد فى الآخرة ، ومن باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد فى الدنيا ، ولكن العادة جارية على تخصيص اسم الزهد على الزهد فى الدنيا ، قال رجل لأحد الصالحين : ما رأيت أزهد منك قال أنت أزهد منى لقد زهدت فى دنيا لابقاء لها ولا وفاء وأنت زهدت فى الآخرة فمن أزهد منك .

والزهد يكون فى شىء مقدور عليه قيل لابن المبارك : يا زاهد . قال : الزاهد هو عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا ففى ماذا زهدت .

قال الحسن البصرى : أدركت أقواما وصبحت طوائف ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ، ولا يأسفون على شىء منها أدبر ، ولهى كانت فى أعينهم أهون من التراب ، كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يُطْوَلَهُ ثوب ولم ينصب له قدر ، ولم يجعل بينه وبين الأرض شيئا ، ولا أمر من فى بيته بصنعة طعام قط ، فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم ، كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا فى شكرها وسألوا الله أن يقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم وسألوا الله أن يغفرها فلم يزالوا على ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

قال رجل للتابعين : لأنتم أكثر عملا من أصحاب رسول الله ﷺ ولكنهم كانوا خيرا منكم كانوا أزهد فى الدنيا .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : لئن حلفتم لى على رجل أنه أزهدكم لأحلفن لكم أنه خيركم .

فإن قال قائل ما هو المذموم من الدنيا الذى ينبغى على العباد الزهد فيه هل هو الزمان الذى يعيشونه ؟ أم الأرض وما عليها من جبال وأشجار ومتاع ؟ أم أفعال العباد التى تجانب الصواب غالبا ؟ .

فالجـواب :

إن الذم الوارد فى الكتاب والسنة ليس راجعا إلى زمان الدنيا وهو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة فإن الله عز وجل : ﴿ **جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورا** ﴾ [الفرقان : ٦٢] وفى الأثر : إن هذا الليل والنهار خزانتان فانظروا ما تضعون فيهما .

قال مجاهد : ما من يوم إلا يقول : ابن آدم قد دخلت عليك اليوم ولن أرجع اليك بعد اليوم فانظر ماذا تعمل فِيَّ فإذا انقضى طوى ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذى يقضيه يوم القيامة .

وأنشـد بعضهـم :

إِنَّمَا الدُّنْيَا إِلَى الجَنَّةِ والنَّارِ طَرِيقٌ
واللَّيَالِى مَتْجَرُ الإِنْسَانِ والأَيَّامُ سُوقٌ

فالوقت هو رأس مال العبد الذى فيه يتاجر مع ربه عز وجل قال ﷺ : « **من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة** »[1] . فانظر إلى مُضَيِّع الساعات كم يفوته من النخيل .

---

(١) تقدم تخريجه (ص : ٥٨) .

كان أحد الصالحين إذا أثقل الناس فى الجلوس عنده يقول : أما تريدون أن تقوموا إن ملك الشمس يجرها لا يفتر .

وقال رجل لأحد العلماء : قف أكلمك . قال : « أوقف الشمس » .

وكذلك ليس الذم راجعا إلى مكان الدنيا وهو الأرض وما أودع فيها من جبال وبحار وأنهار ومعادن فإن ذلك كله من نعم الله على عباده ، لما لهم فيها من المنافع والاعتبار والاستدلال على وحدانية الصانع سبحانه وقدرته وعظمته .

وإنما الذم راجع إلى أفعال بنى آدم الواقعة فى الدنيا لأن غالبها واقع على غير الوجه الذى تحمد عاقبته كما قال الله عز وجل : ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** ﴾ [الحديد : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ **وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر] .

وانقسم بنو آدم فى الدنيا قسمين : أحدهما من أنكر أن للعباد دارا بعد الدنيا للثواب والعقاب ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [يونس : ٧] وهؤلاء همهم التمتع فى الدنيا واغتنام لذاتها قبل الموت كما قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** ﴾ [محمد : ١٢] .

القسم الثانى : من يقر بدار بعد الموت للثواب والعقاب ، وهم المنتسبون إلى المرسلين ، وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات بإذن الله ، والظالم لنفسه هم الأكثرون وأكثرهم واقف مع زهرة الدنيا وزينتها ، فأخذها من غير وجهها واستعملها فى غير وجهها ، وصارت الدنيا أكبرَ

همه بها يرضى وبها يغضب ، ولها يوالى وعليها يعادى ، وهؤلاء أهل اللعب واللهو والزينة ، وإن كانوا يؤمنون بالآخرة إيمانا مجملا فهم لم يعرفوا المقصود من الدنيا ولا أنها منزلة يتزود فيها لما بعدها من دار الإقامة .

والمقتصد من أخذ الدنيا من وجهها المباح وأدى واجبها وأمسك لنفسه الزائد عن الواجب يتوسع به فى التمتع بشهوات الدنيا وهؤلاء لا عقاب عليهم فى ذلك إلا أنه ينقص من درجاتهم ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لولا أن تنقص من حسناتى لخطالتكم فى لين عيشكم ، ولكنى سمعت الله عَيَّر قوما فقال : ﴿ **أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا** ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

أما السابق بالخيرات بإذن الله فهم الذين فهموا المراد من الدنيا ، وعملوا بمقتضى ذلك ، فعلموا أن الله إنما أسكن عباده فى هذه الدار ليبلوهم أيهم أحسن عملا كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا** ﴾ [الكهف : ٧] يعنى أزهد فى دنيا وأرغب فى الآخرة ، ثم قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً** ﴾ [الكهف : ٨] .

فاكتفى السابقون منها بما يكفى المسافر من الزاد كما قال النبى ﷺ : « **ما لى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قَالَ فى ظل شجرة ثم راح وتركها** »[١] .

ووصى ابن عمر رضى الله عنهما فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[٢] ومتى نوى من تناول شهواته المباحة التَّقَوِّى على طاعة الله كانت

---

(١) رواه الترمذى (٢٢٣/٩) الزهد وقال : حسن صحيح ، والحاكم (٣٠١/٤) الرقاق وقال : صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، وأحمد (٣٩١/١) وصححه الألبانى فى الصحيحة بشاهده رقم ٤٣٩ .

(٢) رواه البخارى (٢٣٣/١١) الرقاق ، وأحمد (٢٤/٢) ، والترمذى (٢٠٣/٩) الزهد ، وأبو نعيم (٣٠١/٣) الحلية .

شهواته له طاعة يثاب عليها ، كما قال معاذ رضى اللّه عنه : « إنى لأحتسب نومتى كما أحتسب قومتى » .

قال سعيد بن جبير : متاع الغرور ما يلهيك عن طلب الآخرة ، وما لم يلهك فليس بمتاع غرور لكنه متاع بلاغ إلى ما هو خير منه .

وقال يحيى بن معاذ : كيف لا أحب دنيا قدر لى فيها قوت أكتسب به حياة أدرك بها طاعة أنال بها الجنة .

وسئل أبو صفوان الرعينى : ما هى الدنيا التى ذمها اللّه فى القرآن والتى ينبغى للعاقل أن يتجنبها ؟ فقال : كل ما أصبت من الدنيا تريد به الدنيا فهو مذموم ، وكل ما أصبت منها تريد به الآخرة فليس منها .

وقال الحسن : نعمت الدار الدنيا كانت للمؤمن وذلك أنه عمل قليلا وأخذ زاده منها للجنة ، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق وذلك أنه ضيع لياليه وكان زاده منها إلى النار .

قال عون بن عبد اللّه : الدنيا والآخرة فى القلب ككفتى الميزان ما ترجح أحدهما تخف الأخرى .

وقال وهب : إنما الدنيا والآخرة كرجل له امرأتان إذا أرضى أحداهما أسخط الأخرى .

إضرار حب الدنيا :

حب الدنيا هو الذى عمر النار بأهلها والزهد فى الدنيا هو الذى عمر الجنة بأهلها ، والسكر بحب الدنيا أعظم من السكر بالخمر فصاحبه لا يفيق إلا فى ظلمة اللحد ، قال يحيى بن معاذ : « الدنيا خمر الشيطان من سكر منها فلا يفيق إلا فى عسكر الموتى نادما بين الخاسرين ، وأقل ما فيها أنه يلهى عن حب اللّه وذكره

ومن ألهاه ماله فهو من الخاسرين ، وإذا لهى القلب عن ذكر الله سكنه الشيطان وصرفه حيث أراد ، ومن فقهه فى الشر أنه يرضيه ببعض أعمال الخير ليريه أنه يفعل الخير .

يقول ابن مسعود رضى الله عنه : ما أصبح أحدٌ فى الدنيا إلا ضيف وما له عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة .

قالوا وإنما كان حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدا للدين من وجوه .

أحدها : أن حبها يقتضى تعظيمها وهى حقيرة عند الله ومن أكبر الذنوب تعظيم ما حقر الله عز وجل .

ثانيها : أن الله لعنها ومقتها وأبغضها إلا ما كان له فيها ، ومن أحب ما لعنه الله ومقته وأبغضه فقد تعرض للفتنة ومقته وغضبه .

ثالثها : أنه إذا أحبها صيرها غايته ، وتوسل إليها بالأعمال التى جعلها الله وسائل إليه وإلى الدار الآخرة ، فعكس الأمر وقلب الحكمة فها هنا أمران : أحدهما جعل الوسيلة غاية ، والثانى التوسل بأعمال الآخرة إلى الدنيا ، وهذا شر معكوس من كل وجه ، وقلب منكوس غاية الانتكاس وهذا هو الذى انطبق عليه حَذْوَ القُذَّةِ بالقذة قوله تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [هود : ١٥] .

والأحاديث كثيرة منها حديث أبى هريرة فى الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار الغازى والمتصدق والقارىء الذين أرادوا بذلك الدنيا والنصيب .

فانظر محبة الدنيا كيف حرمت هؤلاء من الأجر وأفسدت عليهم عملهم وجعلتهم أول الداخلين إلى النار .

رابعا : إن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه فى الآخرة باشتغاله عنه بمحبوبه ، والناس هاهنا مراتب فمنهم من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه ، ومنهم من يشغله حبها عن كثير من الواجبات ، ومنهم من يشغله عن القيام بالواجب فى الوقت الذى ينبغى على الوجه الذى ينبغى ، فيفرط فى وقته وفى حقوقه ، ومنهم من يشغله عن الواجب الذى يعارض تحصيلها وإن قام بغيره ، ومنهم من يشغله عن عبودية قلبه فى الواجب وتفريغه لله عند أدائه فيؤديه ظاهرا لا باطنا ، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها وهذا من أندرهم ، وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد ، وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره وجمع قلبه على لسانه ، وجمع لسانه وقلبه على ربه فعشقها ومحبتها تضر بالآخرة ولا بد كما أن محبة الآخرة تضر بالدنيا .

خامسها : أن محبتها تجعلها أكبر هم العبد فقد روى الترمذى من حيث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع له شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرق شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له** »[1] .

سادسها : أن محبها أشد الناس عذابا بها وهو معذب فى دوره الثلاث : يعذب فى الدنيا بتحصيلها والسعى فيها ومنازعة أهلها ، وفى دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدا ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه ، فهذا أشد الناس عذابا فى قبره يعمل الهم والغم والحزن والحسرة فى روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض فى جسمه .

---

(١) رواه الترمذى (٢٥٨٣ تحفة) صفة القيامة وسكت عنه قال الألبانى : وهو إسناد ضعيف لكنه حسن فى المتابعات . وله شاهد عند ابن ماجة وابن حبان . وهو فى الصحيحة رقم ٩٤٩ .

والمقصود أن محب الدنيا يعذب فى قبره ، ويعذب يوم لقاء ربه قال تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥] قال بعض السلف : يعذبون بجمعها وتزهق أنفسهم بحبها وهو كافرون بمنع حق الله فيها .

وسابعها : أن عاشقها ومحبها الذى يؤثرها على الآخرة من أَسْفَهِ الخلق وأقلهم عقلا ، إذ آثر الخيال على الحقيقة ، والمنام على اليقظة ، والظل الزائل على النعيم الدائم ، والدار الفانية على الدار الباقية ، وباع حياة الأبد فى أرغد عيش بحياة إنما هى أحلام نوم أو كظلٍ زائلٍ إن اللبيب بمثلها لا يخدع ، وكان بعض السلف يتمثل هذا البيت :

يَا أَهْلَ لَذَّاتِ دُنْيَا لَا بَقَاءَ لَهَا   إِنَّ اغْتِرَاراً بِظِلٍّ زَائِلٍ حُمُقٌ

قال يونس بن عبد الأعلى : ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى فى منامه ما يكرهه وما يحبه ، فبينما هو كذلك انتبه .

أشبه الأشياء بالدنيا ظل تحسب أن له حقيقة ثابتة وهو فى تقلص وانقباض فتتبعه لتدركه فلا تلحقه ، وأشبه الأشياء بها السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، وأشبه الأشياء بها عجوز شوهاء قبيحة المنظر والمخبر غدارة بالأزواج تزينت للخُطَّابِ بكل زينة وسترت كل قبيح ، فاغتر بها من لم يجاوز بصره ظاهرها فطلب النكاح ، فقالت : لا مهر إلا فقد الآخرة فإننا ضرتان واجتماعنا غير مأذون فيه ولا مستباح ، فآثر الخُطَّابُ العاجلة وقالوا : ما على مَنْ وَاصَلَ حبيبته من جناح ، فلما كشف قناعها وحل إزارها إذا كل آفة وبلية ، فمنهم من طلق واستراح ومنهم من اختار المقام فما استتمت ليلة عرسه إلا بالعويل والصياح .

تالله لقد أذن مؤذنها على رؤوس الخلائق بحى على غير الفلاح ، فقام المجتهدون والمصلون لها فواصلوا فى طلبها الغُدُوَّ بالرواح ، وسروا ليلهم فلم يحمد

القوم السرى عند الصباح ، طاروا فى صيدها فما رجع أحد منهم إلا وهو مكسور الجناح ، فوقعوا فى شبكتها فأسلمتهم للذباح .

كتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز فى ذم الدنيا كتابا طويلا قال فيه : أما بعد فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، تذل من أعزها وتفقر من جمعها ، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فاحذر هذه الدار الغرارة الختالة الخداعة ، وكن أسَرَّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها ، سرورها مشوب بالحزن وصفوها مشوب بالكدر ، فلو كان الخالق لم يخبز عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من اللّه عز وجل عنها زاجر وفيها واعظ ، فما لها عند اللّه سبحانه قدر ولا وزن ما نظر إليها منذ خلقها ، ولقد عرضت على نبينا ﷺ مفاتيحها وخزائنها لا ينقص عند اللّه جناح بعوضة فأبى أن يقبلها وكره أن يحب ما أبغضه خالقه أو يرفع ما وضعه مليكه زواها اللّه عن الصالحين اختيارا وبسطها لأعدائه اغترارا ، أفيظن المغرور بها أنه أكرم بها ونسى ما صنع اللّه بمحمد ﷺ حين شد على بطنه الحجر واللّه ما أحد من الناس بسط له فى الدنيا فلم يخف أن يكون مكرا إلا كان قد نقص عقله وعجز رأيه وما أمسك عن عبد فلم يظنه خيرا له فيها إلا نقص عقله وعجز رأيه .

١٧ - الصبر والشكر*

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، المتفرد برداء الكبرياء ، المتوحد بصفات المجد والعلاء ، المؤيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء ، والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام من الفناء ومصونة بالتعاقب عن التصرم والانقضاء .

فلما كان الإيمان نصفان فنصف صبر ونصف شكر كان حقيقا على من نصح نفسه وأحب نجاتها وآثر سعادتها أن لا يهمل هذين الأصلين العظيمين ، وأن يجعل سيره إلى الله عز وجل فى هذين الطريقين القاصدين ليجعله الله يوم القيامة مع خير الفريقين .

الصبر

إن الله سبحانه جعل الصبر جوادا لا يكبو وصارما لا ينبو وجندا غالبا لا يهزم وحصنا حصينا لا يهدم فهو والنصر أخوان شقيقان وقد مدح الله عز وجل فى كتابه الصابرين وأخبر أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب فقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر : ١٠] وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين فقال تعالى : ﴿ **وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الأنفال : ٤٦] فظفر الصابرون بهذه المعية بخير الدنيا والآخرة وفازوا بها بنعمة

(*) عدة الصابرين - إحياء علوم الدين - رياض الصالحين .

الباطنة والظاهرة ، وجعل سبحانه الإمامة فى الدين منوطة بالصبر واليقين ، فقال تعالى وبقوله اهتدى المهتدون : ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وأخبر تعالى أن الصبر خيرٌ لأهله مؤكدا باليمين فقال تعالى : ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ [النحل : ١٢٦] وأخبر أنه مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو ولو كان ذا تسليط فقال تعالى : ﴿ **وإن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا تعْملون مُحِيطٌ** ﴾ [آل عمران : ١٢٠] وعلق الفلاح بالصبر والتقوى فقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُو واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] وأخبر عن محبته لأهله وفى ذلك أعظم ترغيب للراغبين فقال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٦] وبشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى : ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٥ ، ١٥٧] وجعل الفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون فقال عز وجل : ﴿ **إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١١١] وخص فى الانتفاع بآياته أهل الصبر وأهل الشكر تمييزا لهم بهذا الحظ الموفور فقال فى أربع آيات من كتابه : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ [الشورى : ٣٣ ، سبأ : ١٩ ، إبراهيم : ٥ ، لقمان : ٣١] .

والصبر آخية المؤمن التى يجول ثم يرجع إليها ، وساق إيمانه التى لا اعتماد له إلا عليها ، فلا إيمان لمن لا صبر له ، وإن كان فإيمان قليل فى غاية الضعف وصاحبة ممن يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ولم يحظ منهما إلا بالصفقة الخاسرة ، فخير عيش أدركه السعداء بصبرهم ، وترقوا إلى أعلى المنازل بشكرهم ، فساروا بين جناحى

الصبر والشكر إلى جنات النعيم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

معنى الصبر وحقيقته :

الصبر لغة هو المنع والحبس وشرعا هو حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكى ، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحو ذلك .

وقيل : هو خلق فاضل من أخلاق النفس يُمْتَنَعُ به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها .

وقال بعضهم : هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقال آخر : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقال آخر : هو الغنى فى البلوى بلا ظهور شكوى .

وقال آخر : تجرع المرارة من غير تعبس .

والشكوى إلى الخلق تنافى الصبر وتضاده ، وقد سمع أحد الصالحين رجلا يشتكى إلى أخيه فقال له : يا هذا والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك وفى ذلك قيل :

وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكى الرحيم إلى الذى لا يرحم

أما الشكوى إلى الله عز وجل فلا تنافى الصبر لقول يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] مع قوله : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : ٨٣] ، وكذلك قول أيوب عليه السلام : ﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الانبياء : ٨٣] ، وقال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

وساحة العافية أوسع للعبد من ساحة الصبر ولا ينافى هذا قوله ﷺ : « **وما أعطى أحد عطاء أوسع من الصبر** »[1] فإن هذا بعد نزول البلاء أما قبل نزوله فميدان العافية أوسع الميادين ، ولا ينبغى لأحد أن يتمنى البلاء ويطلبه من اللّه عز وجل ، بل يطلب العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، أما بعد حلول البلاء فساحة الصبر أوسع الساحات .

والنفس مطية العبد التى يسير عليها إلى الجنة أو النار والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام للمطية ، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت فى كل مذهب ، قال بعضهم : « اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة إلى كل سوء فرحم اللّه امرءا جعل لنفسه خطاما وزماما ، فقادها بخطامها إلى طاعة اللّه ، وصرفها بزمامها عن معاصى اللّه ، فإن الصبر عن محارم اللّه أيسر من الصبر على عذابه » .

والنفس لها قوتان : قوة إقدام وقوة إحجام، فحقيقة الصبر أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة الإحجام إمساكا عما يضره ، ومن الناس من يصبر على قيام الليل ومشقة الصيام ولا يصبر على نظرة محرمة ، ومنهم من يصبر على النظر والالتفات إلى الصور ولا صبر له على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد .

وقيل الصبر شجاعة النفس ومن هنا أخذ القائل قوله: الشجاعة صبر ساعة . والصبر والجزع ضدان كما أخبر تعالى عن أهل النار : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ [إبراهيم : ٢١] .

الأخبار فى فضيلة الصبر :

- عن أبى سعيد الخدرى رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « من

---

(١) رواه البخارى (٣/٣٣٥) الزكاة ، ومسلم (٧/١٤٤ ، ١٤٥) الزكاة .

يتصبر يصبره اللّه ، وما أعطى أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر »[1] .

● وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « **من يريد اللّه به خيرا يصب منه** »[2] أى يصيبه ببلاء .

● وعن عطاء بن أبى رباح قال : قال لى ابن عباس : ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت : إنى أصرع وإنى أتكشف فادع اللّه لى قال : « **إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت اللّه أن يعافيك . فقالت : أصبر . فقالت : إنى أتكشف فادع اللّه لى أن لا أتكشف فدعا لها** »[3] .

● وعن أبى موسى رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيما صحيحا** »[4] .

● وعن أم سلمة رضى اللّه عنها قالت : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره اللّه : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾** [البقرة : ١٥٥] اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها إلا أخلف اللّه خيرا منها فلما مات أبو سلمة قلت : أى المسلمين خير من أبى سلمة أول بيت هاجر إلى رسول اللّه ﷺ ، ثم إنى قلتها فأخلف اللّه لى رسوله ﷺ »[5] .

● وعن عائشة رضى اللّه عنها قالت : قال رسول اللّه ﷺ : « **ما من مصيبة تصيب المؤمن إلا كفر اللّه بها عنه حتى الشوكة يشاكها** »[6] .

---

(١) السابق .
(٢) رواه البخارى (١٠٣/١٠) المرضى ، ومالك فى الموطأ (٩٥٤١/٢) فى العين .
(٣) رواه البخارى (١٠٣/١٠) المرضى ، ومسلم (١٣١/١٦) البر والصلة .
(٤) رواه البخارى (١٣٦/٦) الجهاد ، وأبو داود (٣٠٧٥) الجنائز .
(٥) رواه مسلم (٢٢٠/٦ ، ٢٢١) الجنائز ، ومالك فى الموطأ (٢٣٦/١) الجنائز ، وأبو داود (٣٣٠٩) الجنائز بمعناه ، وابن ماجة (١٥٩٨) الجنائز .
(٦) رواه البخارى (١٠٣/١٠) المرضى ، ومسلم (١٢٩/١٦) البر والصلة .

الآثـــار :

● قال سفيان بن عيينة فى قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُون ﴾ [السجدة : ٢٤] لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤوسا .

● وقال عمر بن عبد العزيز : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه مكانها الصبر إلا كان ما عوضه خيرا مما انتزعه .

● وعن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه ، واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر ، قال إبراهيم رحمه الله فقوله : اعتراف العبد لله بما أصابه منه كأنه تفسير لقوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ فيعترف أنه ملك لله يتصرف فيه مالكه بما يريد ، وقوله : « راجيا به ما عند الله » كأنه تفسير لقوله : ﴿ وإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ أى نرد إليه فيجزينا على صبرنا ولا يضيع أجر المصيبة ، وقوله : « وقد يجزع الرجل وهو يتجلد) أى ليس الصبر بالتجلد وإنما هو حبس القلب عن التسخط على المقدور ، ورد اللسان عن الشكوى فمن تجلد وقلبه ساخط على القدر فليس بصابر .

● ولما أرادوا قطع رجل عروة بن الزبير قالوا له : لو سقيناك شيئا كيلا تشعر بالوجع . فقال : إنما ابتلانى ليرى صبرى أفأعارض أمره .

● وكان عمر رضى الله عنه يقول : نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى ، والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٥ ، ١٥٧] .

أقســام الصبر

ينقسم الصبر باعتبار مُتَعَلَّقِهِ إلى ثلاث أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها ، وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قيل فيها : « لابد للعبد من أمر يفعله ، ونهي يجتنبه ، وقدر يصبر عليه » .

وينقسم باعتبار الأحكام الخمسة إلى واجب ومندوب ومحظور ومكروه ومباح .

فالواجب : الصبر على المحرمات ، والصبر على أداء الواجبات ، والصبر على المصائب .

والمندوب : الصبر عن المكروهات ، والصبر على المستحبات ، والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله .

والمحظور : الصبر على الطعام والشراب حتى يموت ، والصبر عن الميتة والدم ولحم الخنزير عند الاضطرار إذا خاف بتركه الموت ، ومن الصبر المحظور صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه من سبع أو حيـة أو حريق أو كافر يريد قتله ، بخلاف استسلامه وصبره فى الفتنة وقتال المسلمين فإنه مباح له بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة .

والمكروه : صبره على المكروه وصبره عن فعل المستحب وكذلك الصبر على الطعام والشراب واللبس وجماع أهله حتى يتضرر بذلك بدنه .

والمباح : هو الصبر عن كل فعل مستوى الطرفين خير بين فعله وتركه والصبر عليه .

بيان أن الإنسان لا يستغنى عن الصبر فى حال من الأحوال :

العبد بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه ، ونهى يجب عليه اجتنابه وتركه ، وقدر يجرى عليه اتفاقا ، فالصبر لازم إلى الممات ، وكل ما يلقى العبد فى هذه الدار لا يخلو من نوعين : أحدهما يوافق هواه ومراده ، والآخر يخالفه وهو محتاج إلى الصبر فى كل منهما .

أما النوع الموافق لغرضه فكالصحة والسلامة والجاه والمال وأنواع الملاذ المباحة وهو أحوج شىء إلى الصبر فيها من وجوه :

أحدها : أن لا يركن إليها ولا يغتر بها ، ولا تحمله على البطر والأشر والفرح المذموم الذى لا يحب الله أهله .

الثانى : أن لا ينهمك فى نيلها ويبالغ فى استقصائها فإنها تنقلب إلى أضدادها ، فمن بالغ فى الأكل والشرب والجماع انقلب ذلك إلى ضده وحرم الأكل والشرب والجماع .

الثالث : أن يصبر على أداء حق الله فيها ولا يضيعه فيسلبها .

الرابع : أن يصبر عن صرفها فى الحرام .

قال بعض السلف البلاء يصبر عليه المؤمن والكافر ولا يصبر على العافية إلا الصديقون . وقال عبد الرحمن بن عوف : ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر ؛ ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والأزواج والأولاد فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] .

عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال : هؤلاء رجال أسلموا من

أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبى ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم يأتوا رسول اللّه ﷺ ، فلما أتوا رسول اللّه ﷺ ورأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبوهم ، فأنزل اللّه : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ** ﴾[1] .

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده .

وأما النوع الثانى المخالف للهوى فلا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أو لا يرتبط باختياره كالمصائب أو يرتبط أوله باختياره ولكن لا اختيار له فى إزالته بعد الدخول فيه فها هنا ثلاثة أقسام :

القسم الأول :

ما يرتبط باختياره وهو جميع أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية .

فأما الطاعة فالعبد محتاج إلى الصبر عليها لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية .

أما فى الصلاة فلما فى طبعها من الكسل وإيثار الراحة لا سيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل إلى الشهوات ومخالطة أهل الغفلة فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها ، وإن فعلها مع ذلك كان متكلفا غائب القلب ذاهلا عنها طالبا لفراقها .

وأما الزكاة فلما فى طبع النفس من الشح والبخل ، وكذلك الحج والجهاد للأمرين جميعا ، ويحتاج العبد ها هنا إلى الصبر فى ثلاثة أحوال :

أحدها : قبل الشروع فيها بتصحيح النية والإخلاص وتجنب دواعى الرياء والسمعة .

---

(١) رواه الترمذى (٣٣٧٣) التفسير وقال : هذا حديث حسن صحيح وقال المباركفورى فى التحفة وأخرجه ابن حاتم وابن جرير الطبرانى .

الحالة الثانية : الصبر حال العمل فيلازم العبد الصبر عن دواعى التقصير فيه والتفريط ويلازم الصبر على استصحاب النية وعلى حضور القلب بين يدى المعبود ، وأن لا ينساه فى أمره فليس الشأن فى فعل المأمور بل الشأن كل الشأن أن لا ينسى الآمر حال الاتيان بأمره ، بل يكون مستصحبا لذكره فى أمره .

الحالة الثالثة : الصبر بعد الفراغ من العمل وذلك من وجوه :

أحدها : أن يصبر نفسه عن الإتيان بما يبطل عمله قال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾** [البقرة : ٢٦٤] .

الثانى : أن يصبر عن رؤيتها والعجب بها والتكبر والتعظم بها فإن هذا أضر عليه من كثير من المعاصى الظاهرة .

الثالث : أن يصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية ، فإن العبد يعمل العمل سرا بينه وبين الله سبحانه فيكتب فى ديوان السر ، فإن تحدث به نقل إلى ديوان العلانية ، فلا يظن أن بساط الصبر قد انطوى بالفراغ من العمل .

وأما الصبر عن المعاصى فأمره ظاهر وأعظم ما يعين عليه قطع المألوفات ومفارقة الأعوان عليها فى المجالسة والمحادثة ، وقطع العوائد فإن العادة طبيعة خاصة فإذا انضافت الشهوة إلى العادة تظاهر جندان من جند الشيطان ، فلا يقوى باعث الدين على قهرهما فى الغالب .

القســم الثـانى :

ما لا يدخل تحت الاختيار وليس للعبد حيلة فى دفعه كالمصائب التى لاصنع للعبد فيها كموت من يعز عليه وسرقة ماله ومرضه ونحو ذلك وهذا نوعان :

أحدهـا : ما لا صنع للعبد الآدمى فيه ، والثانى ما أصابه من جهة آدمى كالسب والضرب وغيرهما .

فالنوع الأول للعبد فيه أربعة مقامات : أحدها مقام العجز وهو مقام الجزع والشكوى والسخط ، وهذا ما يفعله إلا أقل الناس عقلا ودينا .

المقام الثانى : مقام الصبر .

المقام الثالث : مقام الرضا ، وهو أعلى من مقام الصبر وفى وجوبه نزاع ، والصبر متفق على وجوبه .

المقام الرابع : مقام الشكر ، وهو أن يشهد البلية نعمة فيشكر المبتَلى عليها .

الثانى : وهو ما أصابه من قبل الناس فله فيه هذه المقامات ويضاف إليها أربعة أخر : مقام العفو والصفح ، والثانى : مقام سلامة القلب من إرادة التشفى والانتقام وفراغه من ألم مطالعة الجناية كل وقت وضيقه بها .

الثالث : مقام شهود القدر وأنه وإن كان ظالما بإيصال هذا الأذى إليك فالذى قدره عليك وأجراه على يد هذا الظالم ليس بظالم .

المقام الرابع : مقام الإحسان إلى المسىء ومقابلة إساءته بإحسانك ، وفى هذا المقام من الفوائد والمصالح ما لا يعلمه إلا اللّه ، فإن فات العبد هذا المقام العالى فلا يرضى لنفسه بأخس المقامات وأسفلها .

القســم الثالث :

ما يكون وروده باختياره فإذا تمكن منه لم يكن له اختيار ولا حيلة فى دفعه ، وهذا كالعشق أوله اختيار وآخره اضطرار ، وكالتعرض لأسباب الأمراض والآلام التى لا حيلة فى دفعها بعد مباشرة أسبابها كما لا حيلة فى دفع السكر بعد تناول المسكر .

الشـــكر

الشكر هو الثناء على المنعم بما أولاكه من معروف .

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكرا إلا بمجموعها وهى الاعتراف بالنعمة باطنا ، والتحدث بها ظاهرا ، والاستعانة بها على طاعة اللّه ، فالشكر يتعلق بالقلب واللسان والجوارح ، فالقلب للمعرفة والمحبة ، واللسان للثناء والحمد ، والجوارح لاستعمالها فى طاعة المشكور وكفها عن معاصية .

وقد قرن اللّه عز وجل الشكر بالإيمان ، وأخبر أنه لا غرض له فى عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا فقال : **﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾** [النساء : ١٤٧] أى إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم .

وأخبر سبحانه أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته علهم من بين عباده فقال تعالى : **﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا ؟ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾** [الأنعام : ٥٣] وقسم الناس إلى شكور وكفور فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله فقال تعالى : **﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾** [الإنسان : ٣] وقال تعالى على لسان نبيه سليمان عليه السلام : **﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾** [النمل : ٤٠] .

وقال تعالى : **﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾** [إبراهيم : ٧] .

فعلق سبحانه المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره .

وقد وقف سبحانه كثيرا من الجزاء على المشيئة كقوله تعالى : ﴿ **فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ** ﴾ [التوبة : ٢٨] وقال فى الإجابة : ﴿ **فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ** ﴾ [الأنعام : ٤١] وقال فى الرزق : ﴿ **يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [البقرة : ٢١٢] وقال فى التوبة : ﴿ **وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ** ﴾ [التوبة : ١٥] وأطلق جزاء الشكر إطلاقا حيث ذكر كقوله : ﴿ **وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٥] وقال : ﴿ **وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ولما عرف عدو اللّه إبليس قدر مقام الشكر ، وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى فى قطع الناس عنه فقال : ﴿ **لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ** ﴾ [الأعراف : ١٧] ووصف سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى : ﴿ **وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ** ﴾ [سبأ : ١٣] وقد أثنى اللّه سبحانه وتعالى على أول رسول بعثه إلى الأرض بالشكر فقال : ﴿ **ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا** ﴾ [الإسراء : ٣] وفى تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به ، فإنه أبوهم الثانى فإن اللّه تعالى لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا إلا من ذريته كما قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ** ﴾ [الصافات : ٧٧] فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم فى الشكر فإنه كان عبدا شكورا . وقد أخبر سبحانه أنما يعبده من شكره فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال : ﴿ **وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ** ﴾ [البقرة : ١٧٢] .

وأخبر أن رضاه فى شكره فقال تعالى : ﴿ **وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾ [الزمر : ٧] وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال : ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [النحل : ١٢٠ ، ١٢١] فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أى قدوة يؤتم به فى الخير ، وأنه كان قانتا للّه ، والقانت هو المطيع المقيم على طاعته ،

والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه ، ثم ختم له هذه الصفات بأنه شاكر لانعمه ، فجعل الشكر غاية خليله .

وأخبر سبحانه أن الشكر هو الغابة من خلقه بل هو الغاية التى خلق عبيده لاجلها :﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل : ٧٨] وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « **أفلا أكون عبداً شكورًا** »[١] وثبت عنه أنه قال لمعاذ : « **والله إنى لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك** »[٢] .

وفى صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال : « **إن الله ليرضى عن العبد يأكل الاكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها** »[٣] فكان هذا الجزاء العظيم الذى هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى : ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ [التوبة : ٧٢] فى مقابلة شكره بالحمد .

والشكر قيد النعم وسبب المزيد ، كما قال عمر بن عبد العزيز : قيدوا نعم الله بشكر الله ، وذكر ابن أبى الدنيا عن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال لرجل من همذان إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر يتعلق بالمزيد ، وهما مقرونان فى قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد .

---

(١) رواه البخارى (٤١/٣) التهجد ، ومسلم (١٦٢/١٧) صفات المنافقين والترمذى (٢٠٤/٢ ، ٢٠٥) الصلاة ، والنسائى (٢١٩/٣) قيام الليل .

(٢) رواه أبو داود (١٥٠٨) الصلاة وقال النووى : إسناده صحيح (٣٨٥/٤) عون المعبود وانظر تحفة الأشراف (٤٠٦/٨) .

وقال الطيبى : ذكر الله مقدمة انشراح الصدر ، وشكره وسيلة النعم والمستجابة وحسن العبادة المطلوب منه التجرد عما يشغله عن الله تعالى .

(٣) رواه مسلم (٥١/١٧) الذكر والدعاء ، والترمذى (٩/٨) الأطعمة .

وقال الحسن : أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر ، وقد أمر اللّه نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١١] واللّه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فإن ذلك شكرها بلسان الحال .

وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد ؟ قال : أصبحنا مغرقين فى النعم عاجزين عن الشكر ، يتحبب إلينا ربنا وهو غنى عنا ، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون .

وقال شريح : ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان للّه عليه فيها ثلاث نعم ، ألا تكون كانت فى دينه ، وألا تكون أعظم مما كانت ، وأنها لابد كائنة فقد كانت .

وعن سفيان فى قوله : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلمون ﴾ [القلم : ٤٤] قال : يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر . وقال غيره : كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة .

قال رجل لأبى حازم : ما شكر العينين يا أبا حازم ؟ فقال : إن رأيت بهما خيرا أعلنته وإن رأيت بهما شرا سترته ، قال فما شكر الأذنين ؟ قال : إن سمعت بهما خيرا وعيته ، وإن سمعت بهما شرا دفعته ، قال : فما شكر اليدين ؟ قال لا تأخذ بهما ما ليس لهما ، ولا تمنع حقا للّه هو فيهما ، قال ما شكر البطن ؟ قال : أن يكون أسفله طعاما وأعلاه علما ، قال فما شكر الفرج ؟ قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المعارج : ٢٩ ، ٣٠] .

قال فما شكر الرجلين ؟ قال : إن علمتَ مَيِّتًا تغبطه استعملتَ بهما عمله ، وإن مَقَتَّهُ رغبتَ عن عمله وأنت شاكر للّه ، وأما من شكر بلسانه ولم يشكر

بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما نفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر .

وكتب بعض العلماء إلى أخ له : أما بعد فقد أصبح بنا من نعم اللّه ما لا نحصيه مع كثرة ما نعصيه ، فمَا ندرى أيهما نَشكر أجميل ما يَسَّرَ أم قبيح ما ستَرَ .

وقال يونس بن عبيد : قال رجل لأبى تميمة : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بين نعمتين لا أدرى أيتهما أفضل : ذنوب سترها اللّه على فلا تستطيع أن يعيرنى بها أحد ، ومودة قذفها اللّه فى قلوب العباد لا يبلغها عملى .

وقال الحسن : ما أنعم اللّه على عبد نعمة فقال الحمد للّه إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ .

قال ابن القيم رحمه اللّه : قوله : ﴿ **الحمد للّه** ﴾ نعمه من نعم اللّه ، والنعمة التى حمد اللّه عليها أيضا من نعم اللّه ، وبعض النعم أجل من بعض ، فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها واللّه أعلم .

١٨ - الخـوف والرجـاء*

الحمد للّه المَرْجُو لُطْفُهُ وثَوَابُهُ ، الْمَخُوف مَكْرُهُ وعِقَابُهُ ، الذى عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بلطائف آلائه إلى النزول بفنائه والعدول عن دار بلائه التى هى مستقر أعدائه ، وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصدهم عن التعرض لأئمته والتهدف لسخطه ونعمته ، قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأَزِمَّةِ الرفق واللطف إلى جنته . والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليقته وعلى آله وأصحابه وعترته .

أما بعد : فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفا بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أَزِمَّةُ الرجاء ، ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم مع كونه محفوفا بلطائف الشهوات وعجائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذًا من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبل التوصل إلى الجمع بينهما ، واللّه الموفق للخيرات الهادى لأعلى الدرجاتت .

الخــوف

الخوف سوط اللّه يسوق به عباده إلى العلم والعمل لينالوا بهما القرب من اللّه تعالى ، وهو عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه فى الاستقبال ،

(*) إحياء علوم الدين - مدارج السالكين - رياض الصالحين - الجواب الكافى .

والخوف هو الذى يكف الجوارح عن المعاصى ويقيدها بالطاعات ، والخوف القاصر يدعو إلى الغفلة والجراءة على الذنب والإفراط فى الخوف يدعو إلى القنوط واليأس ، والخوف من اللّه تعالى تارة يكون لمعرفة اللّه تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع ، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصى ، وتارة يكون بهما جميعا ، وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال اللّه تعالى واستغنائه وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال : ﷺ « **والله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية** »[1] وقال اللّه عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] قال ابن مسعود رضى اللّه عنه : كفى بخشية اللّه علما وكفى بالاغترار جهلا .

درجـات الخـوف :

الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط ، فأما القاصر منه فهو الذى يجرى مجرى رقة النساء ، يخطر بالبال عند سمـاع آيـة من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فإذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة ، فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع ، وهو كالقضيب الضعيف الذى تضرب به دابة قوية لا يؤلمها ألما مُبَرِّحا فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، وهكذا خوف الناس إلا العلماء العارفين . قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف اللّه فاسكت فإنك إن قلت : لا كفرت ، وإن قلت : نعم كذبت .

وأشار به إلى الخوف الذى هو يكف الجوارح عن المعاصى ويقيدهـا بالطاعات .

---

(١) رواه البخارى (٥١٣/١٠) الأدب ، ومسلم (١٠٦/١٥) الفضائل وأحمد (٤٥/٦ ، ١٨١) .

وقيل كذلك ليس الخائف من يبكى ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه ، وقال بعضهم ، من خاف شيئا هرب منه ، ومن خاف اللّه هرب إليه .

وقيل لبعضهم : متى يكون العبد خائفا قال : إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذى يحتمى مخافة طول السقام .

والخوف يحرق الشهوات المحرمة فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سما ، فتحرق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويحصل فى القلب الخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مستوعب الهم بخوفه ، والنظر فى خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله حال من وقع فى مخلب سبع ضار لا يدرى أنه يغفل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيهلك فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو فيه خائفا منه لا متسع فيه لغيره فهذا حال من غلبه الخوف .

والإفراط فى الخوف هوالذى يجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط ، وهو مذموم أيضا لأنه يمنع من العمل .

فضيلة الخـــوف :

جمع اللّه تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى مجامع مقامات أهل الجنات قال اللّه تعالى : ﴿ **هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٥٤] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] وقال عز وجلّ : ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ** ﴾ [البينة : ٨] وكل ما دل على فضيلة العلم دل على

فضيلة الخوف ، لأن الخوف ثمرة العلم وقال عز وجل : ﴿ **وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٥٧] فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه فى الإيمان فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ، ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال عز وجل : ﴿ **وإِيَّاىَ فَارْهَبُون** ﴾ [البقرة : ٤٠] أى خافون خوفا معه تحرز فيما تأتون وتذرون وفى الآية أن المؤمن لا أن يخاف أحدا إلا الله .

وقال تعالى حاكيا عن أهل الجنة : ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ** ﴾ [الطور : ٢٥ ، ٢٨] .

فقوله : ﴿ **مُشْفِقِينَ** ﴾ أى خائفين من عصيان الله تعالى معتنين بطاعته .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ** ﴾ [الملك : ١٣] .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِم يُؤْمِنُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** ﴾ [المؤمنون : ٥٧ ، ٦١] .

روى الترمذى فى جامعه عن عائشة رضى الله عنها قال : « **سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقلت : أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون . فقال : لا يا أبنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ويخافون ألا يتقبل منهم أولئك يسارعون فى الخيرات** »[1] .

---

(١) رواه الترمذى (١٢/٤٠) التفسير والحاكم (٢/٣٩٤) التفسير وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وفى سنده انقطاع وله شاهد عند ابن جرير يقويه وانظر هامش جامع الأصول (٢/٢٥٤) .

وقال رسول الله ﷺ : « **إن رجلًا حضره الموت ، فلما يئس من الحياة أوصى أهله ، إذا أنا متُّ فاجمعوا لى حطبا كثيرا وأوقدوا فيه نارا ، حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى فامتحشت ، فخذوها فاطحنوها ثم أنظروا يوما راحاً فاذروه فى اليم : ففعلوا فجمعه الله فقال له : لِمَ فعلت ذلك قال : من خشيتك فغفر الله له** »[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة** »[2] قوله : « **أدلج** » أى سار من أول الليل ، والمعنى أن من خاف ألزمه الخوف السلوك إلى الآخرة والمبادرة بالأعمال الصالحة خوفا من القواطع والعوائق .

قال الحسن البصرى : إن المؤمنين قوم ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وإنهم والله الأصحاء ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ، فقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ، ولا تعاظم فى قلوبهم شىء طلبوا به الجنة ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله عليه نعمة فى غير مطعم أو مشرب فقد قل علمه وحضر عذابه .

---

(١) رواه البخارى (٤٩٤/٦) أحاديث الأنبياء ، ومسلم (٧٠/١٧) والنسائى (١١٣/٤) الجنائز ، وابن ماجة (٣٤٣٢) الزهد وأحمد (٢٦٩/٢) .

(٢) رواه الترمذى (٢٢٧/١٠) صفة القيامة وقال : هذا حديث حسن غريب ، والحاكم (٣٠٨/٤) الرقاق وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى والألبانى .

الأخبار فى الخوف :

قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ [هود ١٠٢ ، ١٠٦] .

عن أنس رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال : « **لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين** »[1] وفى رواية ، بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال : « **عرضت على الجنة والنار فلم أر كاليوم من الخير والشر ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا** » فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه غطوا رؤوسهم ولهم خنين .

والخنين : هو البكاء مع غنة بانتشار الصوت من الأنف .

وعن عبد الله بن الشخير أن « رسول الله ﷺ كان إذا دخل فى الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل »[2] فهذا خوف النبى ﷺ ، أما خوف

---

(١) رواه البخارى (٣١٩/١١) الرقاق . والترمذى (١٩٤/٩) الزهد .

(٢) رواه أبو داود (٨٩٠) الصلاة بلفظ « الرحى » ، والنسائى (١٣/٣) السهو ، وأحمد (٢٥/٤ ، ٢٦) .

قال السيوطى : « أزيز » أى خنين من الجوف وهو صوت البكاء وهو أن يجيش جوفه ويغلى بالبكاء

الملائكة فقد قال اللّه عز وجل : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [النحل : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ **وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ** ﴾ [الرعد : ١٣] .

ومن تأمل أحوال الصحابة رضى اللّه عنهم ومن بعدهم من الصالحين وجدهم فى غاية العمل مع غاية الخوف ، ونحن جمعنا بين التقصير بل التفريط والأمن ، فكلما ازداد علم العبد باللّه عز وجل وبنفسه ازداد خوفه وعمله ، وكلما ازداد جهله بربه وبنفسه ازداد أمنه وتفريطه ، فهذا الصديق رضى اللّه عنه يقول : وددت أنى شعرة فى جنب عبد مؤمن ، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية اللّه عز وجل .

هذا عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قرأ سورة الطور حتى بلغ : ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ** ﴾ [الطور : ٧] بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعادوه وقال لابنه وهو يموت : ويحك ضع خدى على الأرض عساه يرحمنى ثم قال : ويل أمى إن لم يغفر لى ثلاثا ثم قضى ، وكان يمر بالآية فى ورده بالليل تخيفه فيبقى فى البيت أياما يعاد يحسبونه مريضا ، وكان فى وجهه خطان أسودان من كثيرة البكاء ، وقال له ابن عباس : مَصَّرَ اللّه بك الأمصار ، وفتح بك الفتوح وفعل فقال : وددت أنى أنجو لا أجر ولا وزر .

وهذا عثمان بن عفان رضى اللّه عنه : كان إذا وقف على القبر يبكى حتى يبل لحيته ، قال لو أننى بين الجنة والنار ولا أدرى إلى أيتهما أصير لا خترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير .

« كأزيز المِرْجَلِ » وهو بالكسر الإناء الذى يغلى فيه الماء سواءٌ كان من حديد أو صفر أو حجارة أو خزف هامش (١٣/٣) ، النسائى وقال فى المرقاة : وفى الحديث دليل على أن البكاء لا يبطل الصلاة سواء ظهر منه حرفان أم لا .

واستدل على جواز البكاء فى الصلاة بقوله تعالى : ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ – عون المعبود (١٧٣/٣) .

وهذا على رضى اللّه عنه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده ويقول : لقد رأيت أصحاب رسول اللّه ﷺ فلم أر اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شُعْثًا صُفْرًا غُبْرا بين أعينهم أمثال رُكَبِ المِعْزَى ، قد باتوا سجدا وقياما يتلون كتاب اللّه ، يراوحون بين جباههم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا ذكروا اللّه ، تمادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح وهملت أعينهم بالدّموع ، حتى تبل ثيابهم ، واللّه فكأنى بالقوم باتوا غافلين ، فما رؤى بعد ذلك ضاحكا حتى ضربه ابن مُلْجِمْ .

وكان ابن عباس رضى اللّه عنهما أسفل عينيه مثل الشِرَاك البالى من كثرة الدموع .

وكان أبو ذر رضى اللّه عنه يقول : لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت لما أكلتم طعاما على شهوة ، ولا شربتم شرابا على شهوة ، ولا دخلتم بيتا تستظلون به ، ولخرجتم إلى الصعيد تضربون صدوركم وتبكون على أنفسكم ، ولوددت أنى شجرة تعضد ثم تؤكل .

قوله تعضد : أى تقطع .

وروى عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال : ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فو الذى نفسى بيده لو يعلم العلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه .

قال موسى بن مسعود : كنا إذا جلسنا إلى سفيان كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه .

ووصف أحدهم الحسن فقال : كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه ، وإذا جلس فكأنه أسير أمر بقطع رقبته ، وإذا ذكرت النار فكأنها لم تخلق إلا له .

وروى أن زرارة بن أبى أوفى قاضى البصرة صلى بالناس الفجر بسورة المدثر فلما قرأ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ [المدثر : ٩] أخذته شهقة فمات .

الرجـــاء

الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ، وإذا كانت الأسباب غير موجودة فاسم الغرور والحمق عليه أصدق ، وإذا كان الأمر مقطوعا به فلا يسمى رجاءً ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس ، ولكن يمكن أن يقال أرجو نزول المطر .

وقد علم علماء القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض والإيمان كالبذرة فيها والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التى لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو إلا من بذر الإيمان وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، وكما لا ينمو بذر فى أرض سبخة فينبغى أن يقاس رجاء المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضا طيبة وألقى فيها بذرا طيبا غير عفن ولا مسوس ، ثم أمده بما يحتاج إليه فى أوقاته ثم نقى الشوك والحشيش وكل ما يمنع نبات البذرة أو يفسده ،ثم جلس منتظرا من فضل اللّه تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء ، وإن بث البذر فى أرض صلبة سبخة مرتفعة لا يصل إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلا ثم انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء .

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ماليس يدخل تحت اختياره وهو فضل اللّه تعالى

بصرف القواطع المفسدات ، فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاه بماء الطاعات ، وطهره من شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل اللّه تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاءا حقيقيا .

الفرق بين الرجاء والغرور :

الفرق بين الرجاء والغرور أن الرجاء إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح ، وإن دعا إلى البطالة والانهماك فى المعاصى فهو غرور ، فمن كان رجاؤه هاديا إلى الطاعة وزاجرا له عن المعصية فهو رجاء صحيح ، ومن كانت بطالته رجاء ورجاؤه تفريطا فهو المغرور ، ولو أن رجلا كانت له أرض يؤمل أن يعود عليه منها ما ينفعه فأهملها ولم يبذرها ولم يحرثها وحسن ظنه بأنه يأتى منها ما يأتى من حرث وبذر وسقى وتعاهد الأرض لعده الناس من أسفه السفهاء ، وكذلك لو حسن ظنه وقوى رجاؤه بأن يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب للعلم وحرص تام عليه وأمثال ذلك ، فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه فى الفوز بالدرجات العلا والنعيم والمقيم من غير تقرب إلى اللّه تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه .

وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة اللّه وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه ونسوا أنه شديد العقاب وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند .

قال معروف : رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق .

وقال بعض العلماء : من قطع عضوا منك فى الدنيا بسرقة ثلاثة دراهم لا تأمن أن تكون عقوبته فى الآخرة على نحو هذا. .

وقال رجل للحسن : أراك طويل البكاء . فقال : أخاف أن يطرحنى ولا يبالى .

وكان يقول : إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة ، يقول أحدهم لأنى أحسن الظن بربى وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل .

وسر المسألة : أن الرجاء إنما يكون من الإتيان بالأسباب التى اقتضتها حكمة اللّه فى شرعه وقدره فيأتى العبد بها ثم يحسن ظنه بربه ويرجوه أن لا يكله إليها ، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه ويعرض عما يعارضها ويبطل أثرها ، ومما ينبغى أن يعلم أن من رجا شيئا استلزم ثلاثة أمور :

أحدها : محبة ما يرجوه .

الثانى : خوفه من فواته .

الثالث : سعيه فى تحصيله بحسن الإمكان .

أما رجاء لا يقارنه شىء من ذلك فهو من باب الأمانى والرجاء شىء والأمانى شىء آخر ، فكل راج خائف والسائر على الطريق إذا خاف اسرع السير مخافة الفوات .

وفى حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة اللّه غالية ألا إن سلعة اللّه الجنة** »[1] .

وقال اللّه تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ** ﴾ [البقرة : ٢١٨] يعنى أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة اللّه ، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ، ولكن خصهم باستحقاق الرجاء .

---

(١) رواه الترمذى (٢٥٦٧ تحفة) صفة القيامة وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبى النضر والحاكم (٤/٣٠٧) وصححه ووافقه الذهبى والألبانى فى الصحيحة رقم ٩٥٤ .

فضـل الرجـاء :

● قال اللّه تعالى مخبرا عن مؤمن آل فرعون : ﴿ **وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ، فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا** ﴾ [غافر : ٤٤ ، ٤٥] لما حسن ظنه باللّه عز وجل وقال : ﴿ **وأفوض أمرى** ﴾ أى أسلمه إلى اللّه ليعصمنى من كل سوء كان الجواب من اللّه عز وجل : ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا** ﴾ .

● وقال تعالى فى الحديث القدسى : « **أنا عند ظن عبدى بى** »[1] .

قال ابن الجوزى : أى فى الرجاء وأمل العفو .

● وعن جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنهما أنه سمع النبى ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن باللّه عز وجل** »[2] قال العلماء : معنى إحسان الظن باللّه أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه ، وفى حالة الصحة يكون خائفا راجيا ، وإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه ؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصى والقبائح والحرص على إكثار الطاعة وصالح العمل وقد تعذر ذلك أو معظمه فى هذه الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى اللّه تعالى والإذعان له . قال القرطبى : نهوا أن يموتوا على غير حالة حسن الظن وذلك ليس بمقدورهم بل المراد الأمر بتحسين الظن ليوافى فى الموت وهو عليه أ. هـ ونظيره قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

● وعن أنس رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول قال اللّه تعالى : « **يا ابن آدم أنا ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا**

---

(١) رواه البخارى (٣٨٤/١٣) التوحيد ، ومسلم (١٢/١٧) فضل الذكر ، والترمذى (٢٣٤/٩) الزهد .

(٢) رواه مسلم بـ(٢٠٩/١٧) صفة الجنة ، وأبو داود (٢٠٩٧) الجنائز .

أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة »[1] .

قوله « **عنان السماء** » أى ما عَنَّ لك منها أى ظهر ، وقوله : « **قُراب الأرض** » أى ما يقارب ملئها .

وعن فقير بن مسكين قال : دخلت على الشافعى أعوده فى مرض موته فقلت له كيف أصبحت يا أبا عبد اللّه ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلا ، ولإخوانى مفارقا ، ولكأس المنية شاربا ، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها وأنشأ يقول :

وَلَّما قَسَا قَلْبِى وَضَاقَتْ مَذَاهِبِى ... جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّى لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِى ذَنْبِى فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّى كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَ

الأخبار فى الرجاء :

● قال اللّه تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر : ٥٣] وهذا فى حق التائبين لقوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ٤٨] .

ففى الآية الأولى أطلق وعمم أطلق المغفرة وعَمَّ بها كل الذنوب وفى الثانية قيد وخصص قيد المغفرة وخصصها بما دون الشرك فحمل العلماء الأولى على التائب ، والثانية فى حق غير التائب .

● وقال تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ** ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

---

(١) تقدم . (ص : ١٠٧) .

قال البيضاوى : وهذا فى الدنيا وأما فى الآخرة فقال تعالى : ﴿ **فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ** ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

- وقال تعالى : ﴿ **وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ** ﴾ [سبأ : ١٧] .
- وقال تعالى : ﴿ **إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ [طه : ٤٨] .

- وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « قدم على رسول الله ﷺ بسبى ، فإذا امرأة من السبى تسعى إذ وجدت صبيا فى السبى أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ : « **أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ، قلنا لا والله فقال الله أرحم بعباده من هذه بولدها** »[١] .

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى** »[٢] وفى رواية : « **غلبت غضبى** » وفى رواية : « **سبقت عضبى** » .

وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع دابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه** »[٣] .

- وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **والذى نفسى بيده لو**

---

(١) رواه البخارى (٤٢٦/١٠) الأدب ، ومسلم (٧٠/١٧) التوبة .

(٢) رواه البخارى (٣٨٤/١٣) التوحيد ، ومسلم (٦٨/١٧) التوبة والترمذى (٣٦١١ تحفة) الدعوات .

(٣) رواه البخارى (٤٣١/١٠) الأدب ، ومسلم (٦٨/١٧) التوبة والترمذى (٣٦٠٩ تحفة) الدعوات .

لم تذنبوا لذهب اللّه بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون اللّه تعالى فيغفر لهم »[1] .

● وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه قال : كنا مع رسول اللّه ﷺ فى قبة نحوا من أربعين فقال : « **أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ قلنا : نعم . قال : أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ قلنا نعم . قال : والذى نفسى بيده إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ، وما أنتم فى أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود ، أو كالشعرة السوداء فى جلد الثور الأبيض** »[2] .

قال العلماء : كل رجاء عن اللّه تعالى أو عن النبى ﷺ فهو كائن ألبته ، وإنما أتى فيه بصيغة الرجاء دون صيغة الجزم على عادة الملوك فى وعد ما يقطعون بفعله .

● وعن أبى موسى الاشعرى رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **إذا كان يوم القيامة دفع اللّه إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول هذا فكاكك من النار** »[3] .

قال النووى رحمه اللّه : معناه ما جاء فى حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه : لكل أحد منزل فى الجنة ومنزل فى النار ، فالمؤمن إذا دخل الجنة خلفة الكافر فى النار لأنه مستحق ذلك بكفره ومعنى فكاكك أنك كنت معروضا لدخول النار وهذا فكاكك لأن اللّه تعالى قدر للنار عددا يملؤها ، فإذا دخلها الكفار بذنوبهم وكفرهم صاروا فى معنى الفكاك للمسلمين واللّه أعلم .

---

(١) تقدم تخريجه (ص : ١٦٦) .

(٢) رواه مسلم (٣/٩٧، ٩٨) الإيمان ، والترمذى (١٥/١٠) صفة الجنة،وابن ماجة (٤٢٨٣) الزهد .

(٣) رواه مسلم (١٧/٨٥) التوبة .

قال عمر بن عبد العزيز والشافعي : هذا الحديث أرجى حديث للمسلمين قال النووى : وهو كما قالا لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم وتعميم الفداء ولله الحمد .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف قال فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته »**[1] .

● وعن أنس رضى الله عنه قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : **« يا رسول الله أصبت حدا فأقمه على ، فحضرت الصلاة فصلى مع رسول الله ﷺ فلما قضى الصلاة قال يا رسول الله إنى أصبت حدا فأقم فى كتاب الله قال : هل حضرت معنا الصلاة ؟**

قال : نعم . قال : قد غفر لك »[2] .

قال النووى رحمه الله : قوله « **أصبت حدا** » معناه معصية توجب التعزير وليس المراد الحد الشرعى الحقيقى كحد الزنا والخمر وغيرهما فإن هذه الحدود لا تسقط بالصلاة ولا يجوز للإمام تركها .

الجمع بين الخوف والرجاء :

اعلم أن المختار للعبد فى حال صحته أن يكون خائفا راجيا وأن يكون خوفه ورجاؤه سواء ، وفى حال المرض يتمحض الرجاء ، وقواعد الشرع من نصوص الكتاب والسنة وغير ذلك متضافرة على ذلك قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [الأعراف : ١٦٧] .

---

(١) رواه البخارى (٩٦/٥) المظالم ، ومسلم (٨٦/١٧ ، ٨٧) التوبة وكنفه أى ستره وعفوه .
(٢) رواه مسلم (٨٢/١٧) التوبة .

وقال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] .

والآيات فى هذا المعنى كثيرة جدا فيجتمع الخوف والرجاء فى آية أو آيتين متتاليتين أو آيات متتالية .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد** »[1] .

قال صاحب المدارج :

القلب فى سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر ، ومتى فقد الجناحان فهو عرضه لكل صائد وكاسر ، ولكن السلف استحبوا أن يقوى فى الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف .

قال أبو سليمان وغيره : ينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فإن غلب عليه الرجاء فسد .

وقال غيره : أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة المحبة ، فالمحبة هى المركب والرجاء حاد والخوف سائق والله الموصل بمنه وكرمه .

---

(١) رواه البخارى (١١/٣٠١) التوبة ، ومسلم (١٧/٧٠) التوبة ، والترمذى (٣٦١٠ تحفة)الدعوات وأحمد (٢/٣٣٤ ، ٣٩٧ ، ٤٨٤) .

١٩ - التوكل

التوكل هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل فى استجلاب المصالح ودفع المضار فى أمور الدنيا والآخرة ، وقد جعل الله عز وجل لكل عمل من أعمال البر ومقام من مقاماته جزاءً معلوما وجعل نفسه جزاء المتوكل عليه وكفايته ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق : ٢] وقال: ﴿ ومَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ ﴾ [النساء : ٦٩] الآية ثم قال فى التوكل : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٢] فانظر إلى هذا الجزاء الذى حصل للمتوكل ولم يجعله لغيره ، وهذا يدلّ على أن التوكل من أقوى السبل عنده وأحبها إليه وقال الله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل .

وقال عز وجل : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا ﴾ [الأحزاب : ٣] .

وإذا كان كفى به وكيلا فهذا مختص به سبحانه ليس غيره من الموجودات كفى به وكيلا ، فإنه من يتخذ من المخلوقين وكيلا غايته أن يفعل بعض الأمور وهو لا يفعلها إلا بإعانة الله له وهو عاجز عن أكثر المطالب ، فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلا علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج معه إلى غيره فى جلب المنافع ودفع المضار إذ لو تبقى شر لم يكن كفى به وكيلا ، وهذا يقتضى بطلان ظن أن المتوكل لا يحصل له بتوكله عليه جلب منفعة ولا دفع مضرة بل يجرى كما لو لم يتوكل عليه .

(*) إحياء علوم الدين - جامع العلوم والحكم - رسالة التوكل لابن تيمية .

وينبغى أن يعلم أن التوكل من أعمال القلوب وليس من أعمال الجوارح ، فليس هناك منافاة بين التوكل والأخذ بالأسباب ، فالنبى ﷺ أعظم المتوكلين على الله عز وجل فهذا حاله ، والكسب سنته ، فمن عمل على حالة فلا يتركن سنته ، وقيل عدم الأخذ بالأسباب طعن فى التشريع ، والاعتقاد فى الأسباب طعن فى التوحيد .

والذين يقولون بترك الأسباب جملة ادَّعَوا لأنفسهم حالا أكمل من حال رسول الله ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم ، إذ لم يكن فيهم أحد قط يفعل ذلك ولا أخل بشىء من الأسباب ، وقد ظاهر رسول الله ﷺ بين درعين يوم أحد ولم يحضر الصف قط عريانا كما يفعله من لا علم عنده ولا معرفة ، واستأجر دليلا مشركا على دين قومه يدله على طريق الهجرة وقد هدى الله به العالمين وعصمه من الناس أجمعين ، وكان يدخر لأهله قوت سنة وهو سيد المتوكلين ، وكان إذا سافر فى جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه وهم أهل التوكل حقا وأكمل المتوكلين بعدهم هو من أشتم رائحة توكلهم أو لحق أثراً من غبارهم ، فحال النبى ﷺ وحال أصحابه محك الأحوال وميزانها بها يعلم صحيحها من سقيمها ، فإن هممهم فى التوكل أعلى من همم من بعدهم فإن توكلهم كان فى فتح بصائر القلوب ، وأن يعبد الله فى جميع البلاد ، وأن يوحده كل العباد ، وأن تشرق شموس الدين الحق على قلوب العباد ، فملؤا بذلك التوكل القلوب هدىً وإيمانا ، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان ، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم فملأتها يقينا وإيمانا ، فكانت همم الصحابة رضى الله عنهم أعلى وأجل من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله فى شىء يحصل بأدنى حيلة وسعى فيجعله نصب عينيه ويحمل عليه قوى توكله ، فحقيقة التوكل اعتماد القلب على الله وحده ، والثقة به وحده والسكون إليه وحده ، والطمأنينة به وحده ، لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته وجميع مصالحه كلها بيده وحده لا بيد غيره ، فأين يجد قلبه مناصا من التوكل بعد هذا .

والأعمال التى يعلمها العباد ثلاث أقسـام :

أحدها : الطاعات التى أمر اللّه بها عباده وجعلها سببًا للنجاة من النار ودخول الجنة فهذا لابد من فعله مع التوكل على اللّه عز وجل فيه والاستعانة به عليه ، فإنه لا حول ولا قوة إلا باللّه وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فمن قصر فى شىء مما وجب عليه من ذلك استحق العقوبة فى الدنيا والآخرة شرعاً وقدراً .

قال يوسف بن أسباط : يقال : اعمل عملَ رجل لا ينجيه إلا عمله وتَوَكَّلْ توكلَ رجل لا يصيبه إلا ما كتب له .

القسم الثانى : ما أجرى اللّه به العادة فى الدنيا وأمر عباده بتعاطيه كالأكل عند الجوع ، والشرب عند العطش ، والاستظلال من الحر ، والتدفؤ من البرد ونحو ذلك ، فهذا أيضا واجب على المرء تعاطى أسبابه ، ومن قصر فيه حتى تضرر بتركه مع القدرة على استعماله فهو مفرط يستحق العقوبة .

القسم الثالث : ما أجرى اللّه العادة به فى الدنيا فى الأعم الأغلب وقد يخرق العادة فى ذلك لمن شاء من عباده ، وهى أنواع كالأدوية مثلا ، وقد اختلف العلماء هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوى أم تركه لمن حقق التوكل على اللّه ؟ فيه قولان مشهوران ، وظاهر كلام الإمام أحمد أن التوكل لمن قوى عليه أفضل لقوله ﷺ : « **يدخل من أمتى الجنة سبعون ألفا بغير حساب ثم قال : هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون** »[1] ومن رجح التداوى قال إنه حال النبى ﷺ الذى كان يداوم عليه ، وهو لا يفعل

---

(١) رواه البخارى (١٠/١٥٥) الطب ، ومسلم (٣/٨٨) الإيمان ، والترمذى (٩/٢٦٧) صفة القيامة وفيه زيادة « مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثياته » وقال : هذا حديث حسن صحيح وحسنها الألبانى .

إلا الأفضل ، وحمل الحديث على الرقى المكروهه التى يخشى منها الشرك بدليل أنه قرنها بالكى والطيرة وكلاهما مكروه .

قال مجاهد وعكرمة والنَّخَعى وغير واحد من السلف : لا يرخص فى ترك السبب بالكلية إلا لمن انقطع قلبه عن الاستشراف إلى المخلوقين بالكلية .

وسئل اسحق بن راهويه : هل للرجل أن يدخل المفازة بغير زاد ؟ فقال : إن كان الرجل مثل عبد اللّه بن جبير فله أن يدخل المفازة بغير زاد ، وإلا لم يكن له أن يدخل .

٢٠ - الرضـــا(*)

قد أجمع العلماء على أنه مستحب مؤكد استحبابه واختلفوا فى وجوبه على قولين : قال شيخ الإسلام : ولم يجىء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر وإنما جاء الثناء على أصحابه ومدحهم .

قال النبى ﷺ : « **ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا** »(١) .

وقال النبى ﷺ : « **من قال حين يسمع النداء رضيت بالله ربا والإسلام دينا وبمحمد رسولا غفرت ذنوبه** »(٢) .

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهى ، وقد تضمنا الرضا بربوبيته سبحانه وإلهيته ، والرضا برسوله ﷺ ، والرضا بدينه والتسليم له ، ومن جمعت له هذه الأربعة فهو الصديق حقا ، وهى سهلة بالدعوى واللسان

(*) موعظة المؤمنين - مجموع فتاوى ابن تيمية - عدة الصابرين لابن القيم .

(١) رواه مسلم (٢/٢) الإيمان ، والترمذى (٩١/١٠) الإيمان قال صاحب التحرير : معنى رضيت بالشىء قنعت به واكتفيت به ولم أطلب معه غيره فمعنى الحديث لم يطلب غير الله تعالى ولم يسع فى غير طريق الإسلام ، ولم يسلك إلا ما يوافق شريعة محمد ﷺ ولا شك أن من كانت هذه صفته فقد خلصت حلاوة الإيمان إلى قلبه وذاق طعمه .

وقال القاضى عياض رحمه الله : معنى الحديث صح إيمانه واطمأنت به نفسه وخامر باطنه لأن رضاه بالمذكورات دليل لثبوت معرفته ونفاذ بصيرته ومخالطة بشاشته قلبه لأن من رضى أمرا سَهُلَ عليه فكذا المؤمن إذا دخل قلبه الإيمان سهل عليه طاعات الله تعالى ولذت له والله أعلم . (شرح النووى على صحيح مسلم ٢/٢) .

(٢) رواه مسلم (٨٦/٤) الصلاة ، وأبو داود (٥٢١) الصلاة ، والترمذى (١١/٢ ، ١٢) الصلاة بزيادة التشهد فى أوله فى المواضع الثلاثة .

وهى من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان ، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها ، من ذلك يتبين أن الرضا كان لسانه به ناطقا فهو على لسانه لا على حاله .

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا به وحده وخوفه ورجاؤه والإنابة إليه وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه ، فعل الراضى بمحبوبه كل الرضا وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له .

والرضا بربوبيته يتضمن الرضا بتدبيره لعبده ، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به .

فالأول يتضمن رضاه بما يؤمر به والثانى يتضمن رضاه بما يُقَدَّرُ عليه .

وأما الرضا بنبيه ﷺ رسولا فيتضمن كمال الانقياد له والتسليم المطلق إليه ، بحيث يكون أولى به من نفسه فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ، ولا يحاكم إلا إليه ، ولا يحكم عليه غيره ، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة .

وأما الرضا بدينه : فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضى كل الرضا ولم يبق فى قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليما ولو كان مخالفا لمراد نفسه أو هواها أو قول مقلده وشيخه وطائفته ، وهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء فى العالم فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد فإنه والله عين العزة والصحبة مع الله ورسوله وروح الأنس به والرضا به ربا وبمحمد ﷺ رسولا وبالإسلام دينا .

فالرضا لم يوجبه الله على خلقه ولكن ندبهم إليه وأثنى على أهله وأخبر أنه ثوابه رضاه عنهم الذى هو أعظم وأكبر وأجل من الجنان وما فيها ، فمن رضى عن ربه رضى الله عنه ، بل رضا العبد عن الله من نتائج رضى الله عنه فهو محفوف بنوعين من رضاه عن عبده رضا قبله أوجب له أن يرضى عنه ورضا بعده هو ثمرة رضاه عنه ، ولذلك كان الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العارفين وحياة المحبين ونعيم العابدين وقرة عين المشتاقين .

والعبد فيما يكره درجتان : درجة الرضا ودرجة الصبر ، فالرضا فضل مندوب إليه والصبر واجب على المؤمن حتم .

وأهل الرضا تارة يلاحظون المبتلى وخيرته لعبده فى البلاء وأنه غير متهم فى قضائه ، وتارة يلاحظون عظمة المبتلى وجلاله وكماله فيستغرقون فى مشاهدة ذلك حتى لا يشعرون بالألم وهذا يصل إليه خواص أهل المعرفة والمحبة حتى ربما تلذذوا بما أصابهم لملاحظتهم صدوره من حبيبهم ، والفرق بين الرضا والصبر أن الصبر حبس النفس وكفها عن السخط مع وجود الألم وتمنى زواله وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع ، والرضا انشراح الصدر وسعته بالقضاء وترك تمنى زوال الألم ، وإن وجد الإحساس بالألم لكن الرضا يخففه بما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة ، وإذا قوى الرضا فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية .

قال ابن مسعود رضى الله عنه : « إن الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح فى اليقين والرضا وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط » .

وقال علقمة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] هى المصيبة تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى .

وقال أبو معاوية الأسود فى قوله تعالى : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] الرضا والقناعة . ودخل أبو الدرداء رضى الله عنه على رجل يموت وهو يحمد الله فقال أبو الدرداء : أصبت إن الله عز وجل إذا قضى قضاء أحب أن يرضى به .

ونظر على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى عدى بن حاتم كئيبا فقال : يا عدى : من رضى بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر ، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر .

وقيل له : ما تشتهى ؟ فقال : ما يقضى الله عز وجل .

وقال الحسن : من رضى بما قسم له وسعه وبارك اللّه له فيه ومن لم يرض لم يسعه ولم يبارك له فيه .

وقال بعضهم : من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء .

وقال بعضهم : لن يُرَى فى الآخرة أرفعَ درجاتٍ من الراضين عن اللّه تعالى على كل حال فمن وهب له الرضا فقد بلغ أفضل الدرجات . وأصبح أعرابى وقد مات له أباعر كثيرة .فقال :

لَا وَالَّذِى أنا عَبْدٌ فِى عِبَادَتِهِ ... لَو لَا شَمَاتَةُ أَعْدَاءِ ذَوِى إِحِنِ
مَا سَرَّنِى أَنْ إِبِلِى فِى مَبَارِكِهَا ... وَأَنَّ شَيْئًا قَضَاهُ اللَّهُ لَمْ يَكُنِ

محبة الله عز وجل*

المحبة هى المنزلة التى فيها تنافس المتنافسون ، وإليها شخص العاملون ، وإلى علمها شمر السابقون ، وبروح نسميها تروح العابدون ، فهى قوت القلوب ، وغذاء الأرواح ، وقرة العيون ، وهى الحياة التى من حرمها فهو من جملة الأموات ، والنور الذى من فقده فهو فى بحار الظلمات ، والشفاء الذى من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام ، واللذة التى من لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام ، وهى روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال التى متى خلت منها فهى كالجسد الذى لا روح فيه ، تحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا إلا بشق الأنفس بالغيها ، وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدا واصليها ، وتبوؤهم من مقاعد الصدق ما لم يكونوا لولاها داخليها ، وهى مطايا القوم التى مسراهم على ظهورها دائما إلى الحبيب ، وطريقهم الأقوم الذى يبلغهم إلى منازلهم الأولى عن قريب ، باللّه لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ، إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب ، وقد قضى اللّه يوم قدر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة أن المرء مع من أحب ، فيالها من نعمة على المحبين سابغة ، والمحبة للّه عز وجل هى الغاية القصوى من المقامات ، والذروة العليا من الدرجات ، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا ،.ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .

وأنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته ، وفطرت الخليقة على تأليهه ، فإن الإله هو الذى تألهه القلوب بالمحبة

(*) انظر الجواب الكافى لابن القيم – واغاثة اللهفان له كذلك وإحياء علوم الدين للغزالى .

والإجلال والتعظيم والذل له والخضوع والتعبد ، والعبادة لا تصلح إلا له وحده ، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل ، والله تعالى يُحَبُّ لذاته من جميع الوجوه وما سواه فإنما يحب تبعا لمحبته ، وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ودعوة جميع رسله وفطرته التي فطر عباده عليها وما ركب فيهم من العقول وما أسبغ عليهم من النعم ، فإن القلوب مفطورة مجبولةٌ على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها ، فكيف بمن كل الإحسان منه وما بخلقه جميعا من نعمة فمنه وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا بِكُمْ مِن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾ [النحل : ٥٣] وما تعرف به إلى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العلا وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته .

قال الله تعالى : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ** ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ** ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وقال ﷺ : « **والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين** »[1] وقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : « **لا حتى أكون أحب إليك من نفسك** »[2] .

---

(١) رواه البخارى (١/٥٨) الإيمان ، ومسلم (٢/١٥) الإيمان قال الحافظ : قوله « لا يؤمن » أى إيمانا كاملا .

وقال القاضى عياض وابن بطال وغيرهما المحبة ثلاثة أقسام محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد ومحبة مشاكلة وإحسان كمحبة سائر الناس فجمع ﷺ أصناف المحبة فى محبته . وقال ابن بطال : ومعنى الحديث أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبى ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين لأن به ﷺ استنقذنا من النار وهدينا من الضلال .

(٢) رواه البخارى (١١/٥٢٣) الأيمان والنذور .

وإذا كان النبى ﷺ أولى بنا من أنفسنا فى المحبة ولوازمها أفليس الرب جل جلاله أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم وكل مَا منْهُ إلى عبده يدعوه إلى محبته مما يحب العبد ويكره ، فعطاؤه ومنعه ومعافاته وابتلاؤه وقبضه بسطه وعدله وفضله وإماتته واحياؤه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه وصبره على عبده وإجابته لدعائه وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه إليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه كل ذلك داع للقلوب إلى تأليهه ومحبته ، فلو أن مخلوقا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن إليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته ، فخيره إليه نازل وشره إليه صاعد ، يتحبب إليه بنعمه وهو غنى عنه ، والعبد يتبغض إليه بالمعاصى وهو فقير إليه ، فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يصده عن معصيته ، ولا معصية العبد ولؤمه يقطع إحسان ربه عنه .

وأيضا فكل من تحبه من الخلق ويحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك ، واللّه سبحانه يريدك لك ، وأيضا فكل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يعاملك ، ولابد له من نوع من أنواع الربح ، والرب تعالى إنما يعاملك لتربح عليه أعظم الربح وأعلاه ، فالدرهم بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بواحدة وهى أسرع شيء محوا .

وأيضا فهو سبحانه خلقك لنفسه وخلق كُل شيء لك فى الدنيا والآخرة ، فمن أولى منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذل الجهد فى مرضاته .

وأيضا فمطالبك - بل مطالب الخلق كلهم جميعا - لديه وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين أعطى عبده قبل أن يسأله فوق ما يؤمله ، يشكر القليل

= قال القاضى عياض رحمه اللّه : ومن محبته ﷺ نصرة سنته والذب عن شريعته وتمنى حضور حياته فيبذل نفسه وماله دونه قال : وإذا تبين ما ذكرناه تبين أن حقيقة الإيمان لا يتم إلا بذلك ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبى ﷺ ومنزلته على كل والد وولد ومحسن ومفضل ، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن - شرح النووى على صحيح مسلم هامش (١٥/٢ ، ١٦) .

من العمل وينميه ويغفر الكثير من الذلل ويمحوه ﴿ **يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرض كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ** ﴾ [الرحمن : ٢٩] لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، بل يحب الملحين فى الدعاء ، ويحب أن يسأل ويغضب إذا لم يسأل ، يستحى من عبده حيث لا يستحى العبد منه ، ويستره حيث لا يستر نفسه ، ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ، دعاه بنعمه وإحسانه وأياديه إلى كرامته ورضوانه فأبى ، فأرسل رسله فى طلبه وبعث معهم عهده ، ثم نزل إليه سبحانه بنفسه وقال : « **من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له** »[1] وكيف لايحب القلب من لا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يجيب الدعوات ويقيل العثرات ويغفر الخطيئات ويستر العورات ويكشف الكربات ويغيث اللهفات وينيل الطلبات سواه ؟ فهو أحق من ذُكِرَ ، وأحق من شُكِرَ ، وأحق من عُبِدَ ، وأحق من حُمِدَ ، وأنصر من ابْتُغِيَ وأرأف من مَلَكَ وأجود من سئل وأوسع من أعطى وأرحم من استرحم وأكرم من قُصِدَ وأعز من التُجِئَ إليه وأكفى من تُوُكِّلَ عليه ، أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأشد فرحا بتوبه التائب من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة ثم وجدها ، وهو الملك لا شريك له والفرد لانِدَّ له ، كل شيءٍ هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه ، ولن يعصى إلا بعلمه ، يطاع فَيَشكر وبتوفيقه و نعمته أُطِيعَ ، ويعصى فيغفر ويعفو وحقه أضيع ، فهو أقرب شهيد ، وأجل حفيظ وأوفى بالعهد ، وأعدل قائم بالقسط ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصى ، وكتب الآثار ، ونسخ الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف ، عنت الوجوه لنور وجهه ، وعجزت العقول عن إدارك كنهه ، ودلت الفطر والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه ، أشرقت لنور وجهه الظلمات واستنارت له الأرض والسماوات ، وصلحت عليه جميع

---

(١) رواه البخارى (٤٦٤/١٣) التوحيد ، ومسلم (٣٨/٦ ، ٣٩) صلاة المسافرين ، والترمذى (٣٠/١٣) الدعوات ، وأبو داود (١٣٠١) الصلاة .

المخلوقات ، لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه .

ومحبة اللّه عز وجل هى حياة القلوب وغذاء الأرواح ، وليس للقلب لذة ولا فلاح ولا حياة إلا بها ، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها ، والأذن إذا فقدت سمعها ، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلا من الروح ، وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة وما لجرح بميت إيلام .

الأسباب الجالبة للمحبة الموجبة لها :

الأول : قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به كتدبر الكتاب الذى يحفظه العبد ويشرحه ليتفهم مراد صاحبه منه .

الثانية : التقرب إلى اللّه عز وجل بالنوافل بعد الفرائض كما قال تعالى فى الحديث القدسى : « **وما تقرب إلى عبدى بشىء أحبَّ إلَى مما افترضته عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه** »[(١)] .

الثالث : دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر .

الرابع : إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى والتسنم إلى محابه وإن صعب المرتقى .

الخامس : مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها وتقلبه فى رياض هذه المعرفة ومباديها ، فمن عرف اللّه بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا

(١) رواه البخارى (١١/٣٤٠/٣٤١) الرقاق ، وأبو نعيم (١/٤ ، ٥) الحلية والبغوى فى شرح السنة ، وانظر الصحيحة للألبانى ١٦٤٠ .

محالة ، ولهذا كانت المعطلة والجهمية قطاع الطرق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب .

السادس : مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة فإنها داعية إلى محبته .

السابع : وهو من أعجبها انكسار القلب بكليته بين يدى اللّه تعالى وليس فى التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات .

الثامن : الخلوة به وقت النزول الإلهى لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة .

التاسع : مجالسة المحبين الصادقين ، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر ، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدا ومنفعة لغيرك .

العاشر : مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين اللّه عز وجل .

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب .

محبة اللّه تعالى للعبد ومعناها :

قال اللّه عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٢٢] وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا** ﴾ [الصف : ٤] وأخبر عز وجل أنه لا يعذب من يحبه فرد عل الذين ادَّعَوا أنهم أحباء اللّه عز وجل بقوله : ﴿ **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ** ﴾ [المائدة : ١٨] .

وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] ومن علامات محبة اللّه عز وجل للعبد حسن التدبير له يربيه فى الطفولة على أحسن نظام ، ويكتب الإيمان فى قلبه وينور له عقله فيتبع كل ما يقربه منه وينفر عن كل ما يبعده عنه ، ثم يتولاه بتيسير أموره من غير ذلٍ للخلق ، ويسدد ظاهره ويجعل همه واحدا ، فإذا زادات المحبة شغله به عما سواه .

علامات محبة الرب جل وعلا :

أما محبة العبد للّه فاعلم أن المحبة يدعيها كل أحد فما أسهل الدعوى وأعز المعنى ، ولا ينبغى أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس إذا ادعت محبة اللّه تعالى ما لم يمتحنها بالعلامات ويطالبها بالبراهين ، فمن العلامات حب لقاء اللّه تعالى فى الجنة ، ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه اللّه تعالى على ما يحبه فى ظاهره وباطنه فيتجنب اتباع الهوى ويعرض عن الدعة والكسل ، ولا يزال مواظبا على طاعة اللّه عز وجل متقربا إليه بالنوافل ، ومن أحب اللّه فلا يعصه ، إلا أن العصيان لا ينافى أصل المحبة إنما يضاد كمالها فكم من إنسان يحب الصحة ويأكل ما يضره ، وسببه أن المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ، ويدل على ذلك حديث نعمان أنه كان يؤتى به رسول اللّه ﷺ فيحده إلى أن أتى به يوما فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به فقال رسول اللّه ﷺ : « **لا تلعنه فإنه يحب اللّه ورَسُوْلَهُ** »[1] فلم تخرجه المعصية عن المحبة وإنما أخرجته عن كمالها .

---

(١) رواه البخارى (٧٥/١٢) الحدود .

وقال الحافظ فى فوائد الحديث : فيه أن لا تنافى بين ارتكاب النهى وثبوت محبة اللّه ورسوله فى قلب المرتكب لأنه ﷺ أخبر بأن المذكور يحبُّ الله ورسوله مع وجود ما صدر منه ، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة اللّه ورسوله ويؤخذ منه تأكيد ما تقدم أن نفى الإيمان عن شارب الخمر لا يراد به زواله بالكلية بل نفى كماله كما تقدم . [فتح البارى ٨٧/١٢] .

ومنها : أن يكون محبا لكلام الله عز وجل ولرسوله ﷺ ولأهل الإيمان ، ومنها : أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق فأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته .

ومنها : أن يكون شفيقا على المسلمين رحيما بهم شديدا على أعدائه كما قال تعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، فهذه علامات المحبة فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته وصفا فى الآخرة شرابه ، ومن امتزج حبه لله بحب غيره فيمزج شرابه كما قال تعالى : ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ٢٥ ، ٢٨] فقوبل الخالص بالصرف والمشوب بالمشوب : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

قال بعض الصالحين فى علامات المحبة :

لَا تُخْدَعَنَّ فَلِلْحَبِيبِ دَلَائِلُ ... وَلَدَيْهِ مِنْ تُحَفِ الْحَبِيبِ وَسَائِلُ
مِنْهَا تَنَعُّمُهُ بِمُرِّ بَلَائِهِ ... وَسُرُورُهُ فِي كُلِّ مَا هُوَ فَاعِلُ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَى مُتَبَسِّمًا ... وَالْقَلْبُ فِيهِ مِنَ الْحَبِيبِ بَلَابِلُ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ يُرَى مُتَفَهِّمًا ... لِكَلَامِ مَنْ يَحْظَى لَدَيْهِ السَّائِلُ

وقال غيره :

وَمِنَ الدَّلَائِلِ حُزْنُهُ وَنَحِيبُهُ ... خَوْفَ الْكَلَامِ فَمَا لَهُ مِنْ عَاذِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ مُسَافِرًا ... نَحْوَ الْجِهَادِ وَكُلِ فِعْلٍ فَاضِلِ

وَمِنَ الدَّلَائِلِ زُهْدُهُ فِيمَا يَرَى   مِنْ دَارِ ذُلٍّ وَالنَعِيمِ الزَّائِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَن تَرَاهُ بَاكِياً   أَنْ قَدْ رَآهُ عَلَى قَبِيحِ فَعَائِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ مُسَلِّمَا   كُلَّ الْأُمُورِ إِلَى المَلِيكِ العَادِلِ
وَمِنَ الدَّلَائِلِ أَنْ تَرَاهُ رَاضِيًا   بِمَليكة فِي كُلِّ حُكْمٍ نَازِلِ

٢٢ - قصر الأمل
والاستعداد للموت*

قصر الأمل هو العلم بقرب الرحيل وسرعة انقضاء مدة الحياة ، وهو من أنفع الأمور للقلب فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة التى تمر مر السحاب ، ومبادرة طي صحائف الأعمال ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء ويحثه على قضاء جهاز سفره وتدراك الفارط ويزهده فى الدنيا ويرغبه فى الآخرة .

قال اللّه عز وجل : ﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الحجر : ٣] .

أى دعهم يعيشوا كالأنعام ولا يهتمون بغير الطعام والشهوات .

وقوله : ﴿ **وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ** ﴾ أى يشغلهم طول الأمل والعمر وبلوغ الوطر . استقامة الحال عن الإيمان والأخذ بطاعة اللّه تعالى .

قال الحافظ فى الفتح : هذا تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدى إليه طول الأمل ليس من أخلاق المؤمنين .

وقال تعالى : ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [المنافقون : ١٠ ، ١١] .

(*) إحياء علوم الدين - جامع العلوم والحكم - رياض الصالحين - فتح البارى .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ، وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ، أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ، أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر : ٥٤ ، ٥٨] .

عن أنس رضى الله عنه قال : « **خط رسول الله ﷺ خطا وقال : هذا الإنسان وخط إلى جنبه خطا وقال : هذا أجله ، وخط خطا آخر بعيدا منه فقال وهذا الأمل فبينما هو كذلك إذ جاءه الأقرب** »[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أعذر الله إلى أمرىء أخر أجله حتى بلغ ستين سنة** »[2] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يتمنينَّ أحدُكم الموت إما محسنا فلعله يزداد ، وإما مسيئا فلعله يستعتب** »[3] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال :

---

(١) رواه البخارى (١١/٢٣٥ ، ٢٣٦) الرقاق .

(٢) رواه البخارى (١١/٢٣٨) الرقاق ، وأحمد (٢/٢٧٥) ، والحاكم (٢/٤٢٧) التفسير .

(٣) رواه البخارى (١٠/١٢٧) المرضى بزيادة فى أوله ، ومسلم (١٧/٨) الذكر بمعناه والنسائى (٤/٢ ، ٣) الجنائز .

وقال النووى : فيه التصريح بكراهة تمنى الموت لضر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدوٍ أو نحو ذلك من مشاق الدنيا فأما إذا خاف ضررا أو فتنة فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره وقد فعل هذا الثانى خلائق من السلف عند خوف الفتنة فى أديانهم . أ.هـ .

ومن الأدلة قوله ﷺ فى حديث اختصام الملأ الأعلى : « وإذا أردت بقوم فتنةً فتوفنى غير مفتون » رواه أحمد والترمذى وقال الترمذى : حسن صحيح وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سيأتى على الناس زمان يكون الموت أحبُّ إلى العلماء من الذهب الأحمر حتى يأتى الرجل قبر أخيه فيقول : « ليتنى مكانك » .

« كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل »[1] .

وكان ابن عمر رضى اللّه عنهما يقول : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » .

وهذا الحديث أصل فى قصر الأمل فى الدنيا فإن المؤمن لا ينبغى له أن يتخذ الدنيا وطنا ومسكنا فيطمئن فيها ، ولكن ينبغى أن يكون فيها كأنه على جناح سفر وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم قال اللّه تعالى حاكيا عن مؤمن آل فرعون أنه قال : ﴿ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ [غافر : ٣٩] وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولا وطنا فينبغى للمؤمن أن يكون حاله فيها على حالين : إما أن يكون كأنه غريب يقيم فى بلد غربة همه التزود للرجوع إلى وطنه ، أو يكون كأنه مسافر غير مقيم ألبتة بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة ، فلهذا وصى النبى ﷺ ابن عمر أن يكون فى الدنيا على أحد هذين الحالين : فأحدهما أن يترك المؤمن نفسه كأنه غريب فى الدنيا يتخيل الإقامة لكن فى بلد غربة فهو غير متعلق القلب ببلد الغربة بل قلبه متعلق بوطنه الذى يرجع إليه فلا هم له إلا التزود بما ينفعه للعودة إلى موطنه قال الحسن : المؤمن كالغريب لا يجزع من ذلها ولا ينافس فى عزها له شأن وللناس شأن .

لما خلق آدم عليه السلام أسكن هو وزوجته الجنة ثم أهبط منها ووعد بالرجوع إليها وصالحى ذريتهما ، فالمؤمن أبدا يحن إلى وطنه الأول كما قال القائل :

كَم مَّنْزِلٍ لِلْمَرْءِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَنِينُهُ أَبَدًا لأَوَّلِ مَنْـزِلِ

---

(١) رواه البخارى (٢٣٣/١١) الرقاق ، وأحمد (٢٤/٢ ، ٤١) ، والترمذى (٢٠٣/٩) الزهد ، وأبو نعيم فى الحلية (٣٠١/٣) .

ويقول العلامة ابن القيم رحمه الله :

فَحَيِّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُنَا الأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا ونَسَلَمُ

الحالة الثانية : أن يترك المؤمن نفسه فى الدنيا كأنه مسافر غير مقيم ألبته إنما هو سائر فى قطع منازل السفر فليس له همة للاستكثار من طلب متاع الدنيا .

قال رجل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ قال : ما ظنك برجل يرتحل كل يوم مرحلة إلى الآخرة .

وقال الحسن : إنما أنت أيام مجموعة كلما مضى يوم مضى بعضك .

وقال كذلك : ابن آدم إنما أنت بين راحلتين مطيتين يوضعانك ، يوضعك الليل إلى النهار والنهار إلى الليل حتى يسلمانك إلى الآخرة ، فمن أعظم منك يا ابن آدم خطرا .

قال بعض الحكماء : كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره ، وشهره يهدم سنته ، وسنته تهدم عمره .

وقال الفضيل بن عياض لرجل : كم أتت عليك ؟ قال ستون سنة . قال : فأنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ فقال الرجل : ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ [البقرة : ١٥٦] فقال الفضيل : أتعرف تفسيره تقول : ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ** ﴾ فمن عرف أنه لله عبد وأنه إليه راجع فليعلم أنه موقوف ، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول ، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جوابا ، فقال الرجل : فما الحيلة ؟ قال يسيره . قال : ما هى ؟ قال تحسن فيما بقى يغفر لك ما مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقى أخذت بما مضى وما بقى .

وقال الحسن : اجتمع ثلاثة من العلماء فقالوا لأحدهم : مَا أَمَلُكَ ؟ قال ما أتى على شهر إلا ظننت أنى سأموت فيه . قال : فقال صاحباه : إن هذا هو

الأمل . فقالا لأحدهم : فما أملك ؟ قال : ما أتت على جمعةٌ إلا ظننت أنى سأموت فيها . قال : فقال صاحباه : إن هذا هو الأمل . فقالا للآخر : فما أملك : قال ما أمل من نفسه بيد غيره ؟! .

وقال بكر المُزَنِّى : إذا أردت أن تنفعك صلاتك فقل لعلى لا أصلى غيرها . أقام معروف الكرخى الصلاة ثم قال لرجلٍ تقدم فصل بنا فقال الرجل : إنى إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أنك تصلى صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع خير العمل .

السبب فى طول الأمل وعلاجه :

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر فى الموت الذى هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره فى نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه فيلهو عن ذكر الموت فلا يُقَدِّرُ قربه فإن خطر له فى بعض الأحوال قربَهُ والحاجة إلى الاستعداد له سوَّفَ ووعد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر يقول إلى أن يصير شيخا ، فإذا صار شيخا قال إلى إن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذا السفر فلا يزال يسوف ويؤخر ، ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر وهكذا على التدريج إلى أن تخطفه المنية فى وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته ، وأكثر أهل النار وصياحهم من

سوف ، والمسوف المسكين لا يدرى أن الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غدا وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا .

فَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبانَتَهُ[1]   وَمَاانْتَهَى أَرَبٌ إِلَّا إِلَى أَرَبِ

وأما الجهل : فهو أن الإنسان قد يعول على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عُدُّوا لكانوا أفرادًا قلائل ، وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشاب ، ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت من شباب وشيب وكهولة ، ومن صيف وشتاء ومن ليل ونهار لعظم به استشعاره واشتغل بالاستعداد له ، وهو أبدا يظن أن يشيع الجنائز ولا يُقَدِّرُ أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهد موت غيره فأما موت نفسه فلم يألفه ، فسبيله أن يقيس نفسه بغيره ويعلم أنه لابد وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره ، ولعل اللبن الذى يغطى به لحده قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدرى ، ولعل أكفانه قد نسجت وهو لا يدرى فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه ، أما حب الدنيا فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذى أعيا الأولين والآخرين ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فإن حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير .

أما علاج الجهل فلينظر الإنسان كل ساعة فى أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة ، وكيف تتفتت عظامها ، فما من شىء من لحمه وشحمه إلا وهو طعمة للدود ، وما من شىء من عظامه إلا وسيبلى ، ويعلم أن عينيه اللتين ينظر بهما إلى ما أحل الله وما حرم سوف يأكلها الدود ، وسوف

---

(١) قال فى المصباح المنير : اللُّبانة : الحاجة ، يقال : قضيت لبانتى .

يأكل الدود لسانه الذى يتكلم به ، وأن مفاصله التى كان يتحرك بها سوف تذهب أربطتها وتتناثر عظامها .

المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخيـر :

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما فى الغد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذى يقدم بعد شهر أو سنة وإنما يستعد للذى ينتظر قدومه غدا فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار .

عن عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه قال : التأنى فى كل شيء خير إلا فى أعمال الخير فى الآخرة ، وكان الحسن يقول فى موعظته المبادرة المبادرة فإنما هى الأنفاس ، لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى اللّه عز وجل ، رحم اللّه امرءاً نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية ﴿ **إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا** ﴾ [مريم : ٨٤] يعنى الأنفاس آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك ، آخر العدد دخولك فى قبرك .

وعن على رضى اللّه عنه قال : إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ولكل منهما بنون ، فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

٢٣ - ذكــر المــوت*

الحمد للّه الذى قصم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة ، الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأردَاهم فى الحافرة ، فنقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللحود ، ومن ملاعبة الجوارى والغلمان إلى مقاساة الديدان والهوام ، ومن التنعم بالطعام والشراب إلى التمرغ فى التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا واتخذوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .

فسبحان من انفرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفَناء ، ثم جعل الموت مخلصا للأتقياء ، وموعدا فى حقهم للقاء ، وجعل القبر سجنا للأشقياء ، وحبسا ضيقا عليهم إلى يوم الفصل والقضاء ، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر فى السموات والأرض وله الحمد فى الأولى والآخرة ، والصلاة والسلام على محمد ذى المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره ، وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده أن لا يكون له فكر إلا فى ذلك ولا استعداد إلا له .

---

(١) إحياء علوم الدين - معارج القبول - موارد الظمآن - مختصر التذكرة .

الترغيب فى ذكر الموت :

اعلم أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره ، وإذا ذُكِّرَ به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم : ﴿ **قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الجمعة : ٨] ثم الناس إما منهمك وإما تائب مبتدىء أو عارف منته .

أما المنهمك فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعدا .

وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة ، وربما يكْره الموت خيفة منَ أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل اصلاح الزاد ، وهو معذور فى كراهة الموت فهو كالذى يحب تأخر لقاء الحبيب حتى يستعد للقائه ، وعلامة هذا التائب أن يكون دائم الاستعداد للقاء لاشغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا ، وأما العارف فإنه يذكر الموت دائما لأنه موعد للقائه لحبيبه ، وهذا فى غالب الأمر يستبطىء مجىء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أكثروا من ذكر هاذم اللذات** »[1] أى نغصوا بذكر لموت لذات الدنيا حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى ، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أتيت رسول الله ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال : « **أكثرهم ذكرا للموت وأشدهم استعداد له أولئك**

---

(١) رواه الترمذى (١٨٧/٩) الزهد وقال : هذا حديث حسن غريب والنسائى (٤/٤) الجنائز ، وابن ماجة (٤٢٥٨) الزهد ، والحاكم (٣٢١/٤) الرقاق وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وصححه الألبانى بشواهده . وهاذم اللذات أى قاطعها .

هم الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة »[1] وقد جعل اللّه الموت من أعظم المصائب وقد سماه اللّه تعالى مصيبة فى قوله تعالى : ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ [المائدة : ١٠٦] وذلك لأنه تبدل من حال إلى حال وانتقال من دار إلى دار ، وهو المصيبة العظمى والرزية الكبرى ، وأعظم منه الغفلة عنه ، والاعراض عن ذكره وقلة التفكر فيه وترك العمل وقد أجمعوا على أن الموت وحده عبرة لمن اعتبر وفكرة لمن تفكر .

وقال فى مختصر التذكرة : واعلموا أيها الإخوان أن القلب القاسى يلين إن شاء اللّه تعالى بأمور : منها زيارة القبور ، وحضور مجالس الوعظ والصالحين ، وسماع أخبار من مضى من العباد والزهاد ، ومنها ذكر الموت الذى هو هاذم اللذات أى قاطعها ، ومفرق الجماعات بعد رغد عيشها ، وميتم البنين والبنات بعد عزهم بوالديهم .

وقال : ومن فوائد ذكر الموت أيضا ردع الإنسان عن ارتكاب المعاصى وترك الفرح بالدنيا وتهوين المصائب فيها ، وتأمل يا أخى أن من ثبت عليه ما يوجب القود ثم سحب إلى القتل لا يصير له داعية إلى فعل شىء من المعاصى ولا نظر لشىء من زينة الدنيا وشهواتها وتهون عليه كل مصيبة ، بخلاف من كان طويل الأمل فإنه يكون بالضد من ذلك ، ومنها أى من الأمور المذهبة لقساوة القلب مشاهدة المحتضرين ، فإن النظر إلى سكراتهم ونزاعاتهم ومعالجتهم فى طلوع الروح وشدة كربهم أعظم عبرة ، فإن الإنسان عن قريب يقع له مثل ذلك ومن لم يتعظ بالموتى فلا تنفعه موعظة .

قال الحسن : فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا ، وما ألزم عبد قلبه ذكر الموت إلا صغرت فى عينه الدنيا وهان عليه كل ما فيها .

---

(١) رواه ابن ماجة (٤٢٥٩) الزهد وقال العراق : رواه ابن ماجة مختصرا وابن أبى الدنيا بسند جيد ، وحسنه الألبانى لطرقه فى الصحيحة رقم ١٣٨٥ وقوله « أكيس » أى أعقل .

ونظر ابن مطيع يوما إلى داره فأعجبه حسنها ، ثم بكى وقال : « والله لولا الموت لكنت بك مسرورا ، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا .

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل تضعُونه فى صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب .

حقيقـة المـوت :

اعلم أن الناس فى الموت ظنوناً كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم ، وأنه لا حشر ولا نشر ، ولا عاقبة للخير والشر ، وظن قوم أن الميت لا يتنعم بثواب ولا يتألم بعقاب ، وقال آخرون : إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما يفنى الجسد ولا يبعث ولا يحشر وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق ، بل الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت تغير حال ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة فى النار أو منعمة فى الجنة ، والقبر كذلك إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

فالمـوت تغير حال من جهتـين :

إحداهما : أن الميت تسلب منه عيناه وأذناه ويداه ورجلاه ولسانه وجميع أعضائه ويسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ويسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء ، فإن المؤلم هو الفراق والفراق تارة يحصل بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال ، والألم واحد فى الحالتين ، وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم

آخر لا يناسب هذا العالم ، فإن كان له فى الدنيا شىء يأنس به ويستريح إليه ويعتد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه فى مفارقته ، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر اللّه ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته ، إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر اللّه ، فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة .

الثانى : أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفا له فى الحياة ، كما قد يتكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفا فى النوم ، والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأول ما يتكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته ، فلا ينظر إلى سيئه إلا ويتحسر عليها ، وينكشف للمؤمن عقيب الموت من سعة جلال اللّه ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن الضيق ، ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم ضيق فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه ، فيه أنواع الأشجار والأطيار والثمار فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم .

دواهـى المـوت الثلاث

الموت مصيبة كما قال اللّه عز وجل : ﴿ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ [المائدة : ١٠٦] وهذه المصيبة تشتمل على ثلاث دواهى . الداهية الأولى : سكرات الموت .

الداهية الثانية : رؤية ملك الموت أو ملائكة الموت .

الداهية الثالثة : خوف سوء الخاتمة وتبشير الفجار بالنار .

الداهية الأولى سكرات الموت :

لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها لكان جديرا بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره

ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقا بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده لا سيما وهو فى كل نفس بصدده ، فالموت كما قيل : « كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك » .

والعجيب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وسكرات النزع كما قيل : أشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقارض ، لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ، وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه وإنما انقطع صوت الميت وصياحه من شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وبلغ كل موضع منه ، فهد كل قوة وضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة الاستغاثة ولو كان المجذوب عرقا واحد لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح لا من عرق واحد بل من جميع العروق ، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجيا فتبرد أولا قدماه ، ثم ساقاه ، ثم فخذاه ، ولكل عضو سكرة بعد سكره ، وكربه بعد كربه ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة ، كما قال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ** ﴾ [النساء : ١٨] قال : إذا عاين الرسل ، وقال ﷺ : « **تقبل توبة المرء ما لم يغرغر** »(١) .

شدة موت النبى صلى الله عليه وسلم :

عن عائشة رضى الله عنها : « **أن رسول الله ﷺ كان بين يديه ركوة أو**

---

(١) تقدم تخريجه (ص : ١٥٩) .

عليه فيها ماء فجعل يدخل يده المباركة فيها ويمسح بها وجهه ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ، ثم نصب ﷺ يده وجعل يقول فى الرفيق الأعلى حتى قبض ﷺ ومالت يده »[1] .

وعنها قالت : « مات رسول الله ﷺ وإنه لبين حاقنتى وذاقنتى فلا أكره شدة الموت لأحد بعد رسول الله ﷺ »[2] والحاقنة المطمئن بين الترقوة والحلق ، والذاقنه نقرة الذقن ، وقيل غير ذلك .

الداهيـة الثانية : رؤية ملك الموت أو ملائكة الموت :

هذه الداهية تخص العصاه ويكفاها المؤمنون ، والتوفى تارة يضاف إلى الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ﴾ [الزمر : ٤٢] وتارة يضاف إلى ملك الموت لمباشرته ذلك كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ [السجدة : ١١] وتارة يضاف إلى أعوانه من الملائكة كما قال تعالى : ﴿ **تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ** ﴾ [الأنعام : ٦١] ولكن المتوفى فى الحقيقة هو الله ، قال الكلبى : يقبض ملك الموت الروح ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا وإلى ملائكة العذاب إن كان كافرا ، روى الإمام أحمد عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، وَلمّا يُلْحَدْ جلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير وفى يده عود ينكث به فى الأرض ، فرفع رأسه فقال : « **استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا** » ثم قال : « **إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا واقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من**

---

(١) رواه البخارى (١٤٤/٨) المغازى .

(٢) رواه البخارى (١٤٠/٨) المغازى .

أكفان الجنة وحنوط من حنوطها ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس المطمئنة أخرجى إلى مغفرة من اللّه ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فِيِّ السِقَاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا ما هذه الريح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقول اللّه عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه فيأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى اللّه ، ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول اللّه ﷺ ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب اللّه تعالى فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مد البصر ، قال : ويأته رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يَسُرُّك هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة رب أقم الساعة .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجى إلى سخط من اللّه وغضب ، قال : فتفرق فى جسده ، فينتزعها كما

ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة فيقولون : فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى فى الدنيا ، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ، فيطرح روحه طرحا ثم قرأ ، ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣٠] فتعاد روحه فى جسده ويأتيه مَلَكَان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ها ها لا أدرى ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ها ها لا أدرى ، فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فلا يهتدى لاسمه فيقال : محمد . فيقول : هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى ، فافرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت فوجهك الوجه الذى يجيء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث فيقول : رب لا تقم الساعة .

زاد فى رواية فى قصة المؤمن : « حتى إذا أخرج روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء وفتحت له أبواب السماء ، وليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله عز وجل أن يعرج بروحه من قبلهم » وزاد فى قصة الكافر « ثم يُقَيَّضُ له أعمى أصم أبكم فى يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان ترابا ، فيضربه فيصير ترابا ، ثم يعيده الله عز وجل كما كان فيضربه

ضربه أخرى فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الثقلان - قال البراء ثم يفتح له باب من النار ويمهد له فراش من نار »[1] .

الداهيـة الثالثـة : خوف سوء الخاتمـة وتبشير الفجار بالنار :

خوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين ، وهو من الدواهى العظيمة عند الموت ، فإنهم فى حال السكرات وقد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين ، إما أبشر يا عدو اللّه بالنار أو أبشر ياولى اللّه بالجنة ومن ثم كان خوف أرباب الألباب .

روى أن حذيفة بن اليمان رضى اللّه عنه عند احتضاره قال لا بن مسعود رضى اللّه عنه : قم فانظر أى ساعة هى ؟ فقام ابن مسعود ثم جاء فقال : قد طلعت الحمراء يعنى الشمس فقال حذيفة : أعوذ باللّه من صباح إلى النار .

وروى أن أبا هريرة بكى عند موته ثم قال : واللّه ما أبكى حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ، ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربى بجنة أم بنار .

وفى الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد أن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان اللّه وكرامته وأن الكافر إذا حضره الموت بشر بعذاب اللّه وعقوبته[2] .

وفيها عنه ﷺ : **« من أحب لقاء اللّه أحب اللّه لقاءه ، ومن كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه ، فقالوا : كلنا نكره الموت قال : ليس ذاك بذاك إن المؤمن**

---

(١) رواه أبو داود (٣١٩٦) الجنائز مختصرا ، (٤٧٢٧) السنة ، والحاكم (١/٣٧ ، ٣٨) الإيمان وقال : صحيح على شرط الشيخين وأحمد (٤/٢٨٧ ، ٢٨٨) وصححه الألبانى على شرط الشيخين .

(٢) رواه البخارى (١١/٣٥٧) الرقاق ، ومسلم (١٧/٩) الذكر والدعاء ، والنسائى (٤/١٠) الجنائز .

إذا فُرِّجَ له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه »[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ ، ٣٢] .

فقوله : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى عند الموت .

ما يستحب من أحوال المحتضر :

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله عز وجل .

أما الهدوء والسكون فلرؤية ملائكة الرحمة وتوليهم قبض روحه وتبشيره بجنة الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣٢] .

أما الفاجر والكافر فقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام : ٩٣] قال المفسرون : باسطوا أيديهم بالعذاب والنكال ؛ فإن روح الكافر إذا بشرت بالنار وبغضب الملك الجبار تَفرَّقُ فى جسده فتضرب الملائكة وجه الكافر ودبره وتقول : ﴿ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ﴾ عياذا بالله من حالهم .

---

(١) رواه البخارى (٣٥٧/١١) الرقاق ، ومسلم (٩/١٧) الذكر والدعاء ، والترمذى (٢٨٧/٤) الجنائز ، والنسائى (٩/٤ ، ١٠) الجنائز .

وأما اللسان فالمستحب من حاله أن يكون ناطقا بالشهادة لقوله ﷺ : « **من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة** »[1] فهذه علامة على حسن الخاتمة ، ويدخل فى ذلك من استصحب معناها كأن يتكلم بعدها بطاعة الله عز وجل أو يعمل عملا صالحا ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم لا إله إلا الله » ويستحب لأهل الخير حضور الميت لعله ينتفع بدعوتهم ولا يتكلمون عنده إلا بخير لحضور الملائكة وتأمينهم على دعاء الحاضرين .

ويستحب من القلب أن يكون حسن الظن بالله عز وجل لما فى حديث جابر بن عبد الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول : « **لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل** »[2] .

قال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبى لما حضرته الوفاة يا معتمر حدثنى بالرخص لعلى ألقى الله عز وجل وأنا أحسن الظن به .

وقال بعضهم عند موته : كيف لا أرجوه وقد صمت له ثمانين رمضان .

مرض أعرابى فقيل له إنك تموت : فقال : أين يذهب بى ؟ قالوا إلى الله . قال : وما كراهتى أن أذهب إلى من لا يُرى الخير إلا منه .

وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد عند موته محاسن عمله ويذكر برحمة الله عز وجل وعفوة لعله يلقى الله عز وجل وهو حسن الظن به .

---

(١) رواه أبو داود (٣١٠٠) الجنائز ، والحاكم (٣٥١/١) الجنائز وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وأحمد (٢٣٣/٥) وحسنه الألبانى .

قال الكرمانى : قوله : « لا إله إلا الله » أى هذه الكلمة والمراد هى وضميمتها محمد رسول الله .

وقال محمد شمس الحق أبادى : والتلقين أن يذكر عنده لا أن يأمره به [عون المعبود ٣٨٦/٨] .

(٢) تقدم تخريجه .(ص : ٢٣٠)

فصل فى كلام بعض المحتضرين من الخلفاء والأمراء والصالحين :

لما حضرت مروان بن عبد الملك الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يغسل ثوبا بيده ثم يضرب به المغسلة فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ولم أل من أمر الدنيا شيئا فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه .

وقيل لعبد الملك فى مرضه الذى مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين قال : أجدنى كما قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُم** ﴾ [الأنعام : ٩٤] .

وحكى عن هارون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول : ﴿ **مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ** ﴾ [الحاقة : ٢٨ ، ٢٩] .

وروى أن المأمون أفترش رمادا واضجع عليه وقال : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لى فإن الناس يقولون : إنك لا تغفر لى ، فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ، ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها : قيل : نعم ، قال : عسى .

ولما حضرت بلالا رضى الله عنه الوفاة : قالت امرأته : واحزناه قال : بل واطرباه غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه .

وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينيه عند الوفاة وضحك وقال : لمثل هذا فليعمل العاملون .

موعظـة :

لَيْسَ الغَرِيبُ غريبَ الشَّام واليَمَنِ … إنَّ الغريبَ غريبُ اللحدِ والكفنِ

تمرُّ ساعاتُ أيامى بلَا ندمٍ … ولا بكاءٍ ولا خوفٍ ولا حزن

سفرى بعيدٌ وزادى لا يبلغنى … وقسمتى لم تزلْ والموتُ يطلبنى

ما أحلمَ اللّهَ عنى حيثُ أمهلنى … وقدْ تماديتُ فى ذنبى ويسترنى

أنا الذى أغلقَ. الأبواب مجتهدا … على المعاصى وعينُ اللّهِ تنظرنِى

يا زلـةً كُتبت فى غفلةٍ ذهبت … يا حسرةً بَقِيَتْ فى القلبِ تقتلنِى

دعْ عَنكَ عَذْلِى يا من كان يعذلنى … لو كنتَ تعلمُ ما بِى كنتَ تعذرنِى

دعنى أنوحُ على نفسى وأندبها … وأقطعُ الدهرَ بالتذكارِ والحزنِ

دعنى أسحُّ دموعًا لا انقطاعَ لها … فهل عسى عبرةٌ منها تَخَلِّصُنى

كأننى بين تلك الأهلِ مُنطَرِحَا … علــى الفِرَاشِ وَأَيْدِيْهِمْ تُقَلِّبُنِى

وَقَدْ أَتَوا بِطَبِيْبٍ كَى يُعَالِجَنى … وَلَمْ أَرَ مِن طَبِيْبِ اليَوْمَ يَنْفَعُنى

وَاشْتَدَّ نَزْعِى وَصَارَ المَوْتُ يَجْذِبُهَا … مِنْ كُلِّ عِرْقٍ بِلَا رِفقٍ وَلَا هَوَنِ

وَاسْتَخْرَجَ الرُّوْحَ مِنِّى فِى تَغَرْغُرِهَا … وَصَارَ فِى الحَلْقِ مُرًّا حِيْنَ غَرْغَرَنِى

وَسَلَّ رُوْحِى وَظَلَّ الجِسْمُ مُنطَرِحاً … عَلَى الفِرَاشِ وَأَيْدِيهمْ تُقَلِّبُنِى

وَغَمَّضُونِى وَرَاحَ الكُلُّ وَانْصَرَفُوا … بَعْدَ الإِيَاسِ وَجَدُّوا فِى شِرا كَفَنِى

وَقَامَ مِنْ كَانَ أَوْلَى النَّاسِ فِى عجَلٍ … إِلَى المَغسِّلِ يَأْتِيْنِى يُغَسِّلُنِى

وَقَالَ يَا قَوْمِ نَبْغِى غَاسِلاً حَذِقًا … حُرًّا أُدِيْباً أَرِيْبًا عَارِفًا فَطِنِ

فَجَاءَنِى رَجُلٌ مِنْهُمْ فَجَرَّدَنِى … مِنَ الثِّيَابِ وَأَعْرَانِى وَأَفْرَدَنِى

وَأَطْرَحُونِى عَلَى الأَلْوَاحِ مُنْفَرِدَا … وَصَارَ فَوْقِى خَرِيْرُ المَاءِ يُنْظِفُنِى

وَأَسْكب الماء من فوق وَغَسَّلَنِى … غُسْلًا ثَلَاثًا وَنَادَى القَوْمَ بِالكَفَنِ

وَأَلْبَسُونِى ثِيَابًا لَا كِمَامَ لَهَا … وَصَارَ زَادِى حَنُوطًا حِيْنَ حَنَّطَنِى

وَقَدَّمُونِى إِلَى المِحْرَابِ وَانْصَرَفُوا … خَلْفَ الإِمَامَ فَصَلَّى ثُمَّ وَدَّعَنِى

صَلُّوا عَلَيَّ صَلَاةَ لَا رُكُوعَ لهـا وَلَا سُجُودَ لَعَلَّ اللَّهُ يَرْحَمُنِـي

وَأَنْزَلُونِـي فِي قَبْرِي عَـلَى مَهْـلِ وَأَنزلُوا وَاحِدًا مِنهُمْ يُلَحِّدُنِـي

وَكَشَّفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِي لِيَنْظُرَنِي وَأَسْبَلَ الدَّمْعَ مِنِ عَيْنَيْهِ أَغْرَقَنِـي

فَقَامَ مُحْتَـزِمًا بِالعَـزْمِ مُشْتَمِـلًا وَصَفَّفَ اللَّبِنَ مِنْ فَوْقِي وَفَارَقَنِـي

وَقَالَ هُلُّواَ عَلَيْهِ اَلتُّرَابَ وَاغْتَنِمُوا حُسْنَ الثَّوَابِ مِنَ الرَّحْمَنِ ذِي المِنَنِ

فِي ظُلْمَةِ القَبْرِ لَا أُمَّ هُنَاكَ وَلَا أَبٌ شَـفِيـقٌ وَلَا أَخٌ يُؤَنِّسُنِـي

وَأَوْدَعُونِي وَلجُّوا فِي سُؤَالِهِمُـوا مَالِي سِـوَاكَ إِلَهِـي مَنْ يُخَلِّصُنِـي

وَهَالَنِي صُورَةٌ فِي العَيْنِ إذ نَظَـرَتْ مِنْ هَوْلِ مَطْلَعِ مَا قَدْ كَانَ أَدْهَشَنِي

مِن مُنْكَرٍ وَنَكِيْرٍ مَا أَقُولُ لَهُـمْ إذ هَـالَنِي مِنْهُماً مَا كَانَ أَفْزَعَنِـي

فَامْنن عَلَيَّ بَعِفْوٍ مِنْكَ يَا أَمِلِـي فَإِنَّنِـي مُوَثَّقٌ بِالذَّنْـبِ مُرْتَهِـنِ

تَقَاسَمَ الأَهْلُ مَالِي بَعْدَ مَا انْصَرَفُوا وَصَار وِزْرِي عَلَى ظَهْرِي فَأَثْقَلَنِي

فَـلَا تَغُرَّنَّـكَ الدُّنْيَـا وَزِيْنَتُهَـا وَانْظُر إِلَى فِعْلِهَا فِي الأَهْلِ وَالوَطَنِ

وَانْظُرْ إِلَى مِنْ حَوَى الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا هَلْ رَاحَ مِنْهَا بِغَيْرِ الزَّادِ وَالكَفَـنِ

خُذْ القَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاكَ وَارْضَ بِهَـا لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْهَا إِلَّا رَاحَةُ البَدَنِ

يَانَفْسُ كُفِّي عِنِ العِصْيَانِ وَاكْتَسِبِي فِعْلًا جَمِيْلًا لَعَلَّ اللَّهَ يَرْحَمُنِـي

اللهم أيقظنا من غفلتنا بفضلك وإحسانك ، وتجاوز عن جرائمنا بعفوك وغفرانك ، وألحقنا بالذين أنعمت عليهم فى دار رضوانك ، وارزقنا كما رزقتهم من لذيذ مناجاتك ، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الرحمين .

٢٤ - نعيم البرزخ وعذابه(*)

فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن العبد إذا مات يكون فى نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين ، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر وإليك بعضها :

أما أدلة الكتاب فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارجِعِى إلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِى فِى عِبَادِى وادْخُلِى جَنَّتِى** ﴾ [الفجر : ٢٧ ، ٣٠] وقد قال طائفة من المفسرين : يقال لها ذلك عند الموت لأنه خطاب للنفس التى تجردت عن البدن وخرجت منه .

ومن الأدلة كذلك قوله عز وجل : ﴿ **فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُواً وَعَشِياً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر : ٤٥ ، ٤٦] فذكر الله عز وجل عذاب الدارين دار البرزخ ودار القرار ذكرا صريحا لا يحتمل غيره .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُون** ﴾ [الطور : ٤٥ ، ٤٧] فهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا وأن يراد به عذابهم فى البرزخ وهو أظهر لأن كثيرا منهم مات ولم يعذب فى الدنيا .

(*) باختصار وتصرف من كتاب الروح لابن القيم .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [السجدة : ٢١] وقد احتج بهذه الآية ابن عباس رضى الله عنهما على عذاب القبر ، وهذا مما يدلّ على فقهه فى القرآن ودقة فهمه فيه ، فإنه سبحانه أخبر أن لهم عذابين أدنى وأكبر ، فأخبر أنه يذيقهم بعض الأدنى ليرجعوا ، فدل على أنهم بقى لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ، فدل على إثبات عذاب القبر فتأمله .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** ﴾ [الواقعة : ٨٣ ، ٩٦] فذكر الله عز وجل ها هنا أحكام الأرواح عند الموت ، وذكر فى أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر ، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية ، إذ هى أهم وأولى بالذكر ، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم فى الآخرة ثلاثة أقسام .

أدلة السنة وهى كثيرة متواترة منها الأحاديث فى إثبات عذاب القبر :

حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ مر بقبرين فقال : « **إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير : أما أحدهما فكان لا يستبرىء من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة ، ثم دعا بجريدة فشقها نصفين فقال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا** »[1] .

---

(١) رواه البخارى (٢٤٢/٣) الجنائز ، والنسائى (١٠٦/٤) الجنائز .

وحديث زيد بن ثابت قال : بينما رسول اللّه ﷺ فى حائط لبنى النجار على بغلته ونحن معه إذ جادت به فكادت تلقيه ، فإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة فقال : « **من يعرف أصحاب هذه القبور ؟ فقال رجل : أنا . قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا فى الإشراك . فقال : إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت اللّه أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا باللّه من عذاب النار . قالوا : نعوذ باللّه من عذاب النار ، قال تعوذوا من عذاب القبر ، قالوا : نعوذ باللّه من عذاب القبر ، قال : تعوذوا باللّه من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ باللّه من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال : تعوذوا باللّه من فتنة الدجال ، قالوا : نعوذ باللّه من فتنة الدجال** »[1] .

وحديث أبى هريرة رضى اللّه عنه أن النبى ﷺ قال : « **إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ باللّه من أربع : من عذاب النار ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال** »[2] .

ومنها الأحاديث فى سؤال القبر :

كحديث قتادة عن أنس رضى اللّه عنه أن النبى ﷺ قال : « **إن الميت إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع خفق نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول فى هذا الرجل محمد ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد اللّه ورسوله ، قال : فيقول : أنظر مقعدك من النار قد أبدلك اللّه به مقعدا من الجنة ، قال رسول اللّه ﷺ فيراهما جميعا . قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له قبره سبعون ذراعا ، ويملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون ، ثم رجع إلى حديث أنس**

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢/١٧) الجنة ، وأحمد (١٠٣/٣ ، ١٤٤ ، ١٥٣) باختصار .
(٢) رواه البخارى (٢٤١/٣) الجنائز .

قال : « فأما الكافر والمنافق فيقولان له ما كنت تقول فى هذا الرجل فيقول : لاأدرى كنت أقول ما يقول الناس ، فيقولان : لادريت ولاتليت ، ثم يضرب بمطراق من حديد بين أذنية فيصيح صيحة فيسمعها من عليها غير الثقلين »[1] .

وعن البراء بن عازب أن رسول اللّه ﷺ قال : المسلم إذا سئل فى قبره فشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه فذلك قول اللّه : ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** ﴾ [إبراهيم : ٢٧] وفى لفظ نزلت فى عذاب القبر يقال له من ربك فيقول اللّه ربى ومحمد نبيى فذلك قول اللّه تعالى : ﴿ **يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ** ﴾[2] .

ومما ينبغى أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ الذى قال اللّه تعالى : ﴿ **وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١٠٠] فكل من مات وهو مستحق للعذاب فله نصيب منه قبر أو لم يقبر ، فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رمادا ونسف فى الهواء أو غرق فى البحر وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور .

ومنها الأحاديث التى تبين صورا من عذاب القبر :

فمن ذلك حديث سمرة بن جندب رضى اللّه عنه قال : « **كان النبى ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال من رأى منكم الليلة رؤيا ؟ قال : فإن رأى أحد رؤيا قصها فيقول : ما شاء اللّه فسألنا يوما فقال هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ قلنا : لا ، قال : لكنى رأيت الليلة رجلين أتيانى فأخذ بيدى وأخرجانى**

---

(١) رواه البخارى (٣/٢٣٢ ، ٢٣٣) الجنائز ، ومسلم (١٧/٢٠٣) الجنة ، وأحمد (٣/١٢٦ ، ٢٣٣) .

(٢) رواه البخارى (٣/٢٣١ ، ٢٣٢) الجنائز ، ومسلم (١٧/٢٠٤) الجنة .

إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله فى شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيصنع مثله قلت ما هذا ؟ قالا : انطلق ، فانطلقنا حتى أيتنا على رجل مضطجع على قفاه ورجلٌ قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ بها رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه ليأخذه فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه ، قلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا إلى ثَقْبٍ مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع ، يوقد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا يخرجوا فإذا خمدت رجعوا فقلت : ما هذا ؟ قالا : انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى بحجر فى فيه فرده حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان ، فقلت ما هذا ؟ فقالا : انطلق فانطلقنا ، حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة ، وفى أصلها شيخ وصبيان ، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها ، فصعدا بى الشجرة وأدخلانى دارا لم أَرَقَطٌ أحسن منها ، فيها شيوخ وشبان ، ثم صعدا بى فأدخلانى دارا هى أحسن وأفضل قلت : طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيت . قالا : نعم : الذى رأيته يشق شدقه فكذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به مارأيت إلى يوم القيامة ، والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة والذى رأيت فى الثَّقْبِ فهم الزناة ، والذى رأيته فى النهر فآكل الربا ، وأما الشيخ الذى فى أصل الشجرة فإبراهيم والصبيان حوله فأولادالناس، والذى يوقد النار فمالك خازن النار ، والدار الأولى دار عامة المؤمنين ، وأما هذه الدار فدار الشهداء وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك فرفعت رأسى فإذا قصر مثل السحابة قالا : ذلك

منزلك . قلت : دعانى أدخل منزلى . قالا : إنه بقى لك عمر لم تستكمله فلو استكملته أتيت منزلك »[1] .

فهذا النص صحيح صريح يبين لنا صورا من عذاب القبر كما فسره به العلماء ، وكذلك المشاهد التى رآها رسول اللّه ﷺ ليلة الإسراء إن صحت فإنها تبين صورا أخرى لنعيم القبر وعذابه ، كما فى حديث البيهقى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى هذه الآية : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا** ﴾ [الإسراء : ١] أنه قال : أتى بفرس فحمل عليه قال : كل خطوة منتهى أقصى بصره فسار وسار معه جبريل ، فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل اللّه يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة : ﴿ **وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ** ﴾ [سبأ : ٣٩] **ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت لا يفتر عنهم شىء من ذلك قال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة قال : ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع والزقوم ورصف جهنم وحجارتها ، قال : ما هؤلاء يا جبرائل ؟ قال : هؤلاء لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم اللّه وما اللّه بظلام للعبيد ، ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم من قدر نضيج ولحم آخر خبيث ، فجعلوا يأكلون من الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ فقال : هذا الرجل يقوم وعنده امرأة حلالا طيبا فيأتى المرأة الخبثة فتبيت معه حتى تصبح »** الحديث .

---

(١) رواه البخارى (٢٥١/٣ ، ٢٥٢) الجنائز .

فصـــل :

فإذا قال قائل فإنا نكشف القبر فلا نجد فيه ملائكة عميا صما يضربون الموتى بمطارق من حديد ولا نيران تأجج ؟

فالرد عليهم من وجوه :

أولها : أن اللّه سبحانه جعل الدور ثلاثا : دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار ، وجعل لكل دار أحكاما تختص بها .

ثانيها : أن اللّه سبحانه جعل أمر الآخرة وما كان متصلا بها غيبا وحجبها عن إدارك المكلفين فى هذه الدار وذلك من كمال حكمته ، وليتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم ، فأول ذلك أن الملائكة تنزل على المحتضر وتجلس قريبا منه ويشاهدهم عيانا ويتحدثون ومعهم الأكفان والحنوط إما من الجنة وإما من النار ويؤمنون على دعاء الحاضرين بالخير والشر كما قال اللّه تعالى : ﴿ **وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الواقعة : ٨٥] أى أقرب إليه بملائكتنا ورسلنا ولكنكم لا ترونَهُم فهذا أول الأمر وهو غير مرئى لنا ولا مشاهد وهو فى هذه الدار ، ثم يمد الملك يده إلى الروح فيقبضها ويخاطبها والحاضرون لا يرونه ولا يسمعونه ، ثم تخرج لها نور مثل شعاع الشمس ورائحة أطيب من رائحة المسك والحاضرون لا يرون ذلك ولا يشمونه ، ثم تأتى الروح فتشاهد غسل البدن وتكفينه وحمله وتقول : قدمونى قدمونى أو تقول إلى أين تذهبون بى ، ولا يسمع الناس ذلك ، فإذا وضع فى لحده وسوى عليه التراب لم يحجب التراب الملائكة عن الوصول إليه .

فكل ذلك من أمور الغيب التى أخفاها اللّه عن المكلفين ليتميز المؤمن من الكافر .

ثالثها : أن النار التى فى القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا فيشاهدها من شاهد نار الدنيا وخضرها ، وإنما هى من نار الآخرة وخضرها وهى أشد من نار الدنيا فلا يحس بها أهل النار .

وأعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر هذا فى حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره وهذا فى روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره ، وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك ، وقد أرانا من آيات قدرته فى هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما إلا من وفقه اللّه وعصمه ، فإننا نجد النائمين فى فراش واحد وهذا روحه فى النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه وهذا روحه فى العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر وقد قال ﷺ : ﴿ **لولا أن لا تدافنوا لدعوت اللّه أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع** ﴾[1] وقد أخبر النبى ﷺ أن الدجال يأتى معه بماء ونار فالنار ماء بارد ، والماء نار تأجج، وأحاديث الدجال صحيحة متواترة وهذا أعجب وأعجب ، وقد كان جبريل عليه السلام ينزل على النبى ﷺ ويتمثل له رجلا فيكلمه بكلام يسمعه ، ومن إلى جانب النبى ﷺ لا يراه ولا يسمعه ، وأحيانا يأتى مثل صلصلة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين .

وفى غزوة بدر كانت الملائكة تضرب أعناق الكفار وتقاتل مع المسلمين وهم لا يرونهم ولا يسمعونهم ، وسر المسألة أن اللّه عز وجل إنما أشهد بنى آدم فى هذه الدار ما كان منها فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء ليكون الإقرار به والإيمان سببا لسعادتهم فإذا كشف عنهم الغطاء صار عيانا مشاهدا .

---

(١) تقدم تخريجه (ص : ٢٢٧) .

فصـــل :

فإن قال قائل من تفرقت أجزاؤه كالمحروق والغريق والمصلوب كيف يتنعم بثواب أو يتألم بعقاب فالجواب :

أنه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالات بتلك الأجزاء على تباعد ما بينها وقربه ويكون فى تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة .

إذا كان اللّه سبحانه وتعالى قد جعل فى الجمادات شعورا وإدراكا تسبح ربها به وتسقط الحجارة من خشيته وتسجد له الجبال والشجر وتسبحه الحصى والمياه والنبات ، قال تعالى : ﴿ **وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ [الإسراء : ٤٤] وإذا كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل : ﴿ **وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾ فإن كان عاقل يفقه دلالتها على صانعها وقال تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ** ﴾ [النور : ٤١] فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها اللّه وإن جحدها الجاهلون .

وقد كان الصحابة رضى اللّه عنهم يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل ، وسمعوا حنين الجذع اليابس فى المسجد إلى رسول اللّه ﷺ ، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التى كانت فيها الحياة أولى بذلك .

فلو علق الميت على رؤوس الأشجار فى مهاب الريح لأصاب جسده من عذاب البرزخ حظه ونصيبه ، ولو دفن الرجل الصالح فى أتون من النار لأصاب جسده من نعيم البرزخ وروحه نصيبه وحظه ، فيجعل اللّه النار على هذا بردا وسلاما والهواء على هذا نارا وسموما ، فعناصر العالم ومواده منقادة لربها وفاطرها يصرفها كيف يشاء ولا يستعصى عليه منها شيء أراده ، بل هى طوع مشيئة مذللة

منقادة لقدرته ومن أنكر هذا فقد جحد رب العالمين وكفر به وأنكر ربوبيته .

ما هى الأسباب التى يعذب بها أصحاب القبور ؟

الجواب من وجهين مجمل ومفصل .

أما الجواب المجمل :

فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه ، فلا يعذب الله روحا عرفته وأحبته وأمتثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدنا كانت فيه أبدا ، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده ، فمن أغضب الله وأسخطه فى هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب القبر فمستقلّ ومستكثر ، ومصدق ومكذب .

وأما الجواب المفصل :

فقد أخبر النبى ﷺ عن الرجلين الذين رآهما يعذبان فى قبورهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول .

وفى حديث سمرة المذكور آنفا تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق ، وتعذيب من يقرأ القرآن ثم ينام عنه بالليل ولا يعمل به بالنهار ، وتعذيب الزناة والزانى ، وتعذيب آكل الربا كما شاهدهم النبى ﷺ فى البرزخ .

وقد أخبر النبى ﷺ عن صاحب الشملة التى غَلَّهَا من المغنم أنها تشتعل عليه نارا فى قبره ، هذا وله فيها حق فكيف بمن ظلم غيره ما لا حق له فيه .

ولما كان أكثر الناس واقعا فى أسباب عذاب القبر كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل ، فظواهر القبور تراب وبواطنها حسرات وعذاب .

ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبنيات وفى باطنها الدواهى والبليات ، تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيها ، تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ، ونادت يا عمار الدنيا لقد عمرتم دارا موشكة بكم زوالا ، وخربتم دارا أنتم مسرعون إليها انتقالا .

عمرتم بيوتا لغيركم منافعها وسكناها ، وخربتم بيوتا ليس لكم مساكن سواها .

هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال وبذر البذر ، وهذه محلّ للعبر رياض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار .

ما هى الأسباب المنجية من عذاب القبر ؟

الجواب من وجهين مجمل ومفصل :

أما المجمل : فهو تجنب تلك الأسباب التى تقتضى عذاب القبر ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه فى يومه ، ثم يجدد له توبة نصوحا بينه وبين الله ، فينام على تلك التوبة ويعزم على أن لا يعود إلى الذنب إذا استيقظ ، ويفعل هذا كل ليلة ، فإذا مات فى ليلته مات على توبة ، وإن استيقظ استيقظ مستقبلا للعمل مسرورا بتأخر أجله حتى يستقيل ربه ويستدرك ما فاته .

وأما المفصل : فما ثبت من الأحاديث عن رسول الله ﷺ فيما ينجى من عذاب القبر .

ومنها ما رواه سلمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات أجرى عليه عمله الذى كان**

يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان »[1] .

ومنها : حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال : « **كل ميت يختم على عمله إلا الذى مات مرابطا فى سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر »**[2] .

ومنها حديث المقدام بن معد يكرب قال : قال رسول الله ﷺ للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له فى أول دفعة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خيرٌ من الدنيا وما فيها ، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ، ويشفع فى سبعين من أقاربه »[3] .

قال ابن القيم رحمه الله : قال أبو عمر بن عبد البر : وصح عنه رسول الله ﷺ أنه قال إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الملك** ﴾[4] وينجى من عذاب القبر كذلك اجتناب الأسباب التى يعذب بها أصحاب القبور المذكورة آنفا وغيرها مما ثبت عن رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه مسلم (٦١/١٣) الإمارة ، والترمذى (١٦٢/٧) فضائل الجهاد وقال : حديث حسن ، والنسائى (٣٩/٦) الجهاد .

(٢) رواه أبو داود (٢٤٨٣) الجهاد ، والترمذى (١٢٣/٧) فضائل الجهاد ، وأحمد (٢٠/٦) ، والحاكم (١٤٤/٢) قسم الفىء وقال صحيح على شرط الشيخين وصححه الترمذى .

(٣) تقدم تخريجه (ص : ١٨٤) .

(٤) رواه أحمد (٢٩٩/٢ ، ٣٢١) ، والترمذى (٢٠/١١ ، ٢١) ثواب القرآن وحسنه ، وأبو داود (١٣٨٧) ، الصلاة وابن ماجة (٣٧٨٦) الأدب ، و الحاكم (٥٦٥/١) وصححه ووافقه الذهبى وحسنه الألبانى .

٢٥ - يوم القيامة*

كما أن للموت شدة فى أحواله وسكراته وخطرا فى خوف العاقبة ، كذلك الخطر فى مقاساة ظلمة القبر وخطره إن كان مغضوبا عليه ، وأعظم من ذلك كله الأخطار التى بين يديه من نفخ الصور ، والبعث يوم النشور ، والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ، ونصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثم جواز الصراط ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالاستعاد وإما بالإشقاء .

فهذه أحوال وأهول لابد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك دواعى الاستعداد .

فهذه أحوال وأهوال لابد لك من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثم تطويل الفكر فى ذلك لينبعث من قلبك داوعى الاستعداد لها .

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخرة صميم قلوبهم ، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ، ويدل على ذلك شدة تشميرهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال ، بل إذا سُئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذى أخبره صدقت ثم مد يده لتناوله كان مصدقا بلسانه ومكذبا بعلمه ، وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان .

فَمَثِّلْ نَفْسَك وقد بعثت من قبرك مبهوتا من شدة الصاعقة شاخص العين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التى طال فيها بلاؤهم ، وقد أزعجهم الرعب مضافا إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار

(*) موعظة المؤمنين للقاسمى ، ومعارج القبول لحافظ بن أحمد..

لعاقبة الأمر قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] .

وتفكر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم انتظارا لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم ، فكيف حالك وحال قلبك هنالك وقد بدلت الأرض غير الأرض والسماوات ، وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض ، واشتبك الناس وهم حفاة عراة مشاة ، وازدحموا فى الموقف شاخصة أبصارهم ، منفطرة قلوبهم ، فتأمل يا مسكين فى طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه والخجل والحياء من الافتضاح عند العرض على الجبار تعالى ، وأنت عارٍ مكشوفٌ ذليلٌ متحيرٌ مبهوتٌ منتظر ما يجرى عليك القضاء بالسعادة والشقاوة ، وأعظم بهذه الحال فإنها عظيمة ، واستعد لهذا اليوم العظيم شأنه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب اللّه شديد .

يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سُجِّرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت .

وقد وصف اللّه دواهى يوم القيامة وأكثر من أساميه ؛ لتقف بكثرة أساميه على كثرة معانية فمن أساميه :

يوم القيامة ، ويوم الحسرة ، ويوم الزلزلة ، ويوم الواقعة ، ويوم القارعة ، ويوم الغاشية ، ويوم الراجفة ، ويوم الحاقَّة ، ويوم الطآمَّة ، ويوم الصآخَّة ، ويوم

التلاق ، ويوم الجزاء ، ويوم الوعيد ، ويوم العرض ، ويوم الفصل ، ويوم الدين ، ويوم النشور .

فالويل كل الويل للغافلين ، يرسل الله لنا سيدَ المرسلين ، وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بالصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعرفنا غفلتنا ويقول : **﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إلا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَا هِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾** [الأنبياء : ١] ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول : **﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾** [القمر : ١] **﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ، وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾** [المعارج : ٦ ، ٧] ، **﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾** [الأحزاب : ٦٣] .

أرض المحشر وصفة الحشر :

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجا ولا أمْتا .

قال تعالى : **﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً ﴾** [طه : ١٠٥ ، ١٠٧] وقال تعالى : **﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ**] [إبراهيم : ٤٨] قال ابن عباس : يزاد فيها وينقص ، وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها ، وتمد مد الأديم العكاظى ، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة ، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها .

وقال ﷺ : « **يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد** »[1] قوله : « **عفراء** » أى بياضها غير ناصع وقوله :

---

(١) رواه البخارى (٣٧٢/١١) الرقاق ، ومسلم (١٣٤/١٧) صفة القيامة .

« **كقرص النقى** » أى النقى عن القشر والنخالة ، والمعلم هو البناء أو المرتفع .

أما عن صفة الحشر ففى حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « **يحشر الناس على ثلاث طرائق : راغبين راهبين ، واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، ويحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قَالُوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسى معهم حيث أمسوا** »[1] .

وعن قتادة عن أنس رضى اللّه عنه أن رجلا قال يا نبى اللّه كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال : أليس الذى أمشاه على الرجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة ؟ قال قتادة : « بلى وعزة ربنا » وذلك قول اللّه عز وجل : ﴿ **وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا** ﴾[2] [الإسراء : ٩٧] .

فشتان بين الفريقين ، وفرقان ما بين الطريقين ، أولئك يفدون ركبانا إلى جنات النعيم ورحمة الرحمن الرحيم ، وهؤلاء يُسْحَبُونَ سحبا إلى نار الجحيم ونكالها الأليم وعذابها المقيم ، ﴿ **يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً** ﴾ [مريم : ٨٥ ، ٨٦] .

قال ابن عباس : وفدا : ركبانا وقال على بن أبى طالب : ما يحشرون واللّه على أرجلهم ، ولكن على نُوقٍ رحالها الذهب ، ونجائب سرجها يواقيت ، إن هموا بها سارت ، وإن هموا بها طارت . وقوله : ﴿ **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا**] أى عطاشا قد تقطعت أعناقهم من العطش ، ولكنهم لا يردون إلى ماء بل إلى جهنم وجحيمها ومهلها وحميمها ، وفى حديث الشفاعة الطويل « **فيقال** :

---

(٢) رواه البخارى (٣٧٧/١١) الرقاق ، ومسلم (١٩٤/١٧ ، ١٩٥) صفة القيامة ، والنسائى (١١٥/٤ ، ١١٦) الجنائز .

(٣) رواه البخارى (٣٧٧/١١) الرقاق ، ومسلم (١٤٨/١٧ ، ١٤٩) صفة القيامة .

لهم ما تشتهون ؟ فيقولون : عطشنا ، فيشار لهم إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضا فيقال : لهم : ألا تردون »[1] .

فسبحان اللّه وبحمده اللّه أكبر ، كانوا فى الدنيا على السواء ، يرزقون ويسيرون ويذهبون ويجيئون ، يؤتاها من يحبه اللّه ومن لا يحب ، فلما جاءهم الموت عرف كل منهم سبيله واتضح له مقيله ، فلما كانوا فى البرزخ خلا كل منهم بعمله ، وأفضى إلى ما قدم قبل أجله ، فبينما هم كذلك إذ صرخ بهم الصارخ وصاح بهم الصائح ، فخرجوا من الأجداث مسرعين ، وإلى الداعى مهطعين ، هذا على النجائب ، وهذا على الركائب ، وهذا على قدميه ، وهذا على وجهه .

هؤلاء فى النور ينظرون ، وأولئك فى ظلمات لا يبصرون .

هؤلاء إلى الرحمن يفدون ، وأولئك إلى النار يردون .

هؤلاء حلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، وأولئك غلوا بالسلاسل وعلتهم الزبانية بالمقامع يضربون بطونا منهم وظهورا .

هؤلاء عليه حلل السندس والاستبرق وسائر الألوان ، وأولئك مقرنون فى الأصفاد سرابيلهم من قطران .

هؤلاء يقول لهم ربهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، وأولئك يقول لهم أخسأوا فيها ولا تكلمون وما هم بخارجين من النار .

فحينئذ ظهر الفرقان ، وافترق الطريقان ، وامتاز الفريقان ، وصار الغيب شهادة ، والسر علانية ، والمستور مكشوفا ، والمخبأ ظاهرا : ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ**

---

(١) الحديث مخرج فى الكتب الستة بألفاظ وطرق وهو فى البخارى (١٣/٤٧٣) التوحيد ، ومسلم (٣/٥٣ – ٦٠) الإيمان .

كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [الجاثية : ٢١] .

كم كأسٍ فى الدنيا طال يومئذ عُرْيُهُ ، كم طاعم فى الدنيا عظم يومئذٍ جوعه ، كم ريان فى الدنيا اشتد يومئذ عطشه ، كم ناعم فى الدنيا حق يومئذ بؤسه : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ [القصص : ٨٣] .

﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [القصص : ٨٤] .

أحوال القيامة وأهوالها :

قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

قوله : ﴿ **مُهْطِعِينَ** ﴾ أى مسرعين ﴿ **مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ** ﴾ قال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد : ﴿ **لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ** ﴾ أى لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر وهى شاخصة قد شغلهم ما بين أيديهم .

قوله : ﴿ **وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾ أى خالية ، قال قتادة : خرجت قلوبهم عن صدورهم فصارت فى حناجرهم لا تخرج من أفواههم ولا تعود إلى أماكنها ، هواء لا شيء فيها ومنه سمى ما بين الأرض والسماء هواء لخلوة .

وقال سعيد بن جبير : مترددة تمور فى أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه ، وهذا معنى قوله : ﴿ **إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ** ﴾ [غافر : ١٨]. قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف فلا تخرج ولاتعود إلى أماكنها ، ومعنى ﴿ **كَاظِمِينَ** ﴾ أى ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه قال البغوى : مكروبين ممتلئين خوفا وجزعا ، والكظم تردد الغيظ والخوف والحزن فى القلب حتى يضيق به .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبَصَّرُونَهُمْ** ﴾ [المعارج : ١٠ ، ١١] أى لا يسأل القريب قريبه عن حاله وهو يراه فى أسوأ الأحوال فتشغله نفسه عن غيره قال اللّه تعالى : ﴿ **لِكُلِّ امْرِىءٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** ﴾ [عبس : ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ **وإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** ﴾ [فاطر : ١٨] .

قال عكرمة : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب : سل هذا لم كان يغلق بابه دونى ، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن فيقول : يا مؤمن إن لى عندك يدا قد عرفت كيف كنت لك فى الدنيا وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو النار ، وإن الوالد يتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بنى أى والد كنت لك فيثنى خيرا ، فيقول : يا بنى إنى قد احتجت إلى مثال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى فيقول ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول يا فلانه أو يا هذه : أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول لها : إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهبنيها إلى لعلى أنجو بها مما ترين قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا إنى أتخوف مثل الذى تتخوف .

عن عائشة رضى اللّه عنها أن النبى ﷺ قال : « **يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه** »[1] .

وعن المقداد بن الأسود الكندى رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين فتصهرهم الشمس ، فيكونوا فى العرق كقدر أعمالهم ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه ومنهم من يلجمه إلجاما** »[2] .

صفة الحساب :

قال اللّه تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [يس : ٦٥] .

وقال تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [فصلت : ١٩ ، ٢٣] .

عن أنس رضى اللّه عنه قال : « **كنا عند النبى ﷺ فضحك فقال : أتدرون مما أضحك فقلنا اللّه ورسوله أعلم . فقال : من مخاصمة العبد ربه فيقول : يا رب ألم تُجِرْنِى من الظلم . قال : فيقول : بلى . فيقول : فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهدا منى . قال فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك**

(١) رواه البخارى (٣٩٢/١١) الرقاق ، ومسلم (١٩٥/١٧) صفة يوم القيامة .

(٢) رواه مسلم (١٩٦/١٧) صفة يوم القيامة ، والترمذى (٣٥٥/٩) الزهد .

حسيبا وبالكرام الكاتبين شهودا ، قال : **فيختم على فيه فيقال لأركانه انطقى فتنطق بأعماله قال ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول يعنى لأعضائه : بعدا وسحقا لَكُنَّ فعنكن كنت أجادل »**[1] وعن عائشة رضى اللّه عنها أن النبى ﷺ قال : من نوقش الحساب عذب فقلت : أليس يقول اللّه : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا** ﴾ [الإنشقاق : ٧] فقال : « **إنما ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك** »[2] .

وعن أبى برزة أن رسول اللّه ﷺ قال : « **لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وماذا عمل فيما علم** »[3] .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « **لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء** »[4] .

الجلحاء : التى لا قرن لها .

صفة الميـــزان :

قال اللّه تعالى : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

---

(١) رواه مسلم (١٠٤/١٨ ، ١٠٥) الزهد .

(٢) رواه البخارى (٤٠٠/١١) الرقاق ، ومسلم (٢٠٨/١٧) صفة يوم القيامة ، والترمذى (٢٥٨/١١) صفة القيامة ، وأحمد (٤٧/٦ ، ٩١ ، ١٢٧)

(٣) رواه الترمذى (٢٥٣/٩) صفة القيامة وقال حسن صحيح ، وحسنه الألبانى لشواهده فى الصحيحة

(٤) رواه مسلم (١٣٢/١٦) البر والصلة والترمذى (٢٥٥/٩) الزهد ، وأحمد (٢٣٥/٢ ، ٣٢٣) .

وقال تعالى : ﴿ **والْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ** ﴾ [الأعراف : ٨ ، ٩] .

• القول فى الموزون على أربعة أوجه :

الأول : أن الأعمال نفسها هى التى توزن وأن أفعال العباد تجسم فتوضع فى الميزان قال الله تعالى : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ** ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم** »[١] .

الثانى : أن صحائف الأعمال هى التى توزن ويدل على ذلك حديث البطاقة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل مد البصر ، ثم يقول اتنكر من هذا شيئا ، أظلمك كتبتى الحافظون ؟ قال : لا يارب . قال : أفلك عذر أو حسنة ؟ قال : فيهاب الرجل فيقول لا يارب . فيقول : بلى إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ﷺ : فيقول : أحضروه فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول : إنك لا تظلم : فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شىء مع بسم الله الرحمن الرحيم** »[٢] .

---

(١) رواه البخارى (٢٠٦/١١) الدعوات ، ومسلم (١٩/١٧) الذكر والدعاء ، والترمذى (٣٥٣٤ تحفة) الدعوات .

(٢) رواه الترمذى (١٠٧/١٠) الإيمان ، وقال : حسن غريب ، وابن ماجة (٤٣٠٠) ، والحاكم

الثالث : أن الموزون ثواب العمل كما فى حديث النواس بن سمعان الكلابى رضى اللّه عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « **يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمه سورة البقرة وآل عمران ، وضرب لهما رسول اللّه ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهم بعد ، قال : كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما مشرق أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما** »(1) قال الترمذى رحمه اللّه : معنى هذا أنه يجىء ثواب قراءته .

الرابع : أن الموزون هو العامل نفسه ودليل ذلك حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه : عن رسول اللّه ﷺ : « **إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند اللّه جناح بعوضة وقال أقرأوا : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾**(2) [الكهف : ١٠٥] (3) والذى استظهر من النصوص واللّه أعلم أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يوزن بالجمع بين النصوص ولا منافاة بينها واللّه أعلم .

صفـة الصــراط :

فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى اللّه عنه من حديثه الطويل فى الرؤية والشفاعة : « **ويضرب الصراط بين ظهرى جهنم ، فأكون أنا وأمتى أول من يجيزها ، ولا يتكلم إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم ، وفى**

= (٥٢٩/١) وصححه ووافقه الذهبى ، وأحمد (٢١٣/٢) ، وابن حبان (٢٥٢٤) موارد وصححه الألبانى .

قال الألبانى : والحديث دليل على أن ميزان الأعمال له كفتان مشاهدتان وأن الأعمال وإن كانت أعراضا فإنها توزن وذلك من عقائد أهل السنة والأحاديث فى ذلك متضافرة إن لم تكن متواترة - [الصحيحة : ٤٣/١ ، ٤٤] .

(١) رواه مسلم (٩٠/٦ ، ٩١) صلاة المسافرين ، والترمذى (١٤/١١ ، ١٥) ثواب القرآن .

(٢) رواه البخارى (٤٢٦/٨) التفسير ، ومسلم (٢٩/١٧) صفة القيامة .

جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم السعدان ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله عز وجل تخطف الناس بأعمالهم ، فمنهم الموبق بعمله والموثق بعمله ومنهم المخردل أو المجازى أو نحوه »[1] . وفى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه من حديثه الطويل فى ذلك مرفوعا وفيه : « **ثم يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهرى جهنم ، قلنا يا رسول الله ما الجسر ؟ قال مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان ، يمر المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم وناج مخدوش ومكردس فى نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحبا »**[2] وفى حديث **مسلم فى بعض طرقه قال** أبو سعيد : بلغنى أن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف .

الخصماء ورد المظالم :

اعلم أنه لا ينجو من أخطار الآخرة إلا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطواته ولحظاته ، وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ، ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ، ويرد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ، ويطيب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة ، فهذا يدخل الجنة بغير حساب .

وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق به هذا يقول ظلمتنى وهذا يقول شتمتنى وهذا يقول

---

(١) تقدم تخريجه(ص : ٢٩١) .

(٢) رواه الحاكم (٥٨/٤) الأهوال وقال صحيح على شرط الشيخين وقال الذهبى : روى مسلم أكثره من حديث معمر عن زيد بن اسلم .

استهزأت بى وهذا يقول عاملتنى فغششتنى ، وهذا يقول بايعتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك ، وهذا يقول رأيتنى محتاجا وكنت غنيا فما أطعمتنى ، وهذا يقول وجدتنى مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عنى فما راعيتنى ، فبينما أنت كذلك وقد انشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا فى تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم ، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله : ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ** ﴾ [غافر : ١٧] فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة ، وتتذكر ما أنذرك اللّه تعالى على لسان رسوله ﷺ حيث قال : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ** ﴾ [إبراهيم : ٤٢ ، ٤٣] .

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف بك على بساط العدل وكشف عن فضائحك ومساويك ، فاحذر من التعرض لسخط اللّه وعقابه الأليم ، واستقم على صراطه المستقيم ، فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ، ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى ، تعثر فى أول قدم من الصراط وتردى .

٢٦ - الجنـــة والنـــار(١)

صفة جهنم وأهوالها وأنكالها :

قال الغزالى رحمه الله :

يا أيها الغافل عن نفسه ، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال ، دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه ، واصرف الفكر إلى موردك ، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع ، إذ قيل : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا ، ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا** ﴾ [مريم : ٧١ ، ٧٢] فأنت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك ، فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه ، وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ما قاسوا ، فبينما هم فى كربها وأهوالها وقوفا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها ، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأطلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب ، حتى أشفق البراء من سوء المنقلب ، وخرج المنادى من الزبانية قائلا : أين فلان بن فلان المسوف نفسه فى الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره فى سوء العمل فيبادرونه بمقامع من حديد ، ويستقبلونه بعظائم التهديد ، ويسوقونه إلى العذاب الشديد ،

---

(١) إحياء علوم الدين - الترغيب والترهيب للمنذرى - الزهد والرقائق لابن المبارك - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم - البداية والنهاية لابن كثير .

وينكسونه فى قعر الجحيم ، ويقولون له : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أنت الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ [الدخان : ٤٩] فاسكنوا دارا ضيقة الأرجاء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فهيا الأسير ، ويوقد فيها السعير ، شرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها الهلاك ، وما لهم منها فكاك ، قد شدت أقدامهم إلى النواصى واسودت وجوههم من ظلمة المعاصى ، ينادون من أكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها ، يا مالك قد حق علينا الوعيد ، يا مالك قد نضجت منا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود ، فتقول الزبانية : هيهات لات حين أمان ، ولا خروج لكم من دار الهوان ، فاخسأوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون ، فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا فى جنب اللّه يتأسفون ، ولا ينجيهم الندم ، ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار . عن أيمانهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى فى النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون فى مضايقها ، ويتحطمون فى دركاتها ، ويضربون بين غواشيها ، تغلى بهم النار كغلى القدور ، ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم فينفجر الصديد من أفواههم ، وتنقطع من العطش أكبادهم ، وتسيَّل على الخدود أحداقهم ، ويسقط من الوجنات لحومها ، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون[1] .

---

(١) إحياء علوم الدين (٢٩٨٦ - ٢٩٨٨) .

عمق جهنم وشدة حرها :

عن عتبة بن غزوان عن النبى ﷺ قال : « **إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين عاما ما تفضى إلى قرارها** »[1] .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : كنا عند رسول اللّه ﷺ فسمعنا وجبة فقال النبى ﷺ : « **أتدرون ما هذا ؟ قلنا اللّه ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر أرسله اللّه فى جهنم منذ سبعين خريفا فالآن حين أنتهى إلى قعرها** »[2] والوجبة هى صوت سقوط الشيء من مكان عال .

ولجهنم سبعة أبواب قال اللّه عز وجل : ﴿ **وإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ** ﴾ [الحجر : ٤٣] وقيل : المراد بالأبواب الأطباق طبق فوق طبق .

وعن عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه فى قوله تعالى : « **وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** »[البقرة : ٢٤] قال : هى حجارة من كبريت خلقها اللّه يوم خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا يعدها للكافرين ؟ وفى الصحيحين من غير وجه عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « **لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع فيها رب العزة قدميه فيزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك** »[3] .

وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه فى قوله : ﴿ **إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ** ﴾ [المرسلات : ٣٢] قال : أما إنى لست أقول كالشجرة ولكن كالحصون والمدائن .

---

(١) رواه أحمد (١٧٤/٤) ، والترمذى (٤٥/١٠ ، ٤٦) صفة جهنم وصححه الألبانى .

(٢) رواه مسلم (١٧٩/١٧) كتاب الجنة باب جهنم ، والوجبه هى السقطة .

(٣) رواه البخارى (٥٩٤/٨) التفسير ، مسلم (١٨٤/١٧) كتاب الجنة .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزءٌ من سبعين جزءًا من حر جهنم قالوا : واللّه إن كانت لكافية يارسول اللّه قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كُلُّهَا مثل حَرِّهَا** »[1] .

طعـام أهـل النـار :

قال اللّه تعالى : ﴿ **لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ** ﴾ [الغاشية : ٦ ، ٧ .

الضريع نوع من الشوك لا تأكله الدواب لخباثته :

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ [المزمل : ١٢ ، ١٣] عن ابن عباس رضى اللّه عنهما فى قوله تعالى : ﴿ **طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ** ﴾ قال : شوك يأخذ بالحلق لا يدخل ولا يخرج .

وقال تعالى : ﴿ **ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ** ﴾ [الواقعة : ٥١ ، ٥٦] .

وقد وصف اللّه عز وجل شجرة الزقوم فقال : ﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ** ﴾ [الصافات : ٦٤ ، ٦٨] والشوب هو الخلط والمزج أى يخلط الزقوم المتناهى فى القذارة والمرارة والحميم المتناهى فى اللهب والحرارة .

---

(١) رواه البخارى (٦/٣٣٠) بدء الخلق ، ومسلم (١٧/١٧٩) كتاب الجنة ومالك فى الموطأ (٢/٩٩٤) جهنم ، والترمذى (١٠/٥٨) صفة جهنم .

وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ **اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران : ١٠٢] فقال رسول اللّه ﷺ : « **لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه** »[١] .

وقال تعالى : ﴿ **فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ** ﴾ [الحاقة : ٢٦ ، ٢٧] .

قال ابن عباس : الغسلين الدم والماء والصديد الذى يسيل من لحومهم .

والتوفيق بين ما ههنا وبين قوله : ﴿ **إِلَّا مِن ضَرِيعٍ** ﴾ وقوله : ﴿ **مِن زَقُّومٍ** ﴾ وقوله : ﴿ **مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ** ﴾ [البقرة : ١٨٤] أنه يجوز أن يكون طعامهم جميع ذلك أو أن العذاب أنواع والمعذبين طبقات فمنهم أكلة الضريع ومنهم أكلة الزقوم ومنهم أكلة النار لكل منهم جزء مقسوم .

شراب أهل النار :

قال اللّه تعالى : ﴿ **وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ** ﴾ [إبراهيم : ١٦ ، ١٧] .

أى يستقى من ماء صديد شديد النتانة والكثافة فيتكرهه ولا يكاد يبتلعه من شدة نتانته وكثافته .

---

(١) رواه الترمذى (١٠/٥٤) صفة جهنم وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد (٣٠١/١ ، ٣٣٨) ، وابن ماجة (٤٣٢٥) الزهد وصححه الألبانى فى صحيح الجامع رقم ٥١٢٦ وصححه عبد القادر الأرناؤوط فى تحقيق جامع الأصول .

قال تعالى : ﴿ **وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ** ﴾ [محمد : ١٥] والحميم هو الماء الحار المغلى بنار جهنم يذاب بهذا الحميم ما فى بطونهم وتسيل به أمعاؤهم وتتناثر جلودهم كما قال تعالى : ﴿ **يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾ [الحج : ٢٠ ، ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا** ﴾ [الكهف : ٢٩] .

ملابس أهل النار :

قال اللّه عز وجل : ﴿ **وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾ [إبراهيم : ٤٩ ، ٥٠] فقوله : ﴿ **سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ** ﴾ أى قمصانهم من قطران تطلى به جلودهم حتى يعود ذلك الطلاء كالسرابيل ، وخص القطران لسرعة اشتعال النار فيه مع نتن رائحته ووحشة لونه ، والقطران قيل فيه ما يطلى به الجمل الأجرب . وعن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب** »[1] .

وقال اللّه تعالى : ﴿ **فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ** ﴾ [الحج : ٢٠] .

فقوله : ﴿ **قُطِّعَتْ** ﴾ أى قدرت لهم على قدر جثثهم لأن الثياب تقطع على مقدار بدن من يلبسها ، وقيل إنها من نحاس قد أذيب فصار كالنار ، والحق إجراء النظم القرآنى على ظاهره .

---

(١) رواه مسلم (٦/٢٣٥ ، ٢٣٦) الجنائز . وقال النووى : فيه دليل على تحريم النياحة وهو مجمع عليه وفيه صحة التوبة ما لم يمت المكلف ولم يصل إلى الغرغرة .

وعن سَمُرَةَ بن جندب رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « **منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته** »(١) .

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : « **أهون أهل النار عذابا أبو طالب ، ينتعل بنعلين يغلى منهما دماغه** »(٢) .

أسـرة أهـل النـار :

قال تعالى : ﴿ **لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ** ﴾ [الأعراف : ٤١] .

أى فرش من النار ويلتحفون بألحفة من النار عياذا باللّه من حالهم .

وقال تعالى : ﴿ **لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ** ﴾ [الزمر : ١٦] أى أطباق وفراش ومهاد وسرادقات ، وإطلاق الظَلل عليها تهكما ، وإلا فهى محرقة والظلة تقى من النار كما قال تعالى : ﴿ **إنطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلاثِ شُعَبٍ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ** ﴾ [المرسلات : ٣٠ ، ٣١] .

عظم أهـل النار وبشاعة منظرهـم :

عن أبى هريرة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ قال : « **ما بين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع** »(١) والمنكب هو الكتف . وعنه رضى اللّه عنه

---

(١) رواه مسلم (١٨٠/١٧) الجنة .

(٢) رواه مسلم (٨٥/٣) الإيمان .

(٣) رواه البخارى (٤١٥/١١) الرقاق ، ومسلم (١٨٦/٧) صفة الجنة .

قال : قال رسول الله ﷺ : « **ضرس الكافر - أى ناب الكافر - مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث** »[(١)] .

قال الحافظ المنذرى : وقد ورد أن من هذه لأمة من يعظم فى النار كما يعظم فيها الكفار ، فروى ابن ماجة والحاكم وغيرهم من حديث عبد الله بن قيس قال : كنت عند أبى بريدة ذات ليلة فدخل علينا الحارث بن أقيش رضى الله عنه ، فحدثنا الحارث لَيْلَتَئِذٍ أن رسول الله ﷺ قال : « **إن من أمتى من يدخل الجنة بشفاعته أكثر من مضر ، وإن من أمتى من يعظم للنار حتى يكون أحد زواياها** »[(٢)] .

فصل فى ذكر بعض ألوان العذاب :

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « **يؤتى بأنعم الناس يوم القيامة من أهل النار فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب . ويؤتى بأشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟ هلّ مر بك شدة قط ؟ فيقول : لا والله يارب ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط** »[(٣)] وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « **ما من صاحب كنز لا يؤدى زكاته إلا مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعا أقرعا له زبيبتان يأخذ بلهزمتيه فيقول : « أنا مالك أنا كنزك** »[(٤)] ، واللهزمة عظم ناتىء

---

(١) رواه مسلم (١٧/١٨٦) صفة الجنة والترمذى (١٠/٤٧ ، ٤٨) صفة جهنم قال النووى : هذا كله لكونه أبلغ فى إيلامه وكل هذا مقدور لله تعالى يجب الإيمان به لإخبار الصادق به ﷺ .

(٢) رواه ابن ماجة (٤٣٢٣) صفة النار والحاكم (١/٧) وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبى وقال المنذرى وإسناده جيد وصححه الألبانى .

(٣) رواه مسلم (١٧/١٤٩) صفة القيامة ، وابن ماجة (٤٣٢١) صفة النار قال ابن الأثير : فيصبغ : أى يغمس فى النار أو الجنة غمسه كأنه يدخل إليها إدخاله واحدة .

(٤) رواه البخارى (٦٨٣) الزكاة .

فى اللحى ، وفى رواية : « يفر منه ويتبعه ، ويتقى منه فيلقم يده ثم يطوقه » وقرأ هذه الآية : ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : قال : « **إن أهون أهل النار عذابا رجل فى أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل بالقمم** »[١] .

وعن الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾ [النساء : ٥٦] قال : تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم : « عودوا » فيعودون كما كانوا .

عذاب أهل النار المعنوى :

من عذاب أهل النار المعنوى أن الملائكة تبكتهم قبل أن يدخلوا منازلهم فى النار كما قال تعالى : ﴿ **كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ، قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ** ﴾ [الملك : ٨ ، ٩] .

ومن عذابهم المعنوى . أنهم يلعن بعضهم بعضا ويسب بعضهم بعضا قال تعالى : ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا** ﴾ [الأعراف : ٣٨] ويتبرأ الكبراء من المستضعفين ويقول المستضعفون : ﴿ **لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ** ﴾ [البقرة : ١٦٧] .

---

(٣) رواه البخارى (٤١٧/١١) الرقاق ، ومسلم (٨٥/٣ ، ٨٦) الإيمان ، والترمذى (٢٧٤٤) صفة جهنم .

ومن عذابهم المعنوى أنهم يرون الذين كانوا يسخرون منهم ويستهزؤون بهم من أهل الإيمان قد فازوا بالرضى والرضوان ونجوا من غضب الملك الديان كما قال تعالى : ﴿ **وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ** ﴾ [ص : ٦٢ ، ٦٣] .

ومن عذابهم المعنوى كذلك أنهم يمنعون من الكلام قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم اللّه عز وجل فى أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون : ﴿ **رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ** ﴾ [غافر : ١١] فيقول : اللّه تعالى مجيبا لهم : ﴿ **ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ** ﴾ [غافر : ١٢] ثم يقولون : ﴿ **رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا** ﴾ [السجدة : ١٢] فيجيبهم اللّه تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ** ﴾ [إبراهيم : ٤٤] فيقولون : ﴿ **رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ** ﴾ [فاطر : ٣٧] فيجيبهم اللّه تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ** ﴾ [فاطر : ٣٧] ثم يقولون : ﴿ **رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١٠٦ ، ١٠٧] فيجيبهم اللّه تعالى : ﴿ **اخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ** ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] فلا يتكلموا بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب .

قال مالك بن أنس : قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ [إبراهيم : ٢١] قال : صبروا مائة سنة ، ثم جزعوا مائة سنة ، ثم صبروا مائة سنة ، ثم قالوا : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ وعن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **يُؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيذبح بين الجنة**

والنار ، ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت »[1] .

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غمومها وأحزانها ومحنها وحسرتها لا نهاية له ، وأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله وفوت رضاه ، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة ، إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى الدنيا أياما قصيرة وكانت غير صافية كانت مكدرة منغصة ، فيقولون فى أنفسهم : واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ، وكيف لم نكف أنفسنا الصبر أياما قلائل ، ولو صبرنا لكانت انقطعت عنا أيامه وبقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان ، فيالحسرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها ، واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون ، وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى : **﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾** [مريم : ٣٩] ولعمرى الإشارة به إلى يوم القيامة بل فى أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتنشغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك ، فإن قلت : فليت شعرى ماذا موردى ؟ وإلى ماذا مآلى ومرجعى ؟ وما الذى سبق به القضاء فى حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها ، وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلا ميسر لما خلق له ، فإن كان قد يسر لك سبيل الخير

---

(١) رواه البخارى (٤١٥/١١) الرقاق : صفة الجنة والنار ، ومسلم (١٨٦/١٧) صفة الجنة

قال ابن الأثير : الأملح : المختلط البياض والسواد . وقوله « فيذبح » شبه اليأس من مفارقة الحالتين فى الجنة والنار والخلود فيها بحيوان يذبح فيموت ، فلا يبقى يرجى له حياه ولا وجود ، وكذلك حال أهل الجنة والنار بعد الاستقرار فيهما وإخراج من يخرجه الله من النار فى اليأس من مفارقة حالتيهما وانقطاع الرجاء من زوالها .

فأبشر فإنك مبعد عن النار ، وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتحيط بك العوائق فتدفعك ، ولا تقصد شرًا إلا ويتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك ، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة الدخان على النار ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣ ، ١٤] فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرك من الدارين والله أعلم .

صفة الجنة وأصناف نعيمها :

قال الغزالى رحمه الله مَا ملخصه :

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى فتأمل نعيمها وسرورها ، فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة فى الأخرى ، فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم ، واستثر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم لأهل الجنان ، وسق نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم ، فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، ومحفوفة بالغلمان والولدان مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، آمنات من الهرم مقصورات فى الخيام ، ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خُدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ، فى مقام أمين فى جنات وعيون فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب المنون آمنون ، فهم يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا ، فيا عجبا ممن يؤمن

بدار هذه صفتها ، ويوقن بأنه لا يموت أهلها ، ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ويهنأ بعيش دونها ، والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته - كيف وأهلها ملوك آمنون وفى أنواع السرور متمتعون ، لهم فيها ما يشتهون وهم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون ، وينالون بالنظر إلى وجه الله ما لا ينظرون معه إلا سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون وهم من زوالها آمنون ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ينادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾**[1] [الأعراف : ٤٣] .

فصل : فى أن الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور فى الخيال وأن موضع سَوطٍ منها خير من الدنيا وما فيها :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل : « **أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾**[2] [السجدة : ١٧] .

---

(١) إحياء علوم الدين [٢٩٩٧-٢٩٩٩] باختصار وتصرف والحديث رواه مسلم (١٧٥/١٧) الجنة وصفة نعيمها ، والترمذى (١٢٤/١٢ ، ١٢٥) التفسير .

(٢) رواه البخارى (٣١٨/٦) بدء الخلق ، ومسلم (١٦٦/١٧) الجنة وصفة نعيمها : وابن ماجة (٤٣٢٨) الزهد .

وثبت عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلا الأسماء ، فليس العسل كالعسل ، وليس الخمر كالخمر وليس العنب كالعنب .

ومهما قرأت فى وصف نعيمها وخطر نعيمها ببالك من متاعها وعجائبها فهى أعجب مما قرأت وأطيب مما خطر على قلبك ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب** »[1] .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : وكيف يقدر قدر دار خلقها الله بيده وجعلها مقرا لأحبابه وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه ، ووصف نعيمها بالفوز العظيم ، وملكها بالملك الكبير ، وأودعها الخير بحذافيره ، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص ، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهى المسك والزعفران ، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن وإن سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر ، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر ، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب ، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب أو فضة لا من الحطب والخشب ، وإن سألت عن ثمارها فأمثال القلال ألين من الزبد وأحلى من العسل ، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل ، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى .

---

(١) رواه البخارى (٦/٣٢٠) بدء الخلق ، ورواه مسلم بلفظ « **لغدوة فى سبيل الله أو روحة** » (١٣/٢٦) الإمارة ، والترمذى (٧/١٥٥) الجهاد .

فصل فى بيان صفة أبواب الجنة ودرجاتها وأبنيتها :

أبواب الجنة :

عن سهل بن سعد أن رسول اللّه ﷺ قال : « **فى الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون** »[1] .

وعن أبى هريرة رضى اللّه عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **من أنفق زوجين من ماله فى سبيل اللّه دعى من أبواب الجنة كلها ، وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد** » فقال أبو بكر رضى اللّه عنه واللّه ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال : « **نعم وأرجو أن تكون منهم** »[2] .

درجات الجنة :

وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « **الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض** » وهذا يدل على أنها فى غاية العلو والارتفاع واللّه أعلم ، والحديث له لفظان هذا أحدهما والثانى « **وإن فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض أعدها اللّه للمجاهدين فى سبيله** »[3] وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يرجح هذا اللفظ وهو لا ينفى أن يكون درج الجنة أكثر

---

(١) رواه البخارى (٣٢٨/٦) بدء ، ومسلم (٣٢/٨) الصيام بلفظ « **فى الجنة باب يقال له الريان** » .

(٢) رواه البخارى (١٩/٧) فضائل الصحابة ، ومسلم (١١٥/٧ ، ١١٦) الزكاة ، ومالك (٤٦٩/٢) الجهاد ، والنسائى (٢٢/٦ ، ٢٣) الجهاد .

(٣) رواه البخارى (١١/٦) ، ومسلم (٢٨/١٣) الإمارة ، والترمذى (٨/١٠) صفة الجنة ، وابن ماجة (٤٣٣١) الزهد .

من ذلك ونظير هذا قوله فى الحديث الصحيح : « **إن للّه تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة** »[1] .

أى من جملة أسمائه هذا القدر فيكون الكلام جملة واحدة فى الموضعين ، ويدل على صحة هذا أن منزلة نبينا ﷺ فوق هذا كله فى درجة فى الجنة ليس فوقها درجة ، وتلك المائة ينالها آحاد أمته بالجهاد . والجنة مقببة أعلاها وأوسطها هو الفردوس وسقفة العرش كما قال ﷺ فى الحديث الصحيح : « **إذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة** »[2] كما أفاده ابن كثير رحمه اللّه .

وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول اللّه ﷺ قال : « **إن أهل الجنة ليتراؤن الغرف كما يتراؤن الكوكب الدرى الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم** »[3] .

أبنيـة الجنـة :

قال اللّه تعالى : ﴿ **لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ** ﴾ [الزمر : ٢٠] فأخبر أنها غرف فوق غرف وأنها مبنية بناء حقيقة ؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء .

وعن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « **إن للمؤمن فى الجنة**

---

(١) رواه البخارى (٢١٤/١١) الدعوات بمعناه ، ومسلم (٥/١٧ ، ٦) الذكر والدعاء ورواه الترمذى وفيه زيادة ذكر الأسماء .

(٢) جزء من الحديث قبل السابق .

(٣) رواه البخارى (٤١٦/١١) الرقاق ، و(٣٢٠/٦) بدء الخلق ، ومسلم (١٦٩/١٧) الجنة وصفة نعيمها ، والترمذى (٢١/١٠) صفة لجنة .

لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا فيها أهلون ويطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا ﴾[1] .

وعن أبى هريرة وعائشة أن جبريل قال للنبى ﷺ : « **هذه خديجة أقرئها السلام من ربها وأمره أن يبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب** »[2] والقصب ها هنا قصب اللؤلؤ المجوف،قيل: لأنها حازت قصب السبق فى التصديق برسول الله ﷺ فكان جزاؤها قصراً من قصب ، وعن أنس أن النبى ﷺ قال : « **أدخلت الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب فقلت لمن هذا القصر ؟ قالوا : لشاب من قريش فظننت أنى أنا هو ، فقلت : ومن هو ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب** »[3] .

طعــام أهــل الجنــة :

قال تعالى : ﴿ **وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴾ [الواقعة : ٢٠ ، ٢١] .

أما فاكهة الجنة فقد قال تعالى فى وصفها : ﴿ **كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا** ﴾ [البقرة : ٢٥] .

قال ابن جرير رحمه الله : ﴿ **كُلَّمَا رُزِقُوا** ﴾ من ثمرة من ثمار الجنة فى الجنة قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا ، وقيل كذلك ﴿ **رُزِقْنَا مِن قَبْلُ** ﴾ اى فى الجنة لتعدد الأصناف وتشابهها فى الظاهر ، قوله : ﴿ **وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا** ﴾

---

(١) رواه البخارى (٣١٨/٦) بدء الخلق ، ومسلم (١٧٥/١٧) الجنة وصفة نعيمها ، والترمذى (٦/١٠) صفة الجنة .

(٢) رواه البخارى (١٣٣/٧) مناقب الأنصار ، ومسلم (١٩٩/١٥) الفضائل والمراد بالبيت هنا القصر ، والصخب الصوت المختلط المرتفع ، والنصب المشقة والتعب .

(٣) رواه البخارى (٣١٨/٦) بدء الخلق ، ومسلم بمعناه (١٦٣/١٥) الفضائل بمعناه عن جابر رضى الله عنه .

[البقرة : ٢٥] قال الحسن : خيار كله لارَذَل ألم تروا إلى ثمر الدنيا كيف تسترذلون بعضه ، وقال تعالى : ﴿ **وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ** ﴾ [الواقعة : ٣٣] أى لا تكون فى وقت دون وقت ولا تمنع ممن أرادها ، وقال تعالى : ﴿ **وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا** ﴾ [الإنسان : ١٤] قال ابن عباس : إذا هَمَّ أن يتناول من ثمرها تدلت له حتى يتناول ما يريد .

عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله ﷺ : ما الكوثر قال : « **ذاك نهرٌ أعطانيه الله يعنى فى الجنة أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل فيها طيرٌ أعناقها كأعناق الجزر ، قال عمر : إن هذه لناعمةٌ ، قال رسول الله ﷺ : أكلتها أحسن منها** »[1] .

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس** »[2] .

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال : فمن أول إجازة ؟ يعنى على الصراط فقال : « **فقراء المهاجرين** » قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : « **زيادة كبد الحوت** » قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : « **ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها** » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : « **من عين فيها تسمى سلسبيلا** » فقال : صدقت[3] .

---

(١) رواه الترمذى (١٠/١٢) صفة الجنة وقال : هذا حديث حسن غريب وقال الألبانى : حسن صحيح .

(٢) رواه مسلم (١٧/١٧٤) الجنة وصفة نعيمها .

(٣) رواه مسلم (٣/٢٢٦ ، ٢٢٧) الحيض بزيادة فى أوله وآخره والبغوى فى شرح السنة (١٥/٢٢٤ ، ٢٢٥) الفتن قوله : « **زيادة كبد الحوت** » الزيادة هى طرف الكبد وهو أطيبها .

شـراب أهـل الجنـة :

قال اللّه عز وجل : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا** ﴾ [الإنسان : ٥ ، ٦ .

والكأس هو الإناء الذى فيه الشراب ، ويطلق كذلك على نفس الخمر كما قال بعضهم :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَـذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَـا

قوله : ﴿ **كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا** ﴾ أى يخالطها وتمزج به قال مقاتل : ليس هو كافور الدنيا وإنما سمى ما عنده بما عندكم حتى تهتدى له القلوب ، **قوله :** ﴿ **يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً** ﴾ أى يجرونها إلى حيث يريدون وَيَنْتَفِعُونَ بها كما يشاءون .

وقال تعالى : ﴿ **وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا** ﴾ [الإنسان : ١٧] أى كأسا من خمر ممزوجة بالزنجبيل ، وقد كانت العرب تستلذ مزج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته .

وقال تعالى : ﴿ **وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا** ﴾ [الإنسان : ٢١] والمعنى أن ذلك الشراب طاهر ليس كخمر الدنيا ، قال أبو قلابة وإبراهيم النخعى : يؤتون بالطعام فإذا كان آخره أتوا بالشراب الطهور فتضمر بطونهم من ذلك ويفيض عرق من أبدانهم مثل ريح المسك . وعن زيد بن أرقم رضى اللّه عنه قال : جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبى ﷺ فقال : يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال : نعم والذى نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع قال : فإن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس فى الجنة أذى قال : « تكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم

كرشح المسك فيضمر بطنه »[1] .

وقال أبو الدرداء رضى اللّه عنه فى قوله تعالى : ﴿ **ختامه مسك** ﴾ [المطففين : ٢٦] قال : هو شراب أبيض مثل الفضة يختمون به آخر شرابهم . لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد ريح طيبها .

وقال عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه :﴿ **وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [المطففين : ٢٧ ، ٢٨] .

قال : يمزج لأصحاب اليمين ويشربه المقربون صرفا .

ثيـاب أهـل الجنـــة :

قال تعالى : ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ** ﴾ [فاطر : ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ **يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ** ﴾ [الكهف : ٣١] .

قال جماعة من المفسرين : السندس : ما رَقّ من الحرير والإستبرق ما غلظ منه . وقالت طائفة : ليس المراد به الغليظ ولكن المراد به الصفيق ، وقال الزجاج : هما نوعان من الحرير ، وأحسن الألوان : الأخضر وألين اللباس الحرير فجمع بين حسن منظر اللباس والتذاذ العين به وبين نعومته والتذاذ الجسم به ،

---

(١) رواه أحمد (٣٦٧/٤) والنسائى فى الكبرى عن على بن حجر عن على بن مسهر عن الأعمش عنه به (١٩١/٣) تحفة الاشراف وقال المنذرى : رواته محتج بهم فى الصحيح – الترغيب والترهيب (٢٩٦/٦ ، ٢٩٧) . وقال الهيثمى : ورواه البزار ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح غير ثمامة بن عقبة وهو ثقة – مجمع الزوائد (٤١٦/١٠) .

وفى حديث البراء بن عازب قال : « **أهدى لرسول الله ﷺ ثوب حرير فجعلوا يعجبون من لينه فقال رسول الله ﷺ : تعجبون من هذا ؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا** »[1] .

أى أن المنديل الذى يمسح به يديه فى الجنة أحسن من حلل الملوك .

وقال ﷺ : « **تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء** »[2] .

وعن زهير بن حرب عن رسول الله ﷺ قال : « **من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه** »[3] .

صفـة أهـل الجنـــة :

عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **يدخل أهل الجنة جردا مردا كأنهم مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين** »[4] .

قوله « **جردا** » أى بدون شعر على أجسادهم وقوله : « **مردا** » بدون لحية .

وفى حديث أبى هريرة : « **على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا** »[5] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على صورة أشد**

---

(١) رواه البخارى (٦/٣١٩) بدء الخلق .
(٢) رواه مسلم (٣/١٤٠) الطهارة ، والنسائى (١/٩٣) الطهارة .
(٣) رواه مسلم (١٧/١٧٤) الجنة وصفة نعيمها .
(٤) رواه الترمذى (١٠/١٤) صفة الجنة وقال : حسن غريب ، وحسنه الألبانى .
(٥) رواه مسلم (١٧/١٧٢) الجنة وصفة نعيمها .

كوكب درى فى السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يتفلون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة أزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء »[1] .

وأما الأخلاق فقد قال تعالى : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ [الحجر : ٤٧] .

فأخبر عن تلاق قلوبهم وتلاق وجوههم وفى حديث الصحيحين : « **لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون اللّه بكرة وعشية »**[2] .

أدنـى أهـل الجنــة منزلـة :

عن المغيرة بن شعبة رضى اللّه عنه عن النبى ﷺ : « **إن موسى عليه السلام سأل ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل قد يجىء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال : له أدخل الجنة فيقول : رب كيف وقد نزلت الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب ، قال : رب فأعلاهم منزلة . قال :**

---

(١) رواه البخارى (٣١٩/٦) بدء الخلق ، ومسلم (١٧٢/١٧ ، ١٧٣) الجنة وصفة نعيمها .
والألوّه : العود المندى .

(٢) رواه البخارى (١٣٨/٦) بدء الخلق ، مسلم (١٧٣/١٧) الجنة وصفة نعيمها وهو رواية للحديث السابق .

أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيد وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر »[1] .

نســاء الجنــة :

قال تعالى : ﴿ **وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٥] .

قال ابن القيم ما ملخصه :

جمع الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبدا الآباد وعدم انقطاعه والأزواج المطهرة هى التى طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا وطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة وطهر لسانها من الفحش والبذاء وطهر طرفها من أن تطمع به إلى غير زوجها .

وقال تعالى : ﴿ **وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ** ﴾ [الدخان : ٥٤] والحور جمع حوراء وهى المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء شديدة سواد العين وقال مجاهد : الحوراء التى يحار فيها الطرف من رقة الجلد وصفاء اللون والصحيح أن الحور مأخوذ من الحور فى العين وهو شدة بياضها مع قوة سوادها فهو يتضمن الأمرين .

---

(١) رواه البخارى بمعناه مختصرا (٤١٩/١١) الرقاق ، ومسلم (٤٥/٢ ، ٤٦) الإيمان .

وقال تعالى : ﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ [ص : ٥٢] أى قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم وقوله : ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ قال ابن عباس وسائر المفسرين : مستويات على سن واحد وميلاد واحد بنات ثلاث وثلاثين سنة .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « **لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع قيده يعنى سوطه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها** »[١] والنصيف هو الخمار أى غطاء الرأس .

وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ « **إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتى يليها على أضواء كوكب درى فى السماء ولكل امرىء منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم وما فى الجنة أعزب** »[٢] .

النظر إلى وجه الله عز وجل :

قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] وهذه الزيادة هى النظر إلى وجه الله عز وجل والحسنى هى الجنة عن صهيب قال : قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وزِيادَه ﴾ قال : « **إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن**

---

(١) رواه البخارى (١٥/٦) الجهاد ، والترمذى (١٥٥/٨) الجهاد .

(٢) تقدم تخريجه (ص : ٣٢١) .

لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه . قالوا : ما هذا الموعد ؟ ألم يثقل موازيننا ؟ ويبيض وجوهنا ؟ ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ قال : فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه »[1] وهذه هى غاية الحسنى ونهاية النعمة وكل ما فصلناه من النعيم عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لا نسبة لشىء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء .

شعر : يقول الإمام ابن القيم رحمه الله فى وصف الجنـة :

وَمَا ذَاكَ إِلَّا غَيـرَةً أَنْ يَنَالَهَـا ... سِوى كُفْئِهَا وَالرَّبُّ بِالخَلْقِ أَعْلَمُ

وإِن حُجِبَتْ عَنَّا بِكُلِّ كَرِيهَةٍ ... وَحُفَّتْ بِمَا يُؤْذِى النُّفُوسَ وَيُؤْلِمُ

فَلِلَّهِ مَا فِى حَشْوِهَا مِنْ مَسَرَّةٍ ... وَأَصْنَـافِ لَذَّاتٍ بِهَـا يُتَنَعَّـمُ

وَلِلَّهَ بَرْدُ العَيْشِ بَيْنَ خِيَامِهَـا ... وَرَوْضَاتِهَا وَالثَّغْرُ فِى الرَّوْضِ يَبَسَّمُ

وَلِلَّهِ وَادِيهَا الَّذِى هُوَ مَوْعِدُ الْمَزِ ... يدِ لوِفْدِ الْحُبِّ لَوْ كُنْتَ مِنْهُمُ

وَلِلَّهِ أَبْصَارًا تَرَى اللَّهَ جَهـرَة ... فَلَا الضَّيْمُ يَغْشَاهَا وَلَا هِىَ تَسْأَمُ

فَيَا نَظْرَة أَهْدتْ إِلى الوَجْهِ نَضْرَةً ... أَمِنْ بَعْدِهَا يَسْلُو الْمُحِبُّ الْمُتَيَّمُ

وَلِلَّهِ كَمْ مِنْ خيره إِنْ تَبَسَّمَـتْ ... أَضَاءَ لَهَا نُورٌ مِنَ الْفَجْرِ أَعْظَمُ

فَيَا لَذَّةَ الأَبْصَـارِ إِنْ هِىَ أَقْبَلَتْ ... وَيَا لَذَّةَ الأَسْمَاعِ حِينَ تَكَلَّـمُ

وَيَاخَجْلَةَ الْغُصْنِ الرَّطِيبِ إِذَا انْثَنَتْ ... وَيَا خَجْلَةَ الْفَجْرَيْنِ حِينَ تَبَسَّـمُ

فَإِنْ كُنْتَ ذَا قَلْبٍ عَلِيلٍ بِحُبِّهَا ... فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَصْلُهَا لَكَ مَرْهَمُ

إِذَا قَابَلَتْ جَيْشَ الهُمُومِ بِوَجْهِهَا ... تَوَلَّى عَلَى أَعْقَابِهِ الْجَيْشُ يُهْزَمُ

فَيَا خَاطِبَ الْحَسْنَاءِ إِنْ كُنْتَ رَاغِبًا ... فَهَذَا زَمَانُ الْمَهْرِ فَهُوَ الْمُقَدَّمُ

وَكُنْ مُبْغِضاً لِلْخَائِنَاتِ لِحُبِّهَا ... فَتَحْظَى بِهَا مِنْ دُونِهِمْ وَتُنَعَّمُ

---

(١) رواه مسلم (١٧/٣) الإيمان .

وَصُمْ يَوْمَكَ الْأَدْنَى لَعَلَّكَ فِي غَدٍ تَفُوزُ بِعِيدِ الْفِطْرِ وَالنَّاسُ صُوَّمُ

وَأَقْدِمْ وَلَا تَقْنَعْ بِعَيْشٍ مُنَغَّصٍ فَمَا فَازَ بِاللَّذَّاتِ مَنْ لَيْسَ يُقْدِمُ

وَإِنْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ بِأَسْرِهَا وَلَمْ يَكُ فِيهَا مَنْزِلٌ لَكَ يُعْلَمُ

فَحَيِّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُنَا الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ

وَحَيِّ عَلَى السُّوقِ الَّذِي فِيهِ يَلْتَقِي الْمُحِبُّونَ ذَاكَ السُّوقُ لِلْقَوْمِ يُعْلَمُ

فَمَا شِئْتَ خُذْ مِنْهُ بِلَا ثَمَنٍ لَهُ فَقَدْ أَسْلَفَ التُّجَّارُ فِيهِ وَأَسْلَمُوا

وَحَيِّ عَلَى يَوْمِ الْمَزِيدِ الَّذِي بِهِ زِيَادَةُ رَبِّ الْعَرْشِ فَالْيَوْمَ مَوْسِمُ

وَحَيِّ عَلَى وَادٍ هُنَالِكَ أَفْيَحٍ وَتُرْبَتُهُ مِنْ أَذْفَرِ الْمِسْكِ أَعْظَمُ

مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ هُنَالِكَ وَفِضَّةٍ وَمِنْ خَالِصِ الْعِقْيَانِ لَا يَتَقَسَّمُ

وَكُثْبَانُ مِسْكٍ قَدْ جُعِلْنَ مَقَاعِدًا لِمَنْ دُونَ أَصْحَابِ الْمَنَابِرِ يُعْلَمُ

فَبَيْنَا هُمُو فِي عَيْشِهِمْ وَسُرُورِهِمْ وَأَرْزَاقُهُمْ تُجْرَى عَلَيْهِمْ وَتُقْسَمُ

إِذَا هُمْ بِنُورٍ سَاطِعٍ أَشْرَقَتْ لَهُ بِأَقْطَارِهَا الْجَنَّاتُ لَا يُتَوَهَّمُ

تَجَلَّى لَهُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ جَهْرَةً فَيَضْحَكُ فَوْقَ الْعَرْشِ ثُمَّ يُكَلِّمُ

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ يَسْمَعُونَ جَمِيعُهُمْ بِآذَانِهِمْ تَسْلِيمَهُ إِذْ يُسَلِّمُ

يَقُولُ سَلُونِي مَا اشْتَهَيْتُمْ فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ عِنْدِي إِنَّنِي أَنَا أَرْحَمُ

فَقَالُوا جَمِيعًا نَحْنُ نَسْأَلُكَ الرِّضَا فَأَنْتَ الَّذِي تُولِي الْجَمِيلَ وَتَرْحَمُ

فَيُعْطِيهِمُوا هَذَا وَيَشْهَدُ جَمْعُهُمْ عَلَيْهِ تَعَالَى اللَّهُ فَاللَّهُ أَكْرَمُ

فَيَا بَائِعًا هَذَا بِبَخْسٍ مُعَجَّلٍ كَأَنَّكَ لَا تَدْرِي بَلَى سَوْفَ تَعْلَمُ

فَإِنْ كُنْتَ لَا تَدْرِي فَتِلْكَ مُصِيبَةٌ وَإِنْ كُنْتَ تَدْرِي فَالْمُصِيبَةُ أَعْظَمُ

إنتهى بحمد اللّه تعالى ما تيسر جمعه واللّه أسأل أن يعم نفعه وأن يرزقنا يوم القيامة بره وذخره وكانت المراجعة النهائية يوم الخميس خمسة وعشرين من شهر ذى القعدة سنة ١٤١٠ هجرية على صاحبها أزكى صلاة وسلام وتحية

■ ■ ■ ■

٢٧ - مراجـــع الكتـــاب

مراجع حديثيــة :

١	- فتح البارى شرح صحيح البخارى	ط السـلفية
٢	- صحيح مسلم بشرح النووى	المكتبة المصرية
٣	- عون المعبود شرح سنن أبى داود لشـمس الحق أبادى	مكتبة السلفية بالمدينةالمنورة
٤	- عارضة الأحوذى شرح جامع الترمذى لابن العـربى	دار الوحـى
٥	- تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى للمباركفورى	المكتبـة السلفية بالمدينة المنورة
٦	- سنن النسائى بشرح السيوطى وحاشية السندى	دار الكتب العلمية
٧	- سنن ابن ماجة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقى	المكتبة العلمية
٨	- مسـند أحمد بفهرس الألبانى	المكتب الإسلامى
٩	- مسـند أحمد بتحقيق أحمد شاكر	المعـارف
١٠	- السلسلة الصحيحة للألبانى	المكتب الإسلامى
١١	- جامع الأصـول لابن الأثير	دار الفكر
١٢	- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى	دار الكتاب العربى
١٣	- صحيح الجامع الصغير وزيادته للألبانى	المكتب الإسلامى
١٤	- مصنف عبد الرزاق	المكتب الإسلامى

١٥ – مستدرك الحاكم وتلخيص الذهبى | دار المعرفة

١٦ – سنن الدارمى | دار الكتب العلمية

١٧ – شرح السنة للبغوى بتحقيق شعيب الأرناؤوط | دار بدر

١٨ – صحيح الترمذى للألبانى | المكتب الإسلامى

١٩ – صحيح ابن ماجة للألبانى | المكتب الإسلامى

٢٠ – المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى
لجماعة من المستشرقين | دار الدعوة

٢١ – تحفة الأشراف للمزى | الدار القيمة بالهند

٢٢ – موطأ مالك بترقيم محمد فؤاد عبد الباق | د الحلبى

٢٣ – موارد الظمأن فى زوائد ابن حبان
لنور الدين الهيثمى | دار الكتب العلمية

٢٤ – مشكاة المصابيح للتبريزى بتحقيق الألبانى | المكتب الإسلامى

٢٥ – جنة المرتاب للحوينى | دار الكتاب العربى

□ □ □ □

٢٧ - مراجـــع الكتـــاب

رقائــق ومواعــظ :

١ - القرآن الكريم

٢ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير — ط دار المعرفة

٣ - إحياء علوم الدين بتحقيق الحافظ العراق — طبعة الشعب

٤ - جامع العولم والحكم لابن رجب الحنبلى — ط الحلبى

٥ - إغاثة اللهفان لابن القيم — الحلبى

٦ - البداية والنهاية لابن كثير — دار الفكر العربى

٧ - الترغيب والترهيب للمنذرى — دار الفكر

٨ - رياض الصالحين للنووى بتحقيق الألبانى — المكتب الإسلامى

٩ - الجواب الكافى لابن القيم — عمر بن الخطاب

١٠ - موارد الظمآن لدروس الزمان للسلمان — الطبعة الثانية عشر

١١ - معارج القبول لحافظ بن أحمد — المطبعة السلفية

١٢ - موعظة المؤمنين للقاسمى — المكتبة التجارية

١٣ - مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة — دار الإمام

١٤ - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح لابن القيم — مكتبة نهضة مصر

١٥ - زاد المعـــاد لابن القيم — الرســـالة

١٦ - مفتاح دار السعادة لابن القيم — مكتبة السعادة

١٧ - مجموع الفتاوى لابن تيمية — مكتبة ابن تيمية

١٨ - أحكام الجنائز للألبانى طبعة المكتب الإسلامى المكتب الإسلامى
١٩ - مدارج السالكين لابن القيم دار الفكر العربى
٢٠ - التبيان فى آداب حملة القرآن للنووى المكتبة التوفيقية
٢١ - تلبيس إبليس لابن الجوزى مكتبة المتنبى
٢٢ - أخلاق العلماء للآجرى
٢٣ - تفسير المعوذتين لابن القيم المطبعة السلفية
٢٤ - الجهاد فى سبيل الله لحسن البنا
٢٥ - المقاصد الحسنة للسخاوى
٢٦ - مختصر تذكرة القرطبى
٢٧ - الوابل الصيب لابن القيم المطبعة السلفية
٢٨ - فضل الصلاة على النبى ﷺ لإسماعيل الطبعة الثالثة
ابن إسحاق بتحقيق الألبانى بيروت
٢٩ - جلاء الأفهام لابن القيم
٣٠ - تزكية النفوس للمؤلف مكتبة التوعية الإسلامية
٣١ - الروح لابن القيم محمد على صبيح
٣٢ - رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابن تيمية المكتبة القيمة
٣٣ - رسالة فى التوكل لابن تيمية دار الفتح
٣٤ - الكتاب والسنة منهج حياة عبد الرحمن عبد الخالق
٣٥ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم زكريا على يوسف

فهــرس الموضوعــات

رقم الإيداع : ٤٨٦٧ / ١٩٩١
طبع بدار نوبار للطباعة